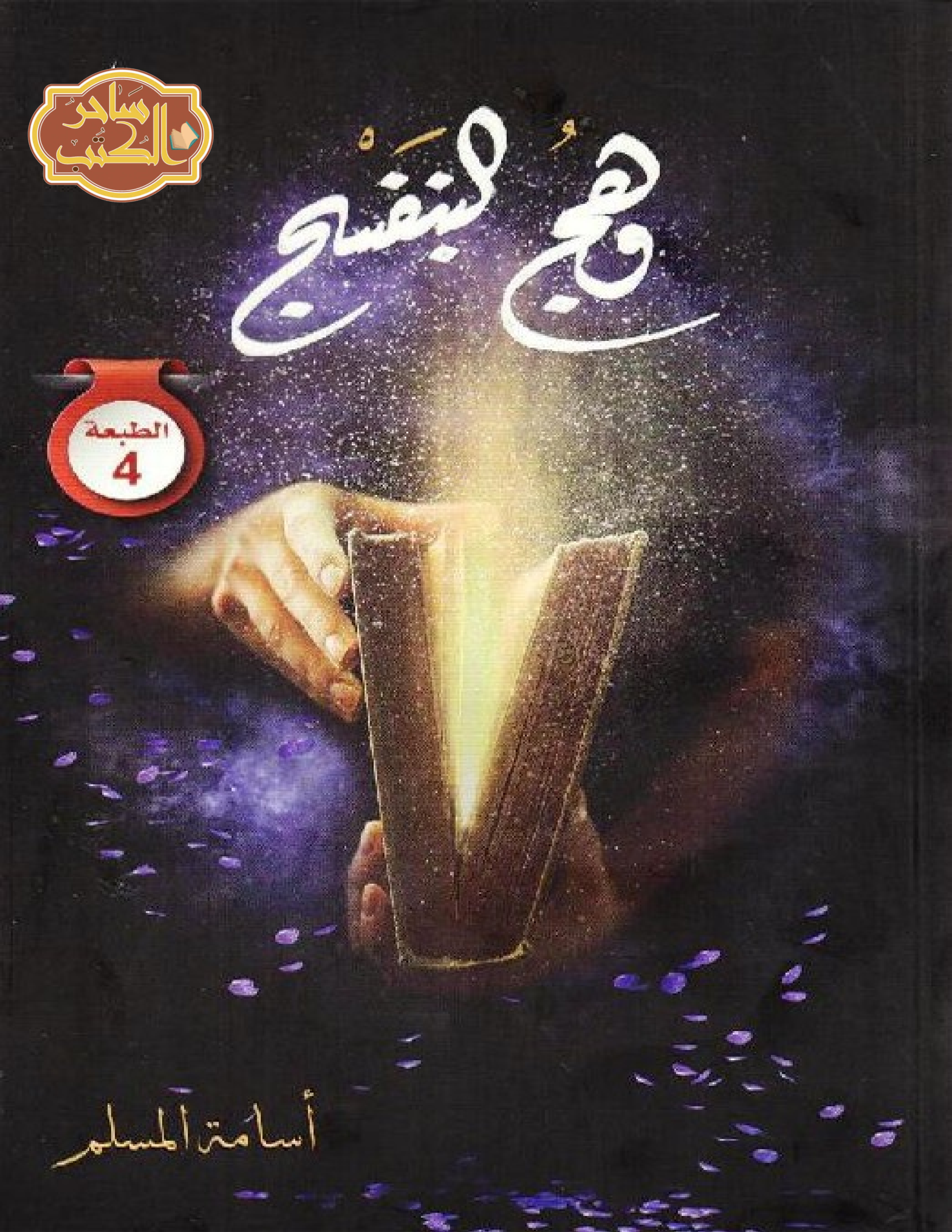

ساحر الكتب
همس البنفسج
الطبعة 4
أسامة المسلم

الكتاب: وهج البنفسج
المؤلف: أسامة المسلم
إخراج الكتاب: مداد للنشر والتوزيع -دبي
الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-23-467-8
الطبعة الأولى: 2017

تمت الموافقة على الكتاب من قِبل المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة.
رقم إذن الطباعة: 188239



دولة الإمارات العربية المتحدة - دبي

@medadpublishing
@medadpublishing
medadpublishing1



www.medadpublishing.com
e-mail: info@medadpublishing.com

الروائي

أسامة السلم

الأهداء

إلى مَنْ علمتني حرفي الأول.. وكانت حبي الأول.. أمي

كم حرفاً في لغتك؟

هل تستطيع نظمها جميعاً؟

يمكنك القراءة الآن..

النافذة الصغيرة

في منطقة سكنية متواضعة وقف الأهالي يراقبون تسوير مجموعة من المنازل المجاورة لهم باعها أصحابها مؤخراً بمبالغ طائلة تفوق قيمتها التي تستحق، والبَدْء

بـــهدمها بجرافـــات عملـــت بـــلا انقطـاع حتـى حـوَّلت تلـك البـيوت لأراضٍ خاليـة. بعـد ذلـك بـأيام انقلبـت تلـك المنطقـة المسـورة لورشـة عمـل وبنـاء كبـيرة. كـانت الأحـاديث

الجانبية التي تدور بين سكان الحي تُرجح قيام مجمع تجاري أو سكني كبير في تلك الرقعة الشاسعة، لكن مع مرور الأيام اتضحت معالم ما كان يُبنى على تلك

الأرض، وهو قصرٌ كبيرٌ وفخمٌ بتصميم هندسي لافت، وباحة يمكنها ضم عدة بيوت. انتهى تشييد ذلك القصر الفخم خلال أشهر قليلة؛ لأن العمل على إقامته لم

ينقطـــع لـــيلاً أو نـــهاراً. كـــان أهـــالي تلـــك المنطقـــة يتـــابعون تطـــورات البنـــاء يوميـــاً خـــلال ذهابـــهم وإيابـــهم مـــن أعمالـــهم، وكـان بعضـهم متحمسـاً لمعرفـة مَنْ هـم الجـيران

الجدد، ولِمَ اختاروا الإقامة في حيِّهم المتواضع، فالأحياء التي يقيم فيها الأثرياء معروفة، وحيهم لم يكن من تلك المناطق المحسوبة على الطبقات المخملية، حتى

إن الحي الذي أقيم فيه القصر لم تكن جميع الخدمات البلدية قد وصلت إليه بعدُ، لكن خلال البناء قامت البلدية بإيصال جميع تلك الخدمات في وقتٍ قياسي،

مما عاد بالفائدة على أهالي الحي وبعض الأحياء المجاورة للقصر.

علــم النــاس بانتــهاء أعمــال البنــاء والتشــطيب لــذلك القصــر عنــدما بــدأت أنــوار ســوره العظـيم تُشـع لـيلاً وتنـير الشـوارع المحيطـة بـه، وكـذلك عنـدما بـدؤوا يلاحظـون

شــاحنات نقــل الأثــاث وهــي تــدخل مــن بوابــة القصــر الكبــير علــى مــدى خمســة أيــام. تعــرَّف أهــالي الحــي بعـد أشـهر طويلـة مـن مراقبـة تشـييد القصـر إلـى الأسـرة التـي

ستقطن فيه بعدما دخلت حيَّهم سيارتان فارهتان تتوسطهما سيارة ثالثة أكثر فخامة وأكبر حجماً. توقفت السيارات الثلاث عند بوابة القصر، وبدأ بعض أهالي

الحي يتجمعون على بعد منها دون الاقتراب في رغبةٍ منهم لإلقاء نظرة على جيرانهم الجدد. ترجَّل من السيارتين الفارهتين مجموعة من الرجال، وتقدم أحدهم

وفتــح البـاب الخلفـي للسـيارة الثالثـة الكبـيرة، لـينزل منـها رجـل كـانت علامـات الثـراء باديـة عليـه، تتبعـه فتـاة صـغيرة فـي الثانيـة عشـرة مـن عمرهـا تقريبـاً لا تقـل عنـه

أناقة، بل زادت عليه بالحلي التي كانت تلبسها وحقيبتها اليدوية باهظة الثمن. بقي الرجل يُحدّق بمنازل الحي التي كانت أمام قصره وعلى وجهه نظرة انتشاء،

وكأنه حقق حلماً كان يحلم به طويلاً. أخرج من جيبه غليوناً خشبياً، فقام أحد الحراس بإخرج قداحة مذهبة ألصق شعلتها بطرف الغليون، فأخذ الرجل نَفَساً

من الدخان ونفثه في الهواء قبل أن يعود مع الفتاة للسيارة، ليغلق الحارس خلفهما الباب بكل حذر وهدوء، ويعود هو وبقية الرجال لسياراتهم التي تحركت

بمرافقة السيارة الكبيرة لداخل القصر.

بعد أن أُغلقت بوابة القصر بدأ الناس الذين شاهدوا ذلك المنظر بالحديث في ما بينهم، وبدأت التكهنات حول هوية ذلك الرجل الثري، وعن سبب اختياره لحيهم

المتواضع للسكن فيه. حُسم الجدال عندما تحدث رجل مسن وقال إنه تذكر ذلك

الرجل، وإنه كان يسكن مع أهله في الماضي في هذا الحي، وتحديداً في أحد المنازل

التي أقيم عليها القصر، وأنه قد ترك الحي مع عائلته منذ زمن طويل وباعوا منزلهم بعدما خسر أبوه عمله، واضطروا للانتقال لمكان آخر يتناسب مع أحوالهم

المادية المتردية. قاطعه أحد الأهالي الواقفين وقال: "يبدو أنك مخطئ يا أبا عبدالرحمن؛ فهذا الرجل لا يبدو أنه عرف الفقر في حياته قط". ردَّ الرجل المسن بالقول:

"وهل الأغنياء يولدون أغنياء"؟ ضحك الرجل الذي شكك في كلام المسن وقال: "أغلبهم نعم". بدأ الرجل المسن بالتحرك مبتعداً عن الناس المجتمعة وهو يقول:

"أعرف ما رأيت، ولا يهم إن كنتم تصدقونني أم لا".

مضت الأيام وتلاشى فضول الناس تدريجياً بالقصر وقاطنيه، خاصة أن بوابة القصر لا تُفتح إلا نادراً، وعندما تفتح لا يخرج منها سوى العاملين أو الحراس ولم

يشاهد أحدٌ ذلك الرجل الثري أو الفتاة التي كانت ترافقه بعد ذلك. لكن هذا الأمر تغيَّر عندما فُتح باب القصر عصر أحد الأيام، وخرج أربعة حراس بزي موحد

وانتشروا بشكل منتظم عند مدخل القصر لتخرج خلفهم تلك الفتاة ومعها امرأة مسنة تحمل سلة خشبية مغطاة بقطعة من القماش، وبدأت بالسير والحراس

حولها نحو أحد البيوت في الحي. لم يكن في الحي ذلك الوقت الكثير من الناس سوى بعض المارة ومجموعة من الصبية الذين كانوا يلعبون الكرة في وسط الشارع،

وجميعهم توقفوا ليراقبوا تلك الفتاة وهي تسير نحو أحد المنازل المقابلة للقصر. عندما وصلت الفتاة لباب المنزل رمقت أحد الحراس بنظرة لتشير له بطرق الباب

ففعل، وعندما فُتح خرج رجل بملابس متواضعة، وبمجرد رؤيته للحراس جزع وقال وهو يرتعد: أنا لم أفعل شيئاً؛ لقد كنت في المنزل طَوَال اليوم!

قالت (الفتاة) بابتسامة مصطنعة: مساء الخير.. نحن جيرانكم الجدد، وقد أتيت كي أعبر لكم عن امتناني لقبولكم لنا في حيكم.

حــدق الرجــل بتعــجُّب فــي تلـك الفتـاة المتأنقـة وهـي تحـدثه بلطـف، ولباقـة كـان مـن الواضـح أنـها مصـطنعة وأنـها مجبـورة عليـها، وقبـل أن يـردَّ أشـارت الفتـاة للسـيدة

المسنة التي كانت بجوارها وتحمل السلة المغطاة، فأخرجت السيدة منها قطعة من الكعك التي رُبط فيها مبلغ كبير من المال، وقدمته للرجل الذي نظر لقطعة

الكعك والمبلغ المربوط بها وقال باستنكار: ما هذا؟

(الفتاة) وهي تتصنع الابتسام والابتهاج: شيء بسيط يعبر عن امتناننا.

(الرجل) بتجهُّم: امتنانكم على ماذا؟

(الفتاة) وحاجبها يرتعش في محاولة لكظم غيظها من كلام الرجل وشفتاها ترتديان ابتسامتها المصطنعة مجدداً: لأنكم استقبلتمونا في حيكم الجميل.

(الرجل) وهو يغلق الباب بقوة: لم يستشرني أحد قبل قدومكم!

تحـولت ابتسـامة الفتـاة لتجـهُّم وصـرخت فـي مرافقيـها بـالعودة فـوراً للقصـر، وبـالفعل عـادوا والفتـاة تتـذمر وتتمتـم بكلمـات لـم تكـن مسـموعة للنـاس الـذين كـانوا

يراقبونها، لكن من الواضح أنها كانت كلمات بذيئة. دخلت الفتاة القصر ودخلت خلفها السيدة العجوز وهي تحمل السلة الخشبية، ووقف الحراس عند الباب

الـذي أغلقتـه الفتـاة بقـوة نجـم عنـها صـوت ارتعـدت لـه أرجـاء المكـان. جلسـت الفتـاة وهـي تسـتشيط غضـباً علـى إحـدى الأرائـك الفخمـة فـي القصـر وهـي تقـول بصـوت

مرتفع:

هذا جزاء من ينزل لمستوى الرعاع!

(السيدة العجوز) وهي تضع السلة على المائدة وتجلس عند قدمَيْ الفتاة وتبدأ بخلع حذائها: لا تزعجي نفسك يا سيدة (هياء)؛ فهم لا يعرفون قدرك.

(هياء) بعصبية: اُسْكتي يا (حليمة)؛ فهذا ليس ذنبك، بل ذنب أبي الذي أجبرني على ذلك!

(الأب) بهدوء وهو ينزل من الطابق العلوي ممسكاً بغليون في يده: هل انتهيتِ من توزيع الكعك بهذه السرعة؟

لم ترد (هياء) على أبيها، بل اكتفت بالتجهُّم وضم ذراعيها..

(حليمة) تنهض من أمام الفتاة برهبة لقدوم السيد الكبير، وتأخذ بضع خطوات للوراء وتقف مُطأطِئَة رأسها للأرض وكفها اليُمنى على كفها اليُسرى..

اقترب الرجل من ابنته بخطوات بطيئة، ثم جلس بجانبها وهي متجهّمة وتنظر للجهة الأخرى بصمتٍ وعيناها تتفجران غضباً.

(الأب) وهو يضع بعض التبغ في غليونه: ما بك؟

(هياء): بعصبية ووجهها مدار عن أبيها: لا شيء!

وجَّه الأب نظره للسلة على الأرض، ثم وجَّه كلامه لـ(حليمة) وقال: هل أعددتِ الكعك المُحلى كما أمرتك؟

(حليمة) وهي تهزُّ رأسها بالموافقة برهبة وبصوت مرتعب: نعم يا سيدي!

(الأب) وهو ينفخ سحابة من الدخان ويرفع القماشة التي كانت تغطي السلة ويلقي نظرة بداخلها: ما هذا المربوط بالكعك؟

(حليمة) ويداها ترتجفان: بعض المال يا سيدي.

(الأب) بغضب وصوت مرتفع جداً: ومَنْ طلب منكِ وضع أموال مع الكعك؟!.. طلبت منكِ صنع كعك فقط!

(هياء) وهي تصرخ في أبيها: لا تصرخ في (حليمة) يا أبي!.. لقد كانت فكرتي أنا!

(الأب) بتعجب: فكرتك؟.. ما هذه الفكرة الغبية؟!

(هياء) وهي تشيح بنظرها عن أبيها بوجه عابس: كنت أريد إدخال السعادة في قلوب جيراننا البؤساء بإعطائهم بعض المال.

(الأب) بتجهُّم: لقد أهنتهم بفعلتك هذه!

(هياء) بسخرية: لا يمكن إهانة الأوباش.

نهض الرجل وصفع ابنته وقال لها بغضب: لو قلتِ مثل هذا الكلام عن أهل الحي مرة أخرى فسترين سخطي الحقيقي.

نهضت (هياء) من مكانها وبدأت تصرخ في أبيها وتقول: أعرف أنك لا تحبني وتتحيَّن الفرصة لتُهينني.. هيا!.. اضربني أكثر كي ترتاح!

همَّ الرجل بتوجيه صفعة أخرى لابنته، لكن (حليمة) أطبقت على يده بكلتا يديها وبدأت تقبلها وتبكي وتقول: أرجوك يا سيدي.. أرجوك اِصفحْ عنها!

بقي الرجل يُحدق بعيني ابنته الدامعتين بغضب لفترة، ثم أنزل يده وقال: انزعي لفافات الأموال من الكعك يا (حليمة)!

(حليمة) وهي تترك يد السيد وتتوجه باكية نحو السلة وتحملها وتهم بالتوجه نحو المطبخ..

(الأب) وعينان لا تزالان تحدقان بعينَيْ (هياء) الدامعتين والغاضبتين: انتظري يا حليمة!

أدارت (حليمة) نظرها نحو السيد، ثم وقفت مكانها متسمِّرة ودموعها تتساقط على قطعة القماش الحمراء التي غطت السلة.

(الأب): هي من سيفك لفافات الأموال!

(حليمة) بصوت وَجِل: يمكنني القيام بذلك..

رفع السيد يده في وجه (حليمة) لإسكاتها وعيناه تنظران لـ(هياء) بغضب..

زفرت (هياء) بسخط وتوجهت نحو (حليمة)، وانتزعت السلة من قبضتها وصعدت للطابق العلوي حيث كانت غرفتها.

(الأب) لـ(حليمة) وهو يراقب ابنته تصعد للطابق العلوي: غداً من أول الصباح ستخرجين أنتِ معها فقط بدون الحراس، وستوزعان الكعك على جميع الجيران.

(حليمة): لا أريد رفض أوامرك يا سيدي، لكن السيدة (هياء) صغيرة وأنا لا أستطيع حمايتها وحدي من أي خطر قد تتعرض له.

(الأب) وهو يجلس على الأريكة ويقول بحسرة: أي خطر يا (حليمة)؟.. لقد تربيت في هذا الحي، وأهله من أطيب الناس الذين قابلتهم في حياتي.. وهذا هو سبب انتقالي إلى هنا.. أريد أن تتعلم ابنتي معنى الاختلاط بالناس البسطاء.

(حليمة): السيدة (هياء) اجتماعية وكانت تملك صداقات كثيرة في حينا السابق.

(الأب) وهو يضع بعض التبغ في غليونه: كل صداقاتها السابقة كانت بلا معنى وبلا هدف، وتافهة مثل أصحابها.

(حليمة) تنزل رأسها وتصمت..

(الأب) وهو يبحث في جيبه: ابنتي فقدت أمها منذ الصغر ولا تعرف من دروس الحياة شيئاً.

هرع أحد الحراس الواقفين عند الباب نحو السيد عندما رآه يبحث عمَّا يُشعل به

غليونه، ومد له قداحته المذهبة التي اعتاد أن يشعل بها غليون سيده، وبدأ يلف بكرتها محاولاً إشعالها، لكن لم يظهر منها سوى الشرر المتطاير دون لهب متقد.

(الأب) وهو يخرج من جيبه علبة كبريت ويشعل غليونه مبتسماً بعود ثقاب:

بعض الأشياء لا تخذلك مهما كانت قديمة.

(الحارس) وهو يعيد القداحة لجيبه ويبتسم بتوتر: فعلاً يا سيدي الأشياء القديمة أجمل.

(الأب) وهو ينفخ سحابة من الدخان في وجه الحارس: ومَنْ قال لك إن عود الثقاب أقدم من القداحة؟

(الحارس) بتوتر: ماذا تقصد يا سيدي؟

(الأب) يضع ساقاً على ساق ويشوح بيده للحارس بالعودة لمكانه..

(حليمة) وهي محنية الرأس: هل تأمرني بشيء يا سيدي قبل أن أذهب للسيدة (هياء)؟

(الأب) وهو يدخن ويمعن النظر في النافذة الزجاجية الكبيرة أمامه والتي كانت تطل على حديقة القصر: لا.. لكن لا تنسي ما أمرتك به.. غداً توزعان جميع الكعكات

على أهل الحي، وهي من ستُقدمها بنفسها.

(حليمة): أمرك.

(الأب): وأخبريها أنه لو بلغني أنها أهانت أحداً أو تصرفت بسلوك مشين، فسوف تعاقب بشدة!

(حليمة) وهي تتراجع للخلف بخطوات متقاربة وحذرة متوجهة للسلم المؤدي للطابق العلوي: لا تقلق يا سيدي، لن يحدث ما يُسيء لك.

صعدت (حليمة) السلالم، فأشار السيد للحراس بجانب الباب بأن يقتربوا منه، وعندما استقروا أمامه قال: عندما تخرج ابنتي غداً كونوا حولها لكن لا تدعوها

تراكم.. أريد أن تشعر بأنها تسير في الشارع وحدها بلا حراسة كما اعتادت.

هز الرجال رؤوسهم وعادوا لمكانهم عند باب القصر..

مع أول إشراقة للشمس دخلت (حليمة) غرفة (هياء) بعدما طرقتها لتجدها نائمة، فاقتربت منها وقبلت جبينها وبدأت تمسح عليه بحنان دون أن تتحدث، حتى

فتحت (هياء) عينيها وابتسمت عند رؤيتها لمربيتها التي ربتها منذ الصغر وقالت: صباح الخير يا (حليمة)..

(حليمة) وهي مبتسمة: صباح الخير يا أميرتي.. هل نمتِ جيداً؟

(هياء) وهي تنهض وتجلس متربعة وسط السرير وتمد ذراعيها وتتثاءب: نعم.

(حليمة) وهي تضع يدها على فم (هياء): الفتيات لا يتثاءَبْنَ بهذا الشكل.

(هياء) وهي ترمي بنفسها للخلف على مخدتها الناعمة الكبيرة وتقول بسخرية: وكيف تتثاءب الفتيات؟

(حليمة) وهي مبتسمة: ألست جائعة؟.. لم تشاركي أباك العشاء ليلة البارحة.

(هياء) وهي تحدق بسقف غرفتها: لا أظنه افتقدني..

(حليمة) وهي تفتح دولاب الملابس: على العكس تماماً، لقد كان الضيق بادياً على وجهه حتى إنه ثار غضباً من الطباخ لسبب بسيط.

(هياء) وهي لا تزال تحدق بسقف الغرفة: ربما لأنه وضع الكثير من الملح في الحساء كالعادة.

(حليمة) وهي تقلب الملابس مبتسمة: لا.. لقد نسي أن يجهز مكان أمك على المائدة.

(هياء): أحياناً يُخيّل إليّ أن أبي مجنون.

(حليمة) وهي تسحب فستاناً من الدولاب وعلى وجهها نظرة استغراب يخالطها بعض الاستياء: لِمَ تقولين مثل هذا الكلام؟

(هياء) وهي تنهض وتعتدل في جلستها وتسند ظهرها للمخدة الكبيرة: أمي ماتت منذ سنين طويلة وهو لا يزال يُعد لها أطباقها المفضلة على المائدة في كل وجبة..

إذا لم يكن ذلك جنوناً فماذا تسميه؟

(حليمة) وهي تفرش الفستان على السرير: حب..

(هياء) وهي تضحك بسخرية: حب؟

(حليمة): نعم حب.. لِمَ أنتِ مستغربة؟.. ألا تحبين أمك؟!

(هياء) وهي تنزل من طرف السرير وتمسك مِعلاق الفستان وترفعه أمام نظرها: أنا لم أعرف أمي كي أحبها.

(حليمة) بوجه حزين: لكنها أحبتك.. وبشدة أيضاً.

(هياء) وهي تمد الفستان نحو (حليمة): هذا الفستان لا يصلح لجولة توزيع الكعك على أراذل الحي، فهو أفخم من ذلك.

(حليمة) وهي تمسك الفستان وتقول بخوف وتوتر شديدين: أرجوك يا سيدتي، لا

تستخدمي مثل هذه العبارات؛ فقد يسمعنا السيد الكبير وتكون عاقبتنا وخيمة.

(هياء) وهي تزفر: حسناً يا (حليمة)، لأجلكِ فقط لأني أعرف أنه سيصب جام غضبه عليك.

(حليمة) وهي تُخرج فستاناً آخر من الدولاب مبتسمة: ما رأيك بهذا؟

(هياء): ما حكايتك مع الفساتين يا (حليمة)؟ هذه ملابس معدة لمناسبات خاصة وليس لجولة لتوزيع الكعك!

(حليمة) وهي تنزل رأسها: أعتذر يا سيدتي، لكني أردتُ أن تكوني بأبهى حلة.

(هياء) وهي تفتح أحد الأدراج تحت مرآتها الضخمة: اختاري من هذه الملابس ريثما أستحم.

(حليمة): لكن هذه الملابس طلبتِ مني أن أرميها لأنها رثة ولم تعد تعجبك.

(هياء) وهي تخرج من الغرفة: بالنسبة لأهل الحي فهي آخر صيحة.

بعدما انتهت (هياء) من الاستحمام في حمامها الرخامي الفاخر ارتدت الملابس التي انتقتها لها مربيتها، بعدها همت بالخروج وتبعتها (حليمة). نزلت الاثنتان من الطابق العلوي، فَوَجَدتا الأب واقفاً عند الباب يدخن غليونه، تحته سلة مغطاة بقماشة صفراء وقال: لقد طلبت من الطباخ أن يخبز كمية أخرى من الكعك كي تأخذيها معك.

(هياء) بجفاء: كعك حليمة ألذ.

(الأب) وهو يبتسم ويسحب الغليون من فمه: المهم أن توزعيها بلباقة.

(هياء) مُتجاهلةً أباها: هيا يا (حليمة) كي ننتهي من هذا اليوم.

تقدمت (حليمة) نحو السلة كي تحملها، لكن السيد منعها وقال: (هياء) هي مَنْ سيحمل السلة!

(هياء) وهي تتقدم بتجهُّم نحو السلة وتمسك بمقابضها وترفعها وتنظر لأبيها المبتسم: هيا يا (حليمة) لنخرج!

هُرعت (حليمة) نحو باب القصر وفتحته لتخرج منه (هياء) حاملة سلة الكعك وأبوها يراقبها مبتسماً وهو يضع بعض التبغ في غليونه.

بدأت (هياء) بالسير نحو بوابة القصر الخارجية مروراً بحديقته الكبيرة التي امتلأت بالنوافير الحجرية والنباتات والأزهار الجميلة، وخلال سيرها قالت لـ(حليمة)

السائرة بجانبها: لم ألاحظ من قبل أن حديقتنا جميلة هكذا.

(حليمة) مبتسمة: حديقة منزلنا السابق كانت أجمل.

(هياء) وهي تتفحص الحديقة بنظرها: لم أنتبه للحديقة السابقة أيضاً، كنتُ أدخل وأخرج بالسيارة المكتومة.

(حليمة): الجمال حولنا في كل مكان، نحن من نختار رؤيته من عدمها..

شدت (هياء) قبضتها على السلة ورفعتها قليلاً وهي تزفر نفساً عميقاً..

(حليمة) بقلق: هل أنت متعبة يا سيدتي؟.. يمكنني أن أحمل السلة عنكِ بعدما نتجاوز البوابة ونبتعد عن نظر السيد الكبير!

(هياء): لا يا (حليمة)، لن أعرضك لسخط ذلك المجنون.

(حليمة): لا تقولي ذلك عن والدك يا سيدتي.

(هياء) وهي تبتسم وتنظر أمامها خلال سيرها: أستغرب من دفاعك المستميت عنه دائماً.

(حليمة): أفضال السيد الكبير علي كثيرة ولا يمكنني نسيانها.

(هياء): أفضاله عليك مقابل عملك الذي تقومين به وليس لسواد عينيك.

(حليمة) وهي تبتسم: لقد تكفل السيد الكبير بنفقات معيشة ودراسة أبنائي وبناتي منذ ولادتهم حتى إنهائهم دراستهم، ولا أظن أن راتبي يغطي كل ذلك.

(هياء) وهي ترفع السلة وتشد من قبضتها على أطرافها: وإن يكن.. أنتِ لا تدينين له بشيء.

(حليمة): عندما تُرزقين أطفالاً ستعرفين أن أعظم معروف يمكن أن يقدمه لكِ أحدهم هو أن يجعلكِ مطمئنة عليهم.

(هياء) وهي تقف وتلتفت إلى (حليمة) مبتسمة: أليس هذا ما تقدمينه له بالعناية بي؟

(حليمة) وهي تنظر لجبين (هياء) مبتسمة: هذه أول مرة أرى فيها قطرة من عرقك.

(هياء) وهي تضع السلة على الأرض وتمسح جبينها بيدها وتنظر للعرق على أطراف أصابعها بحسرة: ممتاز.. الآن سوف أكون لائقة لأهالي الحي.

(حليمة) وهي تضحك: لا عيب يا ابنتي في القليل من العرق خاصة إذا كان بسبب القيام بشيء تحبينه!

(هياء) وهي تحمل السلة وتكمل المسير نحو البوابة: ومن قال إني سعيدة بما أقوم

به.. أنا أقوم بذلك فقط كي لا أعطي سبباً له ليمارس سخطه علي.

(حليمة) تتبع (هياء) وهي تبتسم بصمت..

عند وصولهما للبوابة انتبه حارسها لـ(هياء) وهي تحمل السلة، فجرى مسرعاً نحوها ولحق به اثنان من الحراس الذين كانوا يقفون عندها، وقال بتوتر لـ(حليمة):

لِمَ لا تساعدين السيدة الصغيرة يا (حليمة)؟!.. كيف تتركينها تحمل هذه السلة الثقيلة وحدها؟!.. ماذا لو علم السيد الكبير بذلك؟!

مدَّ الحارس يديه لأخذ السلة، لكن (هياء) أبعدتها عن متناوله وقالت: هذه أوامر سيدك؛ فلا تلُمْ (حليمة)!

(الحارس) بتعجب: لكن يا سيدتي..

(هياء) بسخط: لا تكثر الكلام وافتح البوابة!

(الحارس) وهو يجري بارتباك نحو البوابة: أمرك.. أمرك..

(هياء) ترمق (حليمة) بنظرة وابتسامة بعدما شُرعت أبواب القصر: هيا يا (حليمة)..

مشت الاثنتان متجاوزتين البوابة والحراس، متوجهتين للمنزل الذي أغلق صاحبه أمس الباب في وجهيهما، وعندما استقرتا أمامه وضعت (هياء) السلة عند عتبة

الباب ومسحت العرق عن جبينها، ومدت يدها لطرق الباب، لكن (حليمة) استوقفتها وقالت: يمكننا القدوم لهذا المنزل لاحقاً يا سيدتي.

(هياء) باستغراب: لماذا؟

(حليمة): ربما من الأفضل أن نبدأ بمنزل آخر فهذا الرجل يبدو فظاً.

(هياء) وهي تطرق الباب مبتسمة: لا تقلقي.

فتحت الباب سيدة ممسكة بمنديل في يدها، ويبدو عليها أنها كانت تبكي لأن عينيها محمرتان ومحجريها متورّمان ومُبتلان ببقايا من دموع. ارتبكت (هياء) عندما رأت المرأة بتلك الحالة ولم يخطر ببالها شيء سوى مدِّ يدها في السلة، وأخرجت كعكة مغلفة بورقة زهرية اللون: تفضلي نحن جيرانكم الجدد.. أرجو أن تقبلي منا هذه الهدية البسيطة.

مدت المرأة يدها وأخذت الكعكة بيد وباليد الأخرى مسحت بمنديلها دمعة نزلت على خدها، وقالت: "شكراً"، ثم أغلقت الباب بهدوء.

(حليمة): هيا يا سيدتي لنذهب للمنزل الآخر.

(هياء) وهي تحدق بالباب متعجبة: لِمَ كانت تبكي؟

(حليمة) وهي تحمل السلة: أسباب الحزن في هذه الدنيا أكثر من أسباب الفرح..

طرقت (هياء) الباب مرة أخرى و(حليمة) خلفها تقول بتوتر: ماذا تفعلين يا سيدتي؟!

لم ترد (هياء) عليها، وبقيت تحدق بالباب حتى فتحته المرأة مرة أخرى، وبمجرد أن رأتها سألتها: لِمَ كنتِ تبكين؟

نظرت المرأة لـ(هياء) باستغراب ولم ترد..

(هياء): أرجوك أخبريني..

تجهَّمت المرأة، وصفعت بدرفة الباب بقوة في وجه (هياء) التي وقفت مستغربة من ردة فعل المرأة، ثم أدارت نظرها نحو (حليمة) وقالت: ما بها؟

(حليمة): يبدو أنها مستاءة من أمر ما.

(هياء): لِمَ أغلقت الباب في وجهي؟.. كنت أريد مساعدتها.

(حليمة): هيا يا سيدتي لنذهب للمنزل المجاور.. الحي كبير وسنحتاج وقتاً طويلاً لتوزيع جميع الكعكات.

سارت (هياء) مبتعدة عن عتبة المنزل، وعلى وجهها تعجب شديد وهي تقول: لِمَ كانت فظة معي؟.. أنا لم أفعل لها شيئاً.

(حليمة) وهي تسير خلفها: لا تفكري بالأمر كثيراً يا سيدتي.. الناس كالأزهار بعضها شائك وبعضها زكي الرائحة، وبعضهم يجمع الاثنين.. جميلُ الرائحة لكنه شائك.

(هياء) تتوقف عن السير وتلتفت إلى مربيتها: وهل هناك من هم بغيضون بلا سبب؟

(حليمة) وهي تبتسم: نعم يا حبيبتي، وهناك أيضاً من هم جميلون بلا سبب..

(هياء) بوجه متسائل وقلق: هل أنا بغيضة يا (حليمة)؟

(حليمة): أنتِ أجمل شيء رأته عينايَ يا صغيرتي..

(هياء): ماذا عن روحي؟

(حليمة) وهي تبتسم: ماذا تقصدين؟

(هياء) وهي تكمل المسير نحو المنزل الثاني: لا شيء، هيا لِنَنْتَهِ من توزيع الكعك.

وصلت الاثنتان لعتبة المنزل الثاني، وبمجرد أن طرقتا الباب فُتح لهما، وخرج منه

عدد كبير من الأطفال الذين بدؤوا بمحاصرتهما والصراخ والضحك حولهما،

وبعضـــهم بـــدأ يشـــد شـــعر (هيـــاء) وملابســـها حتـــى تـــمزق أحـد أكمامـها. وعنـدما رأت (حليمـة) ذلـك المشـهد وضـعت السـلة علـى الأرض وهـرعت نحوهـا، وبـدأت تُبعـد

الأطفال عنها و(هياء) واقفة متسمرة من الخوف، لكن الأطفال استمروا بالقفز والصراخ حولهما لدرجة أن أحدهم سحب الوشاح الذي كانت (حليمة) تغطي به

رأسها وربطه على خاصرته، وبدأ بالرقص حولها وهي تعانق (هياء) لحمايتها. سحبت طفلة من الأطفال القماشة الصفراء التي كانت تغطي سلة الكعك لتربطها

هي الأخرى على خاصرتها وتشارك أخاها الرقص، لكن ما إن انكشف الكعك أمام الأطفال حتى رموا كل ما في أيديهم واندفعوا نحو السلة وبدؤوا بالتهام الكعك

بشراهة.

(هياء) وهي تراقب الأطفال: ما الذي يحدث يا (حليمة)؟!

(حليمة) وهي تلتقط القماشة الصفراء التي كانت تغطي الكعك وتلفها على رأسها بدل وشاحها وتعود لمعانقة (هياء): لننتظر حتى ينتهوا فقط!

وصـــل الحـــراس عنـــدما رأوا الأطفـــال بـــهذا الشـــكل حـــول (هيـــاء) و(حليمـــة) لحمايتـها، ففـروا عنـدما شـاهدوهم مقبلـين نحـوهم، وعـادوا للمـنزل وأغلقـوا البـاب بقـوة

تاركين (هياء) ومربيتها مصدومتين مما حدث. بقيت الاثنتان مدة وجيزة وهما تنظران للسلة المقلوبة على جانبها، وبقايا الكعك الذي داس عليه الأطفال، ثم قالت

(هياء): هل يمكننا العودة للقصر الآن؟

(حليمة) وهي تتوجه نحو السلة وترفعها: نعم يا سيدتي.

(هياء) وهي تسير مبتعدة عن المنزل بتجهُّم: لقد نفذت ما طلبه مني أبي وأطعمت قبيلة كاملة من الأوباش المتوحشين.

(حليمة) وهي لا تزال واقفة عند شرفة المنزل وتنظر داخل السلة: بقيت واحدة.

(هياء) وهي تلتفت بعصبية: عن ماذا تتحدثين؟!

(حليمة) تمد يدها داخل السلة وتخرج كعكة منها وترفعها أمام نظر (هياء): بقيت كعكة محلاة واحدة..

(هياء) بتجهُّم: وهل هذه الكعكة اليتيمة كافية لإطعام هذا الحي الراقي؟!

(حليمة) تعيد الكعكة للسلة وتسير نحو (هياء): كما تشائين يا سيدة (هياء)، سنعود للقصر.

أطلقت (هياء) زفرة خالطتها زمجرة غاضبة أتبعتها بحركات تلويح بقبضتها، وبدأت السير نحو البيت الثالث و(حليمة) تتبعها مبتسمة. وصلت الاثنتان للمنزل

الذي كان مختلفاً عن بقية منازل الحي؛ فقد كان مصنوعاً من الطين بعكس بقية البيوت الأخرى.

(هياء) تتفحص المنزل بنظرها باستغراب: أمازالت هناك بيوت من الطين في هذا العالم؟

(حليمة): يبدو أن أصحابه فقراء..

(هياء) بسخرية: أو قد يكون أصحابهم من رافضي التطور.. هم هكذا في البداية لكن الدنيا تتغير وتُغيّرهم شاؤوا أم أَبَوْا.. وسَيُهْدَم المنزل عاجلاً أم آجلاً!

وقفت (هياء) أمام الباب وبدأت تطرقه بقوة وبطرقات متتابعة..

(حليمة): لا تطرقي الباب بهذا الشكل يا سيدتي، فقد تزعجين أصحاب المنزل.

التفتت (هياء) إلى (حليمة) بنظرة غضب تحوَّلت فجأة لإحدى ابتساماتها المصطنعة، وعادت بنظرها نحو الباب وبدأت تطرقه برقة واستهزاء واضح.

فُتح الباب..

خرج منه رجل عجوز بلحية بيضاء كثيفة ونظارة بعدسات مربعة صغيرة. كان أصلع الرأس لكن شعر رأسه من الخلف كان طويلاً بعض الشيء. كان يلبس منامة

حمراء أنيقة كالمعطف الطويل، وكرشه المستدير يُطل منها. كانت رائحة ذلك الرجل زكية جداً وعبق عطره خرج قبله وأحاط بـ(هياء) و(حليمة) الواقفة خلفها..

ابتسم وقال: تفضلي يا آنسة، بماذا أستطيع خدمتك؟

تلعثمت (هياء) في البداية ومدت يدها خلفها ونظرها لا يزال يحدق بذلك الرجل المبتسم لها، وبدأت تقبضها وتبسطها أمام (حليمة) في إشارة لها كي تضع الكعكة

فيــها، لكــن (حليمــة) كــانت تحــدق بــالرجل وســارحة فــي ابتســامته المشــعة، ومســحورة بعطــره النفــاذ الــذي حاصــرها. التفتــت (هيــاء) إلــى مربيتــها، وعنــدما رأتــها بتلــك

الحالة سحبت السلة من قبضتها وأخرجت الكعكة ومدتها للرجل وهي تقول: تفضل!

(الرجل المسن) وهو يأخذ الكعكة من يدها مبتسماً: شكراً لكرمك يا آنسة.

(هياء) تبتسم وتهم بالرحيل..

(الرجل المسن) بتعجب: إلى أين؟!

(هياء): سنعود للقصر..

(الرجل المسن) يرفع نظره ويوجهه للقصر الكبير الواقع أمام منزله: أنتم جيراننا الجدد إذاً؟

(حليمة) وهي لا تزال سارحة في الرجل: نعم..

(هياء) تضع سبابتها على شفتيها في إشارة لـ(حليمة) بالصمت، ثم تقول للرجل المسن: نعم.. نحن جيرانكم الجدد.

(الرجل المسن) وهو يقبض الكعكة بيده: هذه البادرة الطيبة تدل على أنكم من عائلة كريمة تقدر الأصول.

(هياء) بابتسامة صفراء: نعم.. نعم..

(الرجل المسن) وهو يدخل منزله مبتسماً ويترك بابه مفتوحاً: يجب أن أهديك شيئاً بالمقابل..

(هياء) بتوتر: لا.. لا.. نحن راحلتان.

لم تستطع (هياء) إيقاف الرجل، وأخذت نصف خطوة داخل منزله، وبدأت تنادي بصوت مرتفع: لا داعي لذلك يا عم!.. نحن راحلتان!

لم يرد الرجل المسن، فالتفتت (هياء) إلى مربيتها وقالت لها: هيا لنرحل.

(حليمة): لِمَ الاستعجال؟.. من غير اللائق أن نرحل هكذا دون أن نودعه.

(هياء) بتجهُّم: نحن هنا لتوزيع الكعك وليس لتبادل الهدايا!

(حليمة): لا ضير في الانتظار.

(هياء): أنا سأنتظر.. عودي أنتِ.

(حليمة): لكن..

(هياء) بعصبية: عودي يا (حليمة) ولا تجادليني!

(حليمة): وماذا أقول للسيد الكبير؟

(هياء) وهي تمد السلة الفارغة لمربيتها: انتظريني عند الحارس، ولا تدخلي المنزل حتى أعود.

(حليمة) وهي تأخذ السلة بحزن: أمرك!

(هياء) باستغراب: ما بك؟

(حليمة) وهي تهم بالرحيل: لا شيء يا سيدتي.

رحلــت (حليمــة) وبقــيت (هيــاء) تنتظــر الرجــل المســن لتودعــه بلباقــة لكنــه تــأخر. انتظــرت مــدة طويلــة، وخــلال ذلـك الانتظـار بـدأت تتفحـص بنظرهـا المـنزل، فقـد كـان

كــالمتحف، ومعظــم مــا فيــه مــن أثــاث مصــنوع مــن الخشــب، ولفــت نظرهــا أيضــاً اللوحـات الجميلـة التـي كـانت معلقـة علـى جـدرانه، والسـجاد الفخـم المفـروش علـى

أرضيته؛ فبالرغم من صغر سنها إلا أن خبرتها في التحف كانت جيدة بحكم هواية أبيها في جمعها. كان يتوسط سقف المنزل ثريا كريستالية ضخمة بالرغم من

صغر المنزل نسبياً. بقيت (هياء) تحدق بتلك الثريا وهي مبهورة بها وبتلامع قطعها مع نور الشمس الذي اخترق باب المنزل المفتوح. قررت بعدها الرحيل، ولكن

بعدما أخذت بضع خطوات مبتعدة عن المنزل تذكرت أنها لم تغلق الباب، فعادت أدراجها وأمسكت بالمقبض وبدأت تسحبه لإغلاقه، لكنها توقفت عندما سمعت

ضحكات الرجل المسن آتية من غرفة في أقصى المنزل. كانت ضحكاته عالية وتدل على سعادة كبيرة. أثارت تلك الضحكات فضول (هياء)، لدرجة أنها تخلت عن

حذرها وأخذت بضع خطوات داخل المنزل مرة أخرى، وعندما انتصفت في غرفة المعيشة كررت نداءَها للرجل وقالت: يا عم!.. هل أنت بخير؟

رد الرجل المسن بصوت مبتهج وقال: نعم يا عزيزتي!.. سأكون معك خلال

لحظات!

وقفت (هياء) متعجبة من الرجل ومن طريقته في الكلام..

سمعت بعدها صوتَ بابٍ يُغلق، صادراً من المكان الذي سمعت فيه ضحكات الرجل. وبعد ثوانٍ خرج أمامها وهو يحمل تحت إبطه كتاباً ضخماً، وفي يده الأخرى

زهرة جافة. تقدم الرجل بضع خطوات نحو (هياء) التي شعرت بالارتياب والتوتر لسبب ما، لكن الرجل مر بجانبها وغمز لها بابتسامة عريضة وأكمل مسيره نحو

غرفة المعيشة، وجلس على كنبة كبيرة من الجلد، ووضع الكتاب على منضدة بجانبه ثم أشار لها بالاقتراب منه وهو يبتسم بوجنتيه الممتلئتين والمحمرتين. ترددت

(هياء) في الاقتراب في بادئ الأمر، لكن كون الباب الرئيسي للمنزل مفتوحاً بث ذلك شيئاً من الاطمئنان في صدرها، وتقدمت بخطوات حذرة نحو الرجل المسن ذي

اللحية البيضاء والكرش المتدلي، وعندما استقرت أمامه قالت: أستأذنك بالرحيل يا سيدي..

(الرجل المسن) وهو يضحك ويمد الزهرة البنفسجية التي كانت بيده: ألن تأخذي هديتك قبل أن ترحلي؟

مدت (هياء) يدها على استحياء وتوتر، وأخذت الزهرة من يد الرجل المسن. وقبل أن تشكره قال لها بصوت عالٍ ومبتهج: استنشقي عبيرها!

في تلك اللحظة بدأت (هياء) تشك بذلك المسن، فطلبه كان غريباً وغير مألوف، وشكت أن تلك الزهرة تحتوي على مادة مخدرة أو شيء سيلحق بها الضرر، لكن

شـكوكها تبـددت عنـدما انحنـى الرجـل وألصـق بتـلات الزهـرة الجافـة بأنفـه، وأخـذ شـهيقاً قويـاً أتبعـه بزفـرة أقـوى وهـو مغمـض العـينين: لـن تشـمي عبـيراً كعبيرهـا..

أعدك بذلك.

(هياء) والارتياب لا يزال يعتريها: لا بأس سأستنشقها لاحقاً.

(الرجل المسن) مبتسماً: كما تشائين.

قبضت (هياء) على الزهرة بيديها، وبدأت تراقب الرجل المسن وهو يضع الكتاب الكبير الذي أحضره معه في حجره، ويُخرج منديلاً قطنياً صغيراً، ويبدأ بالنفخ على

نظارته ويمسحها بقطعة قماش، وخلال ذلك نظر الرجل المسن للعدسات التي كان ينظفها قائلاً: يبدو أنكِ مرتابة مني..

(هياء) بتوتر: لا، أبداً، لكني تأخرت ويجب أن أعود للمنزل.

(الرجل المسن) وهو يلبس نظارته: هل يمكن أن تقدمي لي خدمة أخيرة قبل رحيلك؟

(هياء) بتوجس: ماذا تريد؟

(الرجل المسن) وهو يشير لطاولة كانت على بُعدٍ يسير منه: هل يمكن أن تحضري لي الكعكة التي قدَّمتِها لي، لقد وضعتها على تلك الطاولة هناك.

التفتت (هياء) حيث كان يشير الرجل المسن، ورأت الكعكة على الطاولة وقد كانت على صحن ومقطعة إلى أربع قطع، وبجانبها كوب يتصاعد منه بعض الأبخرة.

توجهت للطاولة ووضعت الزهرة الجافة عليها، ثم أمسكت بالصحن وبمجرد أن رفعته سمعت الرجل المسن يقول من خلفها: وأحضري معها ذلك الكوب.

(هياء) وهي تنظر داخل الكوب: ما هذا الكوب؟

(الرجل المسن) وهو يفتح الكتاب الذي كان في حجره: قهوتي الصباحية.

أمسكت (هياء) الكوب، وبدأت تمشي تجاه الرجل المسن، وعندما وصلت إليه لم يرفع رأسه أو يحول نظره من صفحات الكتاب وقال: ضعيها على المنضدة بجانبي.

نفذت (هياء) ما طلبه الرجل، وبعد انتهائها من ذلك قالت: يجب أن أذهب الآن.

(الرجل المسن) وهو يطالع الكتاب بتركيز: حسناً.

أخذت (هياء) بضع خطوات نحو باب الخروج، لكن ما إن وضعت قدمها على عتبة الباب حتى توقفت للحظات، ثم عادت أدراجها نحو الرجل المسن الذي كان لا

يزال يطالع الكتاب وقالت: الزهور الجافة لا تملك رائحة بالمناسبة!

رفع الرجل المسن رأسه ونظر لـ(هياء) ثم أنزل نظارته بسبابته وبدأ ينظر إليها بصمت..

(هياء) وهي تستأنف حديثها: كنت أريد فقط أن أخبرك ذلك كي لا تظن أني غبية.

(الرجل المسن) وهو ينزل نظره للكتاب ويعود للقراءة: حسناً.

وقفت (هياء) تراقب الرجل المسن وهو يتصفح لفترة قصيرة ثم قالت: ما الذي كان يُضحكك؟

(الرجل المسن) وعينه على الكتاب: ألم تقولي إنكِ راحلة؟

(هياء): بلى، لكن أريد معرفة سبب ضحكاتك المجلجلة منذ قليل؟

أغلق الرجل المسن الكتاب ووضعه على المنضدة، وأمسك بقطعة من الكعك المحلى ووضعها في فمه وبدأ يلوكها، ثم أتبعها برشفة من قهوته الساخنة، ثم قال:

كنت سعيداً لأني وجدت شيئاً خلال بحثي عن هديتك.. شيئاً بحثت عنه لزمن طويل وظننت أني فقدته ولن أجده أبداً.

(هياء): ماذا وجدت؟

(الرجل المسن) وهو يضع كوب القهوة على المنضدة ويرفع الكتاب: وجدتُ كتاباً.

(هياء) باستغراب: كل تلك الضحكات والسعادة لأنك وجدت كتاباً.. يبدو أن حياتك فارغة تماماً.

(الرجل المسن) وهو يلبس نظارته ويفتح الكتاب ويمعن في صفحاته: ماذا تقصدين؟

(هياء): أقصد أنه لا يوجد كتاب يستحق كل تلك السعادة، فهو مجرد بعض الأوراق التي تحتوي على كلمات.

(الرجل المسن) وعينه على الكتاب: أفهم من ذلك أنكِ لم تستمتعي بقراءة كتاب من قبل؟

(هياء) وهي تتوجه للأريكة المقابلة للرجل وتجلس عليها: لو لم أكن مجبرة على قراءة كتب المدرسة لما قرأت كتاباً واحداً.

(الرجل المسن) وهو يقلب صفحة من الكتاب الذي كان بيده: ألهذه الدرجة تكرهين القراءة؟

(هياء) وهي تُسند ظهرها إلى الأريكة وتضع كفيها خلف رأسها: وأكثر من ذلك.. أخبرني الآن لِمَ لا تتطور وتبيع هذا المنزل المهترئ؟.. يمكنك الحصول على الكثير من

المال مقابل بيعه؛ فهذا الحي لا يزال ذا قيمة عقارية بالرغم من قدمه.. هذا ما يقوله أبي.

(الرجل المسن) وعينه على كتابه: لا رغبة لي بالمال..

(هياء) وهي لا تزال تتفحص المكان بنظرها: الحياة لا طعم لها بلا مال؟.. لا شيء أجمل من المال.. صدقني؟

(الرجل المسن) وهو يقلب صفحة من الكتاب بين يديه: المال أحياناً غشاوة تُعمينا

عن الجمال..

(هياء) بسخرية: وما مصدر الجمال في حياتك؟.. لا أرى سوى جدران من الطين وأثاث يكسوه الغبار.

(الرجل المسن) وهو يرفع نظره لـ(هياء) مبتسماً: لقد عشت في هذا المنزل ألف حياة وحياة.. ولا يوجد في حياتكم ما يبهرني أو يشد انتباهي.

(هياء) بضحكة ساخرة: من قراءة الكتب فقط؟!.. يبدو أن حياتك فارغة بالفعل ولا تملك الكثير لتقوم به.

(الرجل المسن) وهو يعود بنظره للكتاب: بل، لا أملك الوقت الكافي لأقوم بكل ما أريد القيام به..

(هياء): وقت ماذا الذي تريده؟!.. أنت لا تقوم بشيء سوى الجلوس والقراءة واحتساء الشاي.

(الرجل المسن) وهو يقلب الصفحة وعيناه على الكتاب: هذه قهوة وليست شاياً..

(هياء) بتذمر: أياً كان! الخلاصة هي أنك رجل لا يملك حياة حقيقية، لذلك فضلت الهروب منها بواسطة بعض الكتب الفارغة!

(الرجل المسن): لا يوجد كتب فارغة في هذه الحياة، إنما هناك عقول فارغة فقط..

(هياء) بسخرية: الكتب للفارغين الذين لا يملكون حياة!

(الرجل المسن) وهو يرفع نظره لـ(هياء): كم كتاباً قرأتِ في حياتك؟

(الفتاة): إذا لم تحسب كتب الدراسة التي أجبر عليها.. فصفر.

(الرجل المسن) يبتسم ويستأنف مطالعة الكتاب بصمت..

بقيت (هياء) تحدق بالمكان وتتفحصه بنظرها خلال قراءة الرجل لكتابه، وبعد دقائق مد المسن يده وأمسك بكوب القهوة وأخذ رشفة أخرى منه، وقال: ألم تكوني

على عُجالة للرحيل.. لِمَ لا تزالين هنا؟

(هياء) وهي تحرك سيقانها للأمام والخلف من على طرف الأريكة وتنظر للسقف: لا أعرف.. منزلك مريح للنفس.

ابتسم الرجل المسن ولم يردّ على (هياء) وأكمل القراءة..

(هياء) وهي تحاول اختلاس النظر لمحتوى الكتاب بالرغم من بُعد المسافة بينها وبين (الرجل المسن): عن ماذا تقرأ؟

(الرجل المسن) وهو يقلب صفحة من الكتاب: لا يهم عن ماذا أقرأ، بل لماذا أقرأ؟

(هياء): ولماذا تقرأ؟

(الرجل المسن) وعيناه على صفحات الكتاب: عندما كنت صغيراً أخبرت أبي يوماً أني أريد السفر لبلاد أخرى كي أرى العالم.

(هياء) وهي تبتسم مبتهجة: أنا أعشق السفر!.. أبي يأخذني كل صيف لبلادٍ جديدة! كم بلداً زرت؟!

(الرجل المسن): أبي لم يكن ميسور الحال كأبيك، لكنه دلني على طريقة أسافر بها لأماكن كثيرة.

(هياء): بأن تأخذ قرضاً من البنك بالطبع لأنكم فقراء.

(الرجل المسن) وهو يبتسم ويحدق بالكتاب بين يديه: أهداني كتاباً وطلب مني قراءته.

(هياء) بوجه محبط: هل كان يعاقبك لأنك طلبت منه السفر؟

(الرجل المسن) وهو يقلب الصفحة: بل منحني حياة أخرى مازلتُ أعيشها إلى اليوم.

(هياء): كيف؟

(الرجل المسن): القراءة غفوة كبيرة عن عالم اليقظة..

(هياء) بسخرية: لا تبالغ.

(الرجل المسن) وهو يغلق الكتاب ويوجه نظره للفتاة: ما اسمك؟

(هياء): (هياء).. ما اسمك أنت؟

(الرجل المسن): الأمين..

(هياء): تقصد (أمين)؟

(الرجل المسن): لا (الأمين).

(هياء): أمين ماذا؟

(الرجل المسن): أمين المكتبة.

(هياء): هذا لقب وليس اسماً.. هل كنتَ تعمل أميناً لمكتبة ما في السابق؟ هل هذا

هو سر حبك غير المبرر للقراءة؟

(الرجل المسن): كنت وما زلت..

(هياء): هل تمانع لو ناديتك بـ(أمين) فقط؟

(الرجل المسن) مبتسماً: لا بأس يا (هياء)..

(هياء) وهي تبتسم: وأين مكتبتك يا (أمين)؟

(أمين) مبتسماً: كنت أظن أنكِ لا تحبين الكتب.

(هياء) وهي تضحك: ما زلتُ لا أحبها، لكني أريد أن أرى تلك المكتبة التي تمتلكها.. أنت تملك واحدة، أليس كذلك؟

(أمين): نعم.. مكتبة ورثتها عن أبي وهو ورثها عن جدي.. فأنا مثل أبي وهو مثل أبيه من قبله نعاني مشكلة في قراءة الكتب العادية..

(هياء): مشكلة؟.. مشكلة من أي نوع؟

(أمين) مبتسماً: عندما كنت صغيراً تعرضت للمضايقة من زملائي في المدرسة بسبب القراءة.

(هياء) وهي تضحك: ربما لأنك كنت دودة كتب مملة.

(أمين) وهو يبتسم: ربما..

(هياء) وهي تنظر حولها: لا أرى أيَّ كتب هنا.

(أمين) وهو يضع الكتاب الذي كان في حجره على المنضدة: مكتبتي ليست هنا.

(هياء) وهي توجه نظرها نحو (أمين): أين إذاً؟

(أمين): حيث كانت لسنوات.. في السرداب.

(هياء) بقلق: سرداب؟

(أمين): إذا وثقتِ بي يوماً فسوف أُرِيكِ إياها.

(هياء): ماذا تقصد: إذا وثقتُ أنا بك؟.. تقصد: إذا وثقتَ أنتَ بي!

(أمين): عندما تقبلين هديتك وقتها سأعرف أنكِ واثقة بي..

وجهت (هياء) نظرها للزهرة البنفسجية الجافة على الطاولة وبدأت تنظر إليها، وخلال نظرها طُرق الباب تلاه صوت (حليمة) وهي تقول: سيدة (هياء)، لقد تأخرنا

في العودة.. هل أنتِ بخير؟

(هياء) وهي تنظر لـ(أمين)، وتقول بصوت مرتفع مسموع لـ(حليمة): أنا بخير يا (حليمة)، لا تقلقي!.. عُودي وسألحق بك بعد قليل!

(حليمة) من عند عتبة باب المنزل: يمكنني الانتظار هنا لو رغبتِ!

(هياء) وهي تمدُّ يدها وتلتقط الزهرة البنفسجية الجافة وتستنشقها وعينها على أمين: لا!.. عودي لبوابة القصر وانتظريني هناك!

(حليمة) وهي ترحل: أمرك يا سيدتي.

(أمين) مبتسماً: كيف وجدتِ عَبَقها؟

(هياء) وهي منبهرة: لم أستنشق عبيراً زكياً بهذا الجمال في حياتي.. كيف لزهرة جافة أن تحمل كل هذا الأريج؟

(أمين) وهو ينهض مبتسماً: هل ترغبين في رؤية مكتبتي الآن؟

(هياء) وهي تضع الزهرة على الطاولة وتنهض مبتسمة: نظرة سريعة فقط.

توجَّه الرجل المسن للمكان الذي أتى منه سابقاً ولحقت به (هياء)..

مملكة الجمال

سار (أمين) و(هياء) من خلفه حتى توقف أمام بابٍ خشبيٍّ مغلق بمزلاج حديدي يعتليه قفل نحاسي كبير، وقال: هذا هو باب السرداب.

(هياء): السرداب المؤدي لمكتبتك؟

(أمين) وهو يُخرج سلسلة من المفاتيح من جيبه: نعم.

(هياء) وهي تنظر لسلسلة المفاتيح: ما كل هذه المفاتيح؟

(أمين) يدخل أحد المفاتيح في القفل النحاسي ويديره بصمت..

فُتح الباب وأصدر صريراً حاداً خلال فتحه ليكشف خلفه ظلاماً دامساً، فقالت (هياء) بقلق: كيف سننزل في هذه الظلمة؟

(أمين) وهو يأخذ بضع خطوات للأمام: انتظري هنا.

دخل الرجل المسن وبدأت (هياء) تسمع خطواته وهو ينزل للأسفل حتى تضاءلت أصوات خطواته واختفت. بقيت (هياء) عند طرف باب السرداب تحاول أن ترى شيئاً من خلال ذلك الظلام الحالك، لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً. بعد دقائق قليلة

من الوقوف عند مدخل السرداب، رأت نوراً مُشعاً يأتي من الأسفل أنار لها ما

كان أمامها وهو سلم خشبي يقود للأسفل. سمعت بعدها صوت (أمين) وهو ينادي عليها ويقول: يمكنك النزول الآن!

تردَّدت (هياء)؛ لأن التوتر والقلق تسلّلا لصدرها فجأة، لكنها استجمعت شجاعتها وبدأت بالنزول. بعد بضع خطوات رأت (هياء) الرجل المسن وهو يتوسط مكاناً

مُنـاراً بمجموعـة مـن الشـموع، وكـانت جـدران ذلـك المكـان عبـارة عـن رفـوف كبـيرة وممتـدة للسـقف، مملـوءة بـالكتب بكافـة الأحجـام والألـوان، ورأت كـذلك سـلماً

مستنداً إلى أحد تلك الرفوف، ومن الواضح أنه كان يُستخدم للوصول إلى الرفوف العالية. وتتوسط المكان كنبة بنية اللون مصنوعة من الجلد جلس عليها (أمين)

مبتسماً، وخلفه ساعة مستديرة كبيرة مدفونة في أحد الرفوف. عندما وصلت (هياء) للسلمة الأخيرة أخذت بضع خطوات داخل المكان وهي تنظر حولها بانبهار

وتقول: هل هذه هي مكتبتك؟

(أمين) مبتسماً: نعم.

(هياء) وهي تمسح بسبابتها على أحد الرفوف: متى كانت آخر مرة قمت بتنظيفها؟

(أمين) وهو يضحك: لا أجد وقتاً لذلك.

(هياء) وهي تسير ببطء وتتمعّن بنظرها للرفوف، وتمسح بيدها على كعوب الكتب المصفوفة فيها: هناك شيء جذاب في مكتبتك..

(أمين): اختاري كتاباً منها.

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين) مبتسمة: أخبرتك بأني لا أحب القراءة.

(أمين): كيف تمقُتين شيئاً لم تجربيه من قبلُ؟

(هياء) وهي تكمل السير بجانب الرفوف وتحدق بالكتب: كتب المدرسة كانت كافية كي أعرف أني لا أحب القراءة.

(أمين): القراءة أمر مختلف عن المذاكرة..

(هياء) وهي تسحب كتاباً أحمر بأطراف مذهبة وتحدق به: كلاهما مملٌّ.

(أمين): لن أجبرك إذا كنتِ متيقنة من ذلك..

أعادت (هياء) الكتاب الأحمر ذا الأطراف المذهبة للرف، ثم رفعت سبابتها وبدأت تشير للكتب واحداً واحداً..

(أمين): ماذا تفعلين؟

(هياء) ونظرها منصب على الرفوف: أحاول عد الكتب.

(أمين) وهو يبتسم: 5454 كتاباً!

(هياء) وهي تنزل سبابتها وتنظر للرفوف بانبهار: يا الله.. عددها كبير جداً.

(أمين) وهو ينهض من الكنبة: هيا لنرحل كي لا تتأخري عن العودة.

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين): أريد واحداً.

(أمين) باستغراب: تريدين ماذا؟

(هياء): أريد كتاباً.

(أمين) وهو يجلس مرة أخرى على الكنبة الجلدية: كنت أظن أنكِ لا تحبين القراءة.

(هياء) وهي توجه نظرها لرفوف الكتب: ولا أزال لا أحبها.

(أمين): لِمَ تريدين كتاباً إذاً؟

(هياء) وهي سارحة في الرفوف الشاهقة: لا أعرف.. أريد تصفح أحدها فقط.

(أمين) مبتسماً: أعرف كتاباً سيروق لكِ.

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين): لا أريد أن أقرأه. أريد تصفحه فقط..

(أمين) وهو ينهض من الكنبة ويتوجه لرفّ خلفه: الأمر لن يستدعي منك سوى تصفح بسيط.

(هياء) باستغراب: ماذا تقصد؟

(أمين) وهو يبحث بنظره بين الكتب: كم عمرك يا (هياء)؟

(هياء): اثنتا عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة أيام..

(أمين) وهو يضحك ويسحب كتاباً أزرق بنقوش سوداء: يبدو أنكِ تعدين الأيام حتى تكبري.

(هياء): أريد أن أكبر بسرعة كي أتحرر من قيد أبي.

(أمين) وهو يُعيد الكتاب الأزرق ويسحب كتاباً آخر أخضر اللون بلا نقوش: هل تظنين أن الحياة بدونه ستكون أجمل؟

(هياء): لن تكون أسوأ بالتأكيد، لكنه بلا شك لن يفتقدني.

(أمين) وهو يمد الكتاب الأخضر لـ(هياء): خذي هذا الكتاب.

(هياء) وهي تأخذ الكتاب الأخضر من يد (أمين): هل جميع كتبك هنا قصص وروايات، أو أن بينها كتباً علمية؟

(أمين): مع أنك لا تحبين القراءة، فأنت ملمة بأنواع الكتب.

(هياء) وهي تنظر للكتاب الأخضر: الروايات تافهة ولا فائدة منها؛ كلها خيال.. الكتب العلمية على الأقل تملك بعض الفائدة.

(أمين): العلم الثابت ما هو إلا خيال أصابه الجمود..

(هياء): ماذا تقصد؟

(أمين) وهو يقترب برأسه من (هياء) ويحدق بعينيها مبتسماً: لا يوجد كتب مملة هنا، لا تقلقي..

وجَّهت (هياء) نظرها لعنوان الكتاب الذي بين يديها وقد كان مكتوباً بلونٍ فضي لامع وقرأته: "حقول القمح".. عنوان غريب.

(أمين): كتاب جميل.. عشتُ معه حياة أخرى..

(هياء): هل هو كتاب عن صناعة الخبز؟

(أمين) وهو يبتسم: لا.

(هياء) تُقلب الكتاب: أين اسم المؤلف؟

(أمين) يرفع نظره ويحدق بالرفوف: لا يوجد كتاب باسم مؤلف.

(هياء) باستغراب: ماذا تقصد؟.. كيف لا يكون لها مؤلفون؟.. مَنْ كتبها إذاً؟

(أمين): لا تهتمي بمن كتب الكتاب بقدر اهتمامك بمحتواه، وأنا أضمن لكِ أن محتوى كل كتاب من هذه الكتب لم ترَيْ مثله من قبلُ قط!

(هياء): تقصد لم أقرأ مثله من قبل..

(أمين): قصدت ما قلت.. وتذكري ألا تفتحي الكتاب إلا إذا كنتِ عاقدة العزم على قراءته.

(هياء) بسخرية: لماذا؟.. هل ستعاقبني إذا لم أقرأه بالكامل؟

(أمين): لا.. لكنك لن تخرجي منه قبل أن تُنهيه.

(هياء) مبتسمة: سوف أتصفحه فقط وأعيده لك.. أخبرتك بأني لا أحب القراءة!

(أمين) وهو يجلس على الكنبة الجلدية: هيا تصفحيه..

(هيـــاء) وهـــي تنظـــر للســـاعة الكبـــيرة خلـــف الكنبـة: إنـها الآن التاسـعة وأربـع دقـائق، ولا أملـك وقتـاً كـافياً، ولا أريـد أن أتـأخر فـي العـودة.. هـل يمكننـي أن أسـتعيره وأتصفحه في المنزل؟

(أمين): لا، فالكتب هذه لا تخرج من هنا أبداً.

(هياء): لا تقلق.. لن أسرقه!

(أمين) مبتسماَ: الكُتب تَسرِق ولا تُسرَق..

(هياء) تنظر لـ(أمين) باستغراب..

(أمين): هيا، اِفتحي الكتاب كي لا تتأخري في العودة.
كأس من الدموع

فتحت (هياء) الكتاب، وبمجرد أن فتحته وَمَض في وجهها وهج ضوءٍ قوي انقشع خلال ثوانٍ لترى نفسها وسط حقل كبير امتلأ بسنابل القمح التي كانت تتمايل

وتتراقص مع الريح والشمس ساطعة فوقها، يحيط بها مجموعة من الغيوم العائمة في سماء زرقاء كالبحر. صرخت (هياء) بقوة عندما وجدت نفسها في ذلك

المكان، وخلال صراخها سمعت صوتاً خلفها يناديها بقلق ويقول: ما بكِ يا (أمل)؟!

التفتت (هياء) إلى مصدر الصوت وهي مرعوبة، ورأت شاباً يجري تجاهها ففزعت وبدأت تجري في الاتجاه المعاكس مبتعدة عنه. لاحظت خلال جريها أن جسدها

كان مختلفاً. كانت أطول قامة، وكان لباسها مختلفاً عما كانت تلبسه، لكنها لم تفكر بالأمر كثيراً وبقيت تجري بسرعة، وذلك الشاب يجري خلفها وينادي عليها.

استمرت (هياء) بالجري حتى تمكن ذلك الشاب من اللحاق بها والقفز عليها، وطرحها أرضاً، فبدأت تصارعه محاولة التفلُّت منه وهو يصرخ فيها ويقول: ما بكِ؟!

ما الذي حدث؟!

(هياء) وهي تصرخ في الشاب وتحاول التفلُّت منه: ابتعد عني!

أفلت الشاب قبضته ونهض وهو يراقب (هياء) بتعجب ويقول: ما بكِ يا (أمل)؟ هل رأيت شيئاً أفزعك؟

(هياء) وهي تقف وتقول بعصبية تخالطها الدموع: ابتعد عني!

(الشاب) وهو يرفع كفيه أمام (هياء) ويقول بهدوء: حسناً.. حسناً.. اِهدئي يا (أمل).

(هياء) وهي تصرخ بالشاب: أنا لست (أمل) أيها الأحمق!.. أين أنا؟!

(الشاب) بتعجب: ما بكِ يا (أمل)؟

(هياء) بغضب: لا تناديني بهذا الاسم!

جَثَت (هياء) على ركبتيها بين سنابل القمح الطويلة وبدأت بالبكاء بحرقة..

عندما رأى الشاب الحالة التي كانت (هياء) عليها، أخذ بضع خطوات للوراء وقال بقلق: سوف أنادي على (فردوس) كي تأتي إليك.

جرى الشاب مبتعداً عن (هياء)، وخلال ابتعاده أحست بالدوار في رأسها وسقطت على الأرض مغشياً عليها. فتحت (هياء) عينيها لترى سقفاً من الأعمدة الخشبية، وسمعت صوت لَظَىً لنار تشتعل بالقرب منها. حركت رأسها ورأت أنها في كوخ صغير والنار التي كانت تشتعل كانت مدفأة تتوسطها قدر حديدية تصاعدت منها بعض الأبخرة، ورأت أنها كانت مغطاة بفراءٍ يشبه فراء الخراف. رأت أيضاً أن جدران ذلك الكوخ عُلقت عليه بعض الأدوات البدائية كالمناشير والمطارق، ودلوٌ مربوطٌة بحبل ملفوف. خلال تحديقها وتفحُّصها للمكان فُتح الباب ودخلت فتاة في العشرين من عمرها تقريباً، وعندما رأت أن (هياء) قد استيقظت تقدمت نحوها بابتسامة عريضة وسحبت كرسياً خشبياً صغيراً بلا ظهر، وجلست أمام (هياء) المستلقية ووضعت كفها على جبينها وقالت:

"حمداً لله على سلامتك يا (أمل)، لقد قلقنا عليكِ كثيراً"!

لم ترد (هياء) على الفتاة، وبقيت تحدق بها بتوتر شديد..

(فردوس) وهي تبتسم وتسحب إناءً من تحت السرير الخشبي الذي كانت (هياء) مستلقية عليه: لقد أفزعني (عرندس) كثيراً..

(هياء) تنظر باستغراب لحديث الفتاة..

(فردوس) وهي تُخرج قماشة من الإناء وتعصرها وتضعها على جبين (هياء) وتضحك: لقد وبَّخه أبي كثيراً بسبب ما حدث لك.

(هياء) بصوت متوجِّس: من أنتِ؟

(فردوس) وهي تضحك: أنا التي خلصت حبيبَكِ من سخط أبي.

(هياء) باستغراب: حبيبي؟

(فردوس): نعم.. وهو يقف بالخارج يريد الاطمئنان عليك.

(هياء): أين أنا؟

(فردوس) وهي تنهض وتتوجه نحو الباب: سأنادي عليه، فهو الوحيد الذي يستطيع رسم الابتسامة على وجهك.

فتحت الفتاة الباب وأشارت لأحدهم بالدخول، وبعد ثوانٍ دخل الشاب الذي شاهدته (هياء) في حقل القمح قبل أن يُغمى عليها، وهو يتقدم لداخل الكوخ وعلى وجهه قلق شديد. وبمجرد رؤيته لـ(هياء) اندفع نحوها وجلس أمامها وهو يقول بتوتُّر: هل أنتِ بخير يا (أمل)؟.. ما الذي حدث لكِ اليوم؟!

لم ترد (هياء) عليه، وبقيت تحدق به بخوف وقلق..

الفتاة وهي تبتسم وتهم بالخروج: سأترككما وحدكما..

(هياء) بصوت مرتفع: لا!.. لا تتركيني وحدي معه!

(فردوس) باستغراب: هذه أول مرة تطلبين مني ذلك.. في العادة تُوبّخينني إذا بقيتُ معكما!

(هياء) وهي تجلس وتُسند ظهرها للجدار خلف السرير، وتسحب الفراء إلى عنقها وتحدق بالشاب بتوجُّس وريبة: أرجوكِ، لا تتركيني وحدي معه!

التفت الشاب إلى الفتاة وقال بتعجُّب شديد: ما بها؟

(فردوس) وهي تتوجّه نحو الشاب، وتضع يدها على كتفه وتقول مبتسمة: اِرحلْ الآن يا (عرندس)، ولا تقلق؛ فهي لا تزال متعبة مما حدث.

(عرندس) وعلامات التعجب والاستغراب تتفجّر من عينيه: وما الذي حدث تحديداً يا (فردوس)؟

(فردوس) وهي تشد ذراع الشاب وتضحك: اُخرج الآن وسنتحدث لاحقاً.

خـرج الشـاب مـن الكـوخ وهـو فـي حالـة تعجـب شـديد، وبعـدما أغلقـت الفتـاة البـاب خلفـه توجـهت نحـو (هيـاء)، وجلسـت عنـد طـرف السـرير وقـالت لـها: مـا بـكِ يـا

(أمل)؟.. لِمَ صددتِ (عرندس) هكذا؟

(هياء) بعصبية: (عرندس) من؟!.. ومن أنتِ؟!

(فردوس) بنظرة تعجُّب: أنا أختك (فردوس) يا (أمل).

(هياء): (أمل) من؟!.. أنا لست (أمل)!

(فردوس) بنظرة قلق: من أنتِ إذاً؟

(هياء): أنا.. أنا..

(فردوس): نعم؟.. أنتِ من؟

(هياء) وهي تضع يدها على رأسها، وتزيل قطعة القماش المبللة: لا أذكر..

(فردوس) وهي تبتسم وتقبل جبين (هياء): أنتِ (أمل) أختي الصغرى، التي تجلبِ لنا المشاكل دائماً..

(هياء) بتوتر: لا، لا.. أنا متأكدة أني لست مَنْ تقولين.. أنا شخص آخر!

(فردوس) وهي تبتسم وتضع خدها على كفها وتحدق بـ(هياء): هيا أخبريني من أنتِ إذاً؟

(هياء) وهي تغطي وجهها وتبدأ بالبكاء: لا أعرف!.. لكني متأكدة أن هذه ليست حياتي!

(فردوس) مبتسمة: هل هذه حيلتك للتملص من زواجك بـ(عرندس)؟

(هياء) وهي مصدومة وبصوت مرتفع: زواج؟!.. أي زواج؟!.. أنا مازلت صغيرة!

(فردوس) وهي تضحك: صغيرة؟!.. لقد أتممت السابعة عشرة قبل شهر.

(هياء) باستغراب: أنا في الثانية عشرة من عمري.

ضحكت (فردوس) بقوة ونهضت من أمام (هياء)، وهي تقول: يبدو أنكِ استعدتِ عافيتك، وعادت إليك روح دعابتك التي نعهدها.

(هياء) بتوتر: لا، لا.. أنا أقول الحقيقة!

(فــردوس) وهــي تفتــح البــاب وتــهمُّ بــالخروج ضــاحكة: لقــد حصــلتِ علـى إجـازة مـن العمـل فـي الحقـل الـيوم، لكـن غـداً يجـب أن تعـودي للعمـل معنـا؛ فـهذا موسـم

الحصاد وأبي يحتاجنا جميعاً.

(هياء) وهي تراقب الباب يُغلق بعد خروج (فردوس): أي عمل وأي حقل؟.. ما الذي يحدث لي؟

بدأت (هياء) تحاول استرجاع ذاكرتها، لكنها لم تستطع تذكر سوى أنها لا تعرف شيئاً عن هذا المكان، وأنها كانت تعيش حياة أخرى في مكان آخر، وأن جسمها

وعمرهــا لــم يكونــا كمــا همــا الآن، وخــلال تفكيرهــا قــررت النـهوض والخـروج مـن الكـوخ لإحسـاسها بالضـيق والاختنـاق مـن التفكـير بـالأمر. فتحـت البـاب ورأت منظـراً

جميلاً جداً أمامها. رأت مُرُوجاً خضراء على امتداد بصرها تخللها حقول مختلفة من الزهور، وسنابل القمح الذهبية، ورأت كذلك جبالاً ثلجية شاهقة في الأفق

بالرغم من أن الشمس كانت ساطعة وأشعتها الدافئة كانت تداعب وجنتيها. بدأت (هياء) بأخذ أنفاس عميقة من النسمات التي هبت ناحيتها، وأغمضت عينيها

وهــي تحــاول أن تســتوعب ذلــك الكــم الــهائل مــن الجمــال. حتــى بعــد إغمــاض عينيــها كــانت لا تزال تحــس بتلــك الجنـة مـن حولـها مـن خـلال نسـمات الـهواء البـاردة

المعطرة برائحة العشب الغض، وأشعة الشمس الذهبية التي احتضنتها. انقطع ذلك الاندماج بالطبيعة الخلابة عندما سمعت نُباح كلب بالقرب منها تصاحبه

أصوات لبعض الأجراس، ففتحت عينيها لتشاهد قطيعاً من الماشية يسير أمامها، وكلباً صغيراً بفِراء أبيض يجري وينبح حولها وخلف القطيع، كان ذلك الشاب

الذي رأته سابقاً يسير ويُوجّهها بعصا خشبية طويلة بيد، وباليد الأخرى لوّح لـ(هياء) بخجل. هذه المرة لم تجزع (هياء) منه؛ لأن الجمال الذي كان يحيط به وبها

أوقع في نفسها بعض الهدوء والسكينة، فابتسمت له ابتسامة صغيرة ولوَّحت له بخفة وبسرعة. غمرت السعادة الشاب عندما رأى (هياء) وهي تبتسم وتلوح له،

فنادى عليها وقال: ألن تذهبي معي؟؟!

(هياء) بصوت خفيض: أين سنذهب؟

(عرندس) بصوت عالٍ: ماذا؟!.. ماذا تقولين؟؟!

(هياء) وهي ترفع صوتها: أين سنذهب؟؟!

(عرندس) مبتسماً وبصوت عالٍ: حيث نذهب كل يوم!.. لضفاف النهر كي نسقي الماشية!

مشت (هياء) بخطوات متسارعة نحو القطيع، وبدأت تسير بجانبها وهي تلمس بيدها فراء الخراف الناعم والكلب الصغير يحوم ويقفز حولها وكأنه يريد منها شيئاً.

(عرندس) من مؤخرة القطيع ضاحكاً: إنه يريد عناقك الذي اعتاد عليه كل يوم!

(هياء) وهي تلتفت خلفها إلى (عرندس) مبتسمة: لكني لم أرَهُ من قبل!

(عرندس) ضاحكاً: ألا تزالينَ مصرةً على أنكِ لا تعرفيننا؟؟!

(هياء) تُحدث نفسها وهي تعيد نظرها نحو الكلب الصغير فاتحةً ذراعيها ودمعة صغيرة تخرج من محجرها نزولاً على خدها: أنا لم أعد أعرف نفسي..

قفز الكلب الصغير بين ذراعي (هياء)، وبدأ يلعق وجهها وهي تضحك..

بعد مسيرة أقل من ساعة وصل الجميع لنهر جارٍ جميل محاط بالخضرة وبعض أشجار التفاح المثمرة. اندفع قطيع الخراف نحو ضفاف النهر وبدأ بالشرب من مائــــه العـــذب، و(هيــاء) تــراقب ذلــك المشــهد الخــلاب وهــي

منتشـية بجمالـه. اقتـرب (عرنـدس) منـها ووقـف بجانبـها يشـاركها مشـاهدة المنظـر لفتـرة وجـيزة، ثـم قـال

مبتسماً: يوماً ما سنأتي هنا مع أطفالنا..

تغيرت ملامح (هياء) وقالت: أطفالنا؟!

(عرندس) وهو لا يزال يراقب المشهد: نعم أطفالنا.

(هياء) بتجهُّم بسيط: أنا لن أتزوجك.

(عرندس) وهو يلتفت إليها باستغراب: ماذا؟.. لكن زواجنا خلال أيام.

(هياء): لقد التقيتُ بك للتو، فكيف تتوقع مني أن أتزوجك وأنا لا أعرفك؟!

(عرندس) بتعجب شديد: التقيتِ بي للتو؟!.. هل جُننت يا (أمل)؟!

(هياء) وهي تصرخ في الشاب: أنا لست هذه الأمل!

(عرندس) يمسك ذراعها ويشدُّها: ما بكِ؟!.. إذا كنتِ قد غيرتِ رأيك، فلا داعي لهذه التمثيلية السخيفة!

سحبت (هياء) ذراعها من قبضة (عرندس) وجَرَت نحو النهر، وجَثَت عند ضفافه وبدأت تبكي..

وقف الشاب خلفها يراقبها بتعجب، ثم حرك عصاه ليشير للكلب الصغير بتحريك قطيع الخراف للعودة أدراجها وهو يقول لـ(هياء): هيا سنعود.

لم ترد (هياء) عليه وبقيت تبكي عند ضفاف النهر..

لم يُصر (عرندس) عليها لمرافقته، وسار مع قطيعه عائداً من حيث أتى..

خلال بكاء (هياء) انتبهت لزهرة بنفسجية كانت الوحيدة عند ضفاف النهر، فاقتربت منها وتمعنت بها وأحست بشعور غريب. أحست بأنها رأت تلك الزهرة من

قبل، ودفعها ذلك الإحساس للانحناء واستنشاق عبيرها. خلال استنشاق (هياء) لعبير الزهرة البنفسجية رأت انعكاس وجهها في الماء. رأت فتاة بيضاء البشرة

كالثلج بجدائل صفراء كالشمس، وعينين زرقاوين كالسماء. لم تعرف نفسها وقالت وهي مهمومة: من أنتِ؟ ومن أنا؟

أمضت (هياء) ساعات عند ضفاف النهر تفكر، ولم تعد للكوخ حتى بدأت الشمس بالمغيب، وقبل أن يختفي قرصها المحمر من الأفق سمعت صوتاً يُناديها من

خلفها، فالتفتت لترى رجلاً بشارب ولحية طويلة يقترب منها. نهضت (هياء) من مكانها بقلق وبدأت تراقب ذلك الرجل المقترب منها بخطوات متسارعة حتى وصل

إليها وقال: ما الأمر يا (أمل)؟.. لِمَ أنتِ هنا وحدك؟

(هياء) بتوجس: من أنت؟

(الرجل) باستغراب: من أنا؟

(هياء): نعم، من أنت؟

(الرجل): يبدو أن حالتك أسوأ مما كنا نظن.

(هياء): ماذا تقصد؟

(الرجل): أنا أبوك يا (أمل).. ألا تذكرينني؟

(هياء) بعصبية: لا!.. لا أذكرك!.. ولا أذكر شيئاً من هذا المكان أو هذه الحياة!

(الرجل) وهو يتقدم نحوها محاولاً عناقها: لا بأس.. هيا لنعُدْ للمنزل.

(هياء) وهي تبتعد بخطوات للوراء عن الرجل: ابتعد عني!

وقف الرجل مصدوماً من تصرفها، وبعد صمت وتحديق لم يدوما طويلاً قال: ما الذي تريدينه؟.. ما الذي يرضيك؟

(هياء) تدمع وتصرخ بقوة: لا أعرف!

(الرجل) بهدوء: هل يمكننا الحديث على الأقل؟

(هياء) تتنفَّس بسرعة وتمسح دموعها بظهر يدها: نتحدث عن ماذا؟

(الرجل) يقترب منها بحذر: مجرد حديث.. لا يهم الموضوع.

(هياء) وهي تنظر للأرض بحزن: أنت لا تعرف بما أشعر به الآن.

(الرجل) وهو يعانق (هياء) ويضم رأسها لصدره: إذا لم أشعر أنا بكِ فمن سيشعر؟

بـدأت (هيـاء) بـالبكاء كـالطفل علـى صـدر ذلـك الرجـل، وبعـد دقـائق مـن البكـاء المسـتمر أجلسـها علـى الأرض وجلـس بجانبـها وقـال: إذا كنـتِ لا تـرغبين فـي الزواج

بـ(عرندس)، فلا بأس. لستِ مجبرة على ذلك.

(هياء) وهي تبتسم وتدمع وتحدق بالنهر أمامها: لقد سئمت من محاولة شرح مشاعري.

(الرجل): أنا مُنصت.. قولي كل ما تريدين قوله.

(هياء): لن تفهمني.

(الرجل): لا بأس.. تكلمي يا (أمل).

(هياء) تبتسم بحسرة..

(الرجل) بوجه قلق: ما بكِ؟

(هياء) وهي تلتفت إلى الرجل مبتسمة وعيناها حمراوان وغارقتان بالدموع: لا شيء يا أبي.. لا شيء.

(الرجل) وهو يبتسم ابتسامة عريضة ويعانقها عناقاً قوياً: الحمد لله على سلامتك.. لقد استعدتِ ذاكرتك!

بادلت (هياء) الرجل عناقه بالرغم من أنها لم تتذكر شيئاً، لكنها قررت تقبُّل حياتها الجديدة وتقبُّل فكرة أنها فقدت ذاكرتها فعلاً، وأن هواجسها بأنها شخص آخر لم تكن سوى أوهام صدقتها. بعد أقل من أسبوع تزوجت (هياء) بـ(عرندس)، وبالرغم من أنها لم تكن تُكنُّ له أي مشاعر قبل الزواج، إلا أنها أحبته مع مرور الوقت خاصة بعدما أنجبت مولودها الأول، ورأت عنايته بها وخوفه عليها خلال حملها وحبه لها الذي كان يعبر عنه في كل فرصة تتاح له. عاشت (هياء) سنوات طويلة مع زوجها وأطفالها الذين بلغوا ثلاثة صبية وأربع بنات زوجتهم مبكراً بأبناء وبنات أختها (فردوس). عملت مع زوجها في الرعي والفلاحة في مزرعة أبيها التي ورثتها مع أختها بعد وفاته. كدَّتْ لسنوات طويلة ولم ترَ غير أسرتها الكبيرة في تلك الحياة، فقد كانوا مكتفين بأنفسهم ويعيشون حياة سعيدة. عندما بلغت (هياء) الثمانين من العمر كانت قد رأت الكثير من أحفادها وزوجت بعضهم، ولم تتعكر تلك السعادة إلا عندما أصيب زوجها الذي ناهز التسعين من عمره وقتها بمرض عضال لم يتعافَ منه، وتهاوت صحته بسببه سريعاً، وفي اليوم الذي ساءت فيه صحته بشكل كبير وأحست (هياء) أنه سيفارق الحياة طلبت من أبنائها وأحفادها الخروج من المنزل، وتركها مع زوجها في لحظاته الأخيرة.

(هياء) مبتسمة وهي جالسة عند فراش زوجها: إلى أين تنوي الذهاب يا (عرندس)؟

(عرندس) وهو مستلقٍ على فراشه: رحلة يجب أن نسير إليها جميعاً..

(هياء) وهي تمسك بيد زوجها: خذني معك.

(عرندس) يضع يده على يد زوجته مبتسماً: وهل ستتركين أبناءَك وبناتك؟

(هياء) وهي تدمع: لا قيمة لهم بدونك..

(عرندس) وهو يسعل ويضحك: هل تذكرين عندما ادّعيتِ فقدان الذاكرة لتتهربي من الزواج بي؟!

(هياء) وهي تبتسم وتدمع: كنتُ حمقاء.. لم أعرف أنك ستكون أجمل شيء في حياتي.

(عرندس) وهو يمسح على رأس (هياء): أنتِ من كنتِ النور والبهجة في حياتي، وشمسها التي لم تغِبْ يوماً..

(هياء) تدمع وتشدُّ على يد (عرندس): لا تتركني إذاً!

(عرندس) وهو يُغمض عينيه: لا تتأخري أنتِ..

لفَظَ (عرندس) نفَسَه الأخير تاركاً (هياء) محدقة بوجهه وهي تدمع بصمت..

بعــد مــوت (عرنــدس) ودفنــه فـي فنـاء المـنزل بجـوار قبـر (فـردوس) ووالـدها، أمـرت (هيـاء) أبنـاءَها بحفـر قبـر رابـع لـها، فتعجبـوا مـن طلبـها وبـدؤوا يـدعون لـها بـالعمر

المديد، فقالت لهم: هل تظنون أن جسدي سيُقاوم روحي الراغبة في الرحيل؟!

(إحدى بناتها): ماذا تقصدين يا أمي؟

(هياء) وهي جالسة عند قبر زوجها: عندما تشتاق الأرواح تذوب الأجساد..

بعد هذه الجملة، أنزلت (هياء) رأسها وأغمضت عينيها، لكنها لم ترَ ظلمة، بل رأت نوراً قوياً ووميضاً مبهراً استمر ثوانِيَ قبل أن ينقطع، لتجد نفسها في مكتبة

كبيرة وهي ممسكة بكتاب في يدها، وأمامها رجل بلحية بيضاء يجلس على كنبة جلدية وخلفه ساعة كبيرة تشير للتاسعة وخمس دقائق. نظر الرجل إليها مبتسماً

وقال:

هل استمتعتِ بالكتاب يا (هياء)؟

رمت (هياء) الكتاب، وصرخت صرخة قوية دوَّى منها المكان. وضعت يديها على رأسها وجثَتْ على ركبتيها واستمرت بالصراخ حتى أُغمي عليها.

أبجديات الفرح ونحو السعادة

فتحت (هياء) عينيها ورأت رجلاً مسناً بلحية بيضاء يحدق بها على مقربة من وجهها، ويحرك زهرة بنفسجية جافة عند أنفها. نهضت مفزوعة وتراجعت للخلف

حتى ارتطم ظهرها بأحد الرفوف في الغرفة، وهي تقول بتوتر وفزع شديدين: مَنْ أنت؟!.. أين أنا؟!

(الرجل المسن) وهو يقف: أنتِ مصدومة الآن. حاولي التركيز لاستعادة ذاكرتك.

(هياء) وهي تصرخ في الرجل المسن: أين أنا؟!.. أين أطفالي وأحفادي؟!

(الرجل المسن) وهو يمد الزهرة الجافة لـ(هياء): استنشقي هذه.. ستساعدك بالتذكر.

(هياء) وهي تضرب الزهرة من يد (أمين) وتقول بعصبية شديدة: ابتعد عني!

بقي (أمين) صامتاً وهو يراقب (هياء) تتفحص جسدها ورأسها وشعرها بهوس، وهي تتمتم لنفسها وتقول: ما الذي يحدث؟!.. ما الذي يحدث؟!

(أمين): لقد كنتِ في رحلة، وحان الوقت لأن تستيقظي وتعودي لحياتك.

(هياء) وهي تنظر لـ(أمين) بعينين متسعتين ونبرة ساخطة: رحلة؟.. أي رحلة؟.. أين (عرندس)؟!.. أين أبنائي؟!..

(أمين) بهدوء: أنتِ (هياء).. عمرُك اثنتا عشرة سنة.. كنتِ توزعين الكعك مع خادمتك (حليمة).. تسكنين في قصر مع أبيك.. حاولي التذكر بهدوء..

(هياء) وهي تقف بوجه متسائل وصوت مرتفع: (حليمة)؟.. (حليمة) مَنْ؟

(أمين) وهو يلتقط الزهرة الجافة من على الأرض: استنشقي عبير هذه الزهرة حتى تستعيدي ذاكرتك!

بدأ الاثنان يسمعان صوت (حليمة) وهي تنادي على (هياء) مرة أخرى من عند باب المنزل، فأخذ (أمين) الزهرة ووضعها في يدها وهو يقول: اذهبي الآن مع تلك

المرأة التي تنادي عليك، ومهما حدث ومهما رأيت من أمور فلا تجزعي أو تثيري المشاكل.. أعدك بأنك ستتذكرين كل شيء.

(هياء) وهي واقفة في مكانها مصدومة وبعينين دامعتين: لكن..

(أمين) وهو يدفعها برفق نحو السلم المؤدي للطابق الأعلى: لا تفكري كثيراً واذهبي للسيدة التي تنادي عليك فوراً.

صعدت (هياء) السلالم ببطء وعلى وجهها دهشة واستغراب كبيران؛ فحياتها السابقة في حقول القمح لا تزال مطبوعة ومطبقة على عقلها وذاكرتها بقوة. عند

وصولها لنهاية الدرجة الأخيرة من السلم رأتها (حليمة) التي دخلت المنزل باحثة عنها بقلق شديد، وبمجرد رؤيتها لها اندفعت نحوها وعانقتها وهي تقول: ما

الذي تفعلينه هنا؟!.. هل أنتِ بخير؟!.. ما بكِ تبدين مصدومة؟!.. هل فعل ذلك الرجل بك شيئاً؟!

(أمين) وهو يخرج من باب السرداب: لا تقلقي يا سيدة (حليمة)، هي مصدومة فقط.

(حليمة) وهي تضم (هياء) لصدرها بقلق: مصدومة؟! ماذا فعلت بها؟!

(أمين) وهو يغلق باب السرداب مبتسماً: ما الذي تظنين أني فعلتُه لها؟.. لقد فزعت من فأرٍ رأته فقط.. أليس كذلك يا (هياء)؟

(هياء) وهي في حالة من التَيَهان: ماذا؟

(حليمة) وهي تأخذ (هياء) مبتعدة عن الرجل المسن ومتوجهة لباب الخروج من المنزل: لو تبين لي أنك آذيتَها بأي شكل، فستكون عاقبتك وخيمة!

(أمين) وهو يشوح بيده مبتسماً ومودعاً لهما: رافقتكما السلامة.

خرجت (حليمة) وهي تضم (هياء) المصدومة لصدرها، ومشت بخطوات متسارعة نحو بوابة القصر. وعند وصولها خرج البواب والحراس لاستقبالهما لأنهم كانوا

قلقين لعدم عودة (هياء) مع (حليمة) سابقاً.

(البواب) بقلق: ما بها السيدة الصغيرة؟!.. ما الذي حدث؟!

(حليمة) وهي تتجاوز الرجال متوجهة نحو مدخل القصر ورأس (هياء) ملتصق بصدرها: لا شيء!.. لا تقلقوا لقد وقعت فقط.. لا تخبروا السيد الكبير كي لا يقلق

عليها!

(أحد الحراس): يجب أن نبلغه بهذا الأمر.

(حليمة) وهي تتوقف وتلتفت بنظرها وسبابتها نحو الحارس الذي تحدث وتقول بغضب وعصبية شديدين: لو قلتَ حرفاً أنت أو أي أحدٍ من زملائك فسأحرص

على أن يفصلكم السيد الكبير من أعمالكم قبل نهاية اليوم!

(حارس آخر): لكن هذا واجبنا.

(حليمة) بغضب وهي تكمل المسير داخل القصر: جرِّبْ وأخبر السيد الكبير، ولْتَرَ أياً منا ستكون كلمته هي العليا!

بقي الرجال عند بوابة القصر يراقبون (حليمة) بصمت وهي تمشي مع (هياء)، وهم في حالة تعجب من غضبها الشديد الذي لم يروه من قبل..

دخلــت (حليمــة) القصــر وتوجــهت مباشـرة للطـابق العلـوي حـيث كـانت غرفـة (هيـاء)، ووضـعتها فـي فراشـها واسـتلقت بجانبـها وأسـندت رأسـها إلـى صـدرها، وبـدأت

تمسح عليه وتقبله حتى غفت عيناها ولم تسألها عن أي شيء مما حدث. قبل أن تنهض (حليمة) تاركة (هياء) لترتاح انتبهت للزهرة البنفسجية التي كانت قابضة

عليها، لكنها لم تنتشلها من يدها وخرجت من الغرفة بعدما أغلقت الباب بهدوء.

نزلت (حليمة) من الطابق العلوي، وخلال نزولها رأت السيد الكبير ينتظرها وهو ممسك بغليونه ويدخن بشراهة، وعلى وجهه ارتسمت معالم الغضب والانزعاج

التي تألفها وتعرف معناها. عندما وقفت أمامه لم تتحدث معه، بل اكتفت بإنزال رأسها منتظرة توبيخه لها عن تركها ابنته وحدها في منزل ذلك الرجل؛ لأنها

تيقنت من ملامحه الساخطة أن الحراس أخبروه بما حدث، ولم ينصاعوا لتهديدها. بقي السيد الكبير يدخن وينفخ الدخان تجاه (حليمة) وهو يحدق بقمة رأسها

المُحنى له لفترة وجيزة، ثم قال بنبرة حادة: أين (هياء)؟!

(حليمة) ونظرها نحو الأرض: نائمة يا سيدي.

(الأب) بتجهُّم: نائمة؟!.. لقد استيقظت من ساعة فقط!

(حليمة): تعبت قليلاً من توزيع الكعك على الجيران وذهبت لترتاح.

(الأب) بتجهُّم: تعب؟!.. هذه الفتاة مدللة وأنتِ السبب في ذلك!

لم تتكلم (حليمة) واكتفت بالنظر عند أقدامها..

(الأب) وهو يسير نحو غرفة المعيشة: أنا منزعج جداً!

(حليمة) وهي ترفع نظرها: أعتذر منك يا سيدي، أعدك بأن ما حدث لن يتكرر مرة أخرى.

(الأب) وهو يلتفت إلى (حليمة) ويقول بتجهُّم يخالطه الاستغراب: عن ماذا تتحدثين؟!.. أنا منزعج لسبب آخر.. لقد وقعت مشكلة في المزارع التي أمتلكها خارج

المدينة، ويجب أن أسافر فوراً لحل الموضوع.. عن ماذا تتحدثين أنتِ؟!

(حليمة) وهي تتدارك تسرُّعها بالحديث: كنت أقصد توزيع الكعك مع السيدة الصغيرة.. ظننتك ساخطاً علي لأنها تعرضت للتعب.

(الأب) وهو يجلس على الكنبة الفخمة في غرفة المعيشة ويشعل عودَ ثقابٍ ليُجدد به شعلة غليونه: على العكس تماماً، أريدكما أن تذهبا مرة أخرى غداً، وتكملا

توزيع الكعك.. لا أظن أن الكمية التي أعدها الطباخ كانت كافية لأفراد الحي بأكمله.. أليس كذلك؟

(حليمة) وهي تزفر مرتاحة: نعم، نعم.. معك حق يا سيدي.

(الأب) وهو يهز عود الثقاب لإطفائه: سوف أرحل بعد ساعة، وسأغيب لعدة أيام.. ستكونين أنتِ المسؤولة عن القصر وجميع مَنْ فيه في غيابي، هل تفهمين يا

(حليمة)؟

(حليمة) وهي تتقدم بضع خطوات نحو السيد الكبير: أمرك يا سيدي.. اِرحلْ وكن مطمئناً، ستبقى الأمور في غيابك كما لو كنت بيننا.

(الأب) وهو ينفخ سحابة من الدخان ويحدق بحديقة القصر من خلال النافذة الكبيرة أمامه: اِذهبي وأعدي لي لوازم السفر.

(حليمة) وهي تتراجع للخلف بخطوات حذرة: أمرك يا سيدي.

بعد أقل من ساعتين خرج السيد الكبير من باب القصر ليجد سائقه الخاص يفتح له باب السيارة، وسيارة الحراس تنتظر خلفها للحاق به لتوصيله للمطار. تقدم

السيد الكبير نحو الباب المفتوح، وقبل أن يركب التفت خلفه ليرى (حليمة) تقف عند الباب مع بعض الخادمات فقال لها: انتبهي لـ(هياء) في غيابي يا حليمة!

(حليمة) وهي تنزل رأسها: لا تقلق يا سيدي، هي في عيني في حضورك وغيابك.

ركب السيد الكبير السيارة وأغلق السائق بابها خلفه بهدوء وحذر، وجرى مسرعاً وركب في مقدمتها وأدار المحرك وانطلق متوجهاً للمطار وسيارة الحراس خلفه.

بعـد خــروج الســيد الكبــير ومرافقيـه مـن بوابـة القصـر، وجّهـت (حليمـة) الخـادمات بإعـداد الغـداء، فقـالت لـها إحـداهن: لكـن يـا سـيدتي لا يوجـد أحـد بالقصـر سـوى

السيدة (هياء)، وهي نائمة الآن.

(حليمة) وهي تنظر للأفق أمامها: أوامر السيد الكبير واضحة وصريحة، وهي أن تُعَد المائدة في أوقات الوجبات الثلاث له ولزوجته ولابنته، سواء أكانوا موجودين

أم لا!

تحركت الخادمات من أمام (حليمة) متوجهات لداخل القصر، وهن يقلْنَ بصوت واحد: أمرك.

مضى اليوم بشكل روتيني دون أحداث تذكر، وأُعِدَّتْ مائدة الغداء ورُفعت دون أن يمسها أحد كما أمرت (حليمة)، وعندما حل المساء بدأت الخادمات بإعداد مائدة العشاء، وخلال قيامهن بذلك شاهدن (هياء) وهي تنزل من الطابق العلوي وتتوجه بخطوات متسارعة نحو باب القصر. توقفت الخادمات عمّا كُن يقُمن به وبدأن يُحدقن ببعضهن بعضاً في حيرة من أمرهن، فهن لا يستطِعْن منعها أو الحديث معها؛ فهذه مهمة (حليمة) وهي لم تكن في الجوار. فتحت (هياء) الباب وخرجت منه على عجالة متوجهة لبوابة القصر، فأشارت إحدى الخادمات لزميلتها وقالت بتوتر: ابحثي عن السيدة (حليمة) فوراً وأخبريها بما يحدث!

جرت الخادمة وبدأت تبحث في أرجاء القصر عن (حليمة)..

خلال ذلك وصلت (هياء) للبوابة وقد اقترب الوقت من التاسعة مساءً، واعترض طريقَها حارس بكل حذر ولباقة مع مجموعة من الحراس، وقال بخوف تخالطه الرهبة وتزينه ابتسامة متوترة: إلى أين يا سيدة (هياء)؟

(هياء) بتجهُّم: ابتعد عن طريقي يا (حسان)!

(حسان) وهو يضع كفه مقابل الأخرى: أرجوكِ يا سيدة (هياء)، لا أريد أن أقع في المشاكل مع السيد الكبير.

(هياء) وهي تسير متجاهلة (حسان) والحراس المحيطين به: من يجرؤ منكم على إيقافي فليفعلْ!

مدَّ أحد الحراس يده في محاولة لمنع (هياء) من التقدم نحو خارج القصر، لكن أحد زملائه ـ والذي كان أقدم منه عملاً في القصر ـ أطبق على ساعده قبل أن يصل إليها وهزَّ رأسه له بعدم لمسها. استمرت (هياء) بالمسير بخطوات ثابتة ومتسارعة وبوجه متجهُّم نحو منزل (أمين)، وعندما وصلت لعتبة بابه بدأت تطرقه بقوة وعنف حتى فتح لها، وبمجرد رؤيتها ابتسم وقال: الحمد لله على سلامتك.. هل أنتِ بخير الآن؟

(هياء) وهي تصرخ بعصبية في وجه (أمين): بخير؟!.. ماذا فعلتَ بي؟!

(أمين) بتعجب: لم أفعل بكِ شيئاً.

(هيــاء) وهــي تُخــرج الزهــرة البنفســجية الجافــة مــن جيبــها وترميــها فــي وجــه (أمــين) وتقـول بغضـب وسـخط: مـا نـوع المخـدر الـذي وضـعته لـي فـي هـذه الزهـرة، والـذي

جعلني أهلوس بتلك الهلوسات؟!

(أمين) يعود لداخل منزله بهدوء، ويترك خلفه الباب مفتوحاً..

(هياء) وهي تصرخ فيه منادية: إلى أين؟!.. سوف أبلغ الشرطة عنك أيها المعتوه!

(أمين) بصوت مسموع لـ(هياء) من داخل المنزل: هل تريدين بعض القهوة؟

دفعت (هياء) الباب بقوة رطمت دفته بالجدار، وأوقعت لوحة كانت معلقة بجانبه وهي تصرخ: هل أنت مجنون؟!

(أمين) بهدوء وبُرود وهو يجلس على أريكته في غرفة المعيشة، ويمد يده لكوبٍ تتصاعد منه الأبخرة على المنضدة بجانبه: لأني أشرب القهوة ليلاً؟

تقدمت (هياء) بضع خطوات لغرفة المعيشة حتى أصبحت أمام (أمين)، الذي أخذ رشفه من قهوته التي أعدها للتو، وقالت بحسرة وبعصبية خفيفة: لِمَ فعلت

بي ذلك؟!

(أمين) وهو يُخرج كتاباً صغيراً من جيبه ويلبس نظارته ويتمعن بعنوانه: فعلت ماذا؟

صفعت (هياء) الكتاب من يده بقوة ليسقط على الأرض..

(أمين) وهو يزفر محدقاً بالكتاب الصغير: اِجلسي يا (هياء)..

(هياء) وهي تصرخ وتشير بسبابتها نحو الطريق المؤدي للسرداب: لن أجلس قبل أن تخبرني ماذا فعلتَ بي في ذلك السرداب!

(أمين) وهو يرفع رأسه وينظر في عينَيْ (هياء) الدامعتين والمُستشيطتين غضباً ويقول بهدوء: لقد جعلتك تقرئين كتاباً..

(هياء) بعصبية: كتاب؟!.. أي كتاب؟!.. لقد عشت حياة كاملة لسنوات طويلة!.. لقد نسيت نفسي!.. نسيت من أنا!.. أي مخدر جعلني أعيش كل تلك التفاصيل

بتلك الدقة والوضوح.. لقد استنشقت وتذوقت ورأيت كل شيء وكأنه حدث بالفعل!

(أمين) وهو يخلع نظارته: ومن قال لكِ إنها لم تحدث، وإنها لم تكن حقيقة؟!

(هياء) بتجهُّم وتعجب: ماذا؟!.. حقيقة؟!.. هل تحاول السخرية مني؟!

(أمين) وهو يخرج قطعة من القماش ويبدأ بمسح عدسات نظارته: أنت في مرحلة الصدمة الأولى، وهذا أمر طبيعي.. كلنا مررنا بذلك من قبل.

(هياء): كلكم؟!.. أنتم من؟!

(أمين) وهو يلبس نظارته وينظر لـ(هياء): من قرأ من تلك المكتبة..

(هياء) تضع يديها على رأسها وتبدأ بالتحرك مبتعدة عن (أمين): لا بد أني أحلم!

(أمين) وهو يعقد أصابعه وينظر لـ(هياء): أؤكد لكِ أن ما عِشتِهِ لم يكن حلماً!

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين): ماذا كان إذاً؟!.. سحر؟!

(أمين) وهو يُطبق شفتيه وينظر للأعلى: شيء من هذا القبيل..

(هياء) وهي تتقدم نحو (أمين) وتشير له بسبابتها: هل أنت مشعوذ؟

(أمين) وهو يطلق ضحكة كبيرة اهتزت لها الأريكة وكرشه: السحر الذي عنَيته مختلف تماماً.

(هياء): ماذا إذاً؟

(أمين): لا يهم أن تعرفي.

(هياء): يهمني أن أعرف سرّ الشيء الذي حدث معي..

(أمين) محدقاً بـ(هياء) التي بدأت تهدأ: هل استمتعتِ؟

(هياء) بنظرة استنكار: ماذا؟.. استمتعت بماذا؟

(أمين) وهو ينحني ليلتقط الكتاب الصغير الذي أوقعته (هياء) من يده سابقاً: هل سنبدأ بالمراوغة يا (هياء)؟.. أنتِ لم تعودي تلك الفتاة الصغيرة.. عقلك على

الأقل.. ربما يكون جسدُك في الثانية عشرة من عمره، لكني أعرف أن ذلك الكتاب قدم لكِ سنينَ من خبرات الحياة وعِلْمها ما يكفي أن تفهمي سؤالاً بسيطاً كهذا.

(هياء) وهي تتوجه للأريكة المقابلة وتجلس عليها بنظرة سارحة للأرض: لقد عشت سنين طويلة داخل ذلك الكتاب.. تزوجتُ.. أحببتُ وعشقتُ.. بكيتُ وضحكتُ..

أنجبتُ.. جنَيْتُ وخسرتُ.. حياة كاملة استنزفتني..

(أمين): لقد اخترت لكِ ذلك الكتاب عن قصد كي تكوني جاهزة للكتب الأخرى..

(هياء) وهي ترفع رأسها وتنظر لـ(أمين) باستغراب شديد: كتب أخرى؟.. هل تظن أني سأقرأ أحد كتبك مجدداً وأضيع فيها سنين وأفقد صوابي؟

(أمين): ما الذي خسرتِهِ عندما قرأتِ ذلك الكتاب؟

(هياء): ماذا تقصد؟

(أمين): سؤالي أوضح من شمس الصباح وبدر السماء في عتمة الليل..

(هياء) وهي تضع يدها على صدرها وتنظر لـ(أمين) بحسرة: لقد خسرت كل شيء.. حياتي كلها فقدتها في لمح البصر.. ألا تظن أن ذلك مؤلمٌ؟

(أمين): بلى.. لكنك لا تنظرين للجانب المشرق.

(هياء) وهي تدمع: لا يوجد جانب مشرق في خسارة من تحب..

(أمين) وهو يمد الكتاب الصغير تجاه (هياء): يمكنك أن تنسي تلك الحياة بأن تعيشي حياة أخرى..

(هياء) وهي تقف مفزوعة وتشوح بيدها رافضة: لا! لا! لن أخوض تلك التجربة القاسية مرة أخرى!

(أمين) ويده لا تزال ممدودة بالكتاب: قد تحبين هذا الكتاب.

(هياء) تحدق بالكتاب الصغير في يد (أمين) بوجه مرتاب ومتوتر جداً..

(أمين) وهو يقلب الكتاب بيده: سيُعجبك، صدقيني..

(هياء) وعينها على الكتاب والعرق بدأ يتصبَّبُ من جبينها: كم سأغيب هذه المرة؟

(أمين) وهو يحدق بـ(هياء) مبتسماً: الأمر منوط بكِ..

(هياء) وهي ترفع نظرها لـ(أمين) وتقول بحدّة: كم سأغيب يا (أمين)؟!

صوت (حليمة) وهي تنادي من الخارج: سيدة (هياء)!.. هل أنتِ هنا؟!

رفعت (هياء) نظرها لـ(أمين) المبتسم بوجه متسائل، ثم خطفت الكتاب من يده وفتحته لينطلق وهج نور قوي في وجهها..

أحلام الزهور

انقشع النور عن عيني (هياء) لتجد نفسها تترنَّح يميناً وشمالاً بقوة، وأحست بأن تلك الحركة ناجمة عن هواء قوي كان يتلاعب بها. لم تكن الرؤية واضحة أمامها

بسبب ذلك الاهتزاز والترنُّح، لكنها كانت تسمع بجانبها أصواتاً أخرى قريبة منها تتحدث في ما بينها بعبارات لم تستوعب فحواها بالكامل. سمعت صوتاً أنثوياً

يقول: الريح اليوم مصرة على إفساد طلتي البهية. سمعت بعدها صوتاً أنثوياً آخَرَ يرد عليها ويقول: لا تُلقي اللوم على الريح، فقُبْحُك له أسباب أخرى. رد الصوت

الأنثوي الأول بغضب وسخرية قائلاً: على الأقل، رائحتي ليست كرائحة التراب المبتل!

(صوت أنثوي ثالث): توقفا عن الجدال!.. الريح بدأت تهدأ.

خفَّتْ حركة اهتزاز جسد (هياء) وبدأت المعالم من حولها تتضح بالرغم من أنها كانت تشعر بالدوار الشديد. رفعت ذراعيها كي تفرك عينيها لترى بشكل أوضح،

لكنها صُعقت عندما رأت أوراقاً خضراء تحاول تغطيتها، فصرخت وبدأت تحاول الجري مبتعدة عنها، لكنها أحست بأن قدميها مُثبتتان في الأرض، فأنزلت نظرها

للأســفل لتــرى أن جســدها غــير مــوجود ولــم تــرَ ســوى ســاق خضــراء طويلـة مغروسـة فـي التربـة. رفعـت نظرهـا بسـرعة، وبـدأت تنظـر حولـها بـارتباك وتوتـر شـديدين،

وخلال ذلك ظهرت أمامها زهرة زهرية ضخمة وحدثتها قائلة: ما بكِ يا (زنبق)؟

صرخت (هياء) عندما رأت تلك الزهرة الضخمة والقريبة جداً من وجهها تتحدث معها. بدأت تتمايل بكل قوتها للهرب، لكن دون فائدة، وتلك الزهرة الزهرية

تراقبها بتعجب، وخلال مراقبتها لها أطلت بجانبها زهرة أخرى ببَتلات بيضاء صغيرة وقالت: ما بها (زنبق) يا (كادي)؟

(كادي) وهي تراقب (هياء) المتشكلة بزنبقة صفراء باستغراب: لا أعرف يا (ياسمين)، يبدو أنها لا تزال مشوشة بسبب الرياح.

أطلت من الجهة المقابلة للزهرات، وعلى بعد يسير منها، زهرة بلون أحمر فاقع وقالت بتأفف: ما بها تلك الحمقاء تتحرك بهذا الشكل؟

(كادي) بسخرية واستحقار لتلك الزهرة الحمراء: عودي لتناول السماد يا (جوري) ولا تتدخلي في الأمر.

زهرة بيضاء أخرى بجانب (جوري) تتحدث بتوتر لـ(ياسمين): ما بها (زنبق)؟ لماذا تنتفض هكذا؟

(ياسمين) وهي تراقب (هياء) بقلق: لا أعرف ما الذي يحدث لها يا (فلة).. منذ أن توقفت الريح وهي بهذه الحالة.

كانت (هياء) تستمع لذلك الحوار بين الزهور وهي تحاول جاهدةً الهروب من أمامها، لكنها أدركت بعد برهة من الزمن أنها تعيش أحداث الكتاب الذي فتحته، وهذه المرة لم تنسَ كل شيء بالكامل. كانت تتذكر اسمها وتتذكر شكل (أمين)، وأنه هو من مد لها الكتاب، لكنها لم تستطع تذكر اسمه أو أي أحد من معارفها في القصر، غير أنها كانت تذكر بوضوح شديد وغريب حياتها في الكتاب الأول مع (عرندس)، وكانت مشتاقة له كثيراً. بعد دقائق هدأت (هياء) واعتدلت في وقفتها وانتصابها، وبدأت تنظر للزهور التي كانت تراقبها بتوجس لأنها كانت مائلة للأمام نحوها.

(هياء) بتوتر: كيف حالكن؟

(جوري) بامتعاض: هل هذه مزحة أخرى من مزحاتك السخيفة؟

(ياسمين) بقلق: هل أنتِ بخير يا (زنبق)؟

(هياء) وهي مرتبكة من الموقف الغريب وتحاول استيعابه والحفاظ على هدوئها ورباطة جأشها: نعم، نعم.. بخير يا سيدتي.

(ياسمين) وهي تعقد مياسمها وترجع للوراء قليلاً: سيدتك؟.. ماذا تعنين بسيدتك؟

(كادي) وهي تضحك وتهز بتلاتها: يبدو أنها استعادت عافيتها وعادت لمزاحها الأخرق مرة أخرى!

(فلة) بقلق: لا تفعلي ذلك مرة أخرى يا (زنبق)، لقد أرعبتنا.

(كادي): لا تضخمي الأمر يا (فلة).

(جوري) بتجهُّم لـ(كادي): لا تدافعي عنها أيتها السمينة فقط لأنها صديقتك!

(ياسمين) لـ(جوري): كلنا أصدقاء هنا ولا فرق بيننا.

(جوري): بل هناك فرق!.. أنا الأجمل والأزكى عبيراً بينكن، لذلك تحقدْن علي!

(كادي) بصوت مسموع للزهور التي حولها فقط: والأكثر جنوناً.

(جوري) بغضب: ماذا تقولين يا صاحبة المتاع المفلطح؟!

(كادي) بصوت مرتفع وعصبية شديدة: لا شيء يا صاحبة المتك القصير!

أخذت (جوري) شهقة قوية وقالت: ماذا؟!

(فلة) وهي تصرخ في الجميع: كفى!.. كفى!.. أي نوع من الزهور أنتن؟!

كانت (هياء) تراقب الأمر بخوف في بادئ الأمر، لكن عندما سمعت شهقة (جوري) ضحكت، مما دفع (جوري) للالتفات نحوها والصراخ فيها: أطبقي تويجك قبل أن أطبقه لكِ!

(كادي) وهي تحدث (هياء): لا تقلقي، لقد رأيت عاشقين بالأمس يتجولان بالقرب منا، وقد نُوفّق ويمران من هنا اليوم ويقتلعها ذلك العاشق لحبيبته ونرتاح من صياحها.

(جوري) بسخرية وغرور: على الأقل سأموت شهيدة للحب، ولن أكون عصارة في قنينة.

(ياسمين): وهل تحلم إحدانا أن تكون أريجاً يتعطر به الناس؟

(فلة) بإحباط: نحن في الأغلب نخاط في عقود فقط.

تجرأت (هياء) وشاركتهن الحديث وقالت: عن ماذا تتحدثن؟

(كادي): عمَّا نتحدث عنه كل يوم بالطبع.. أحلامنا.

(هياء): أحلامكن؟

(فلة): نعم.. هل نسيتِ حلمك؟

(هياء): حلمي؟

(جوري): نعم حلمك الذي لن يتحقق أبداً.

(كادي) بتجهُّم: أنتِ لا تعرفين ذلك!

(هياء): وما حلمي؟

(ياسمين): يبدو أن تظاهرك بالترنُّح قد أخل بذاكرتك.

(هياء) بتوتر: نعم يبدو كذلك.
(كادي): حلمك أن تكوني زهرة مجففة تعيش للأبد..

(هياء): وهل نبقى على قيد الحياة عندما نجف؟

(فلة): لا نعرف.. (بنفسج) فازت بذلك الحلم قبلك.

(هياء): (بنفسج) من؟

(كادي) باستغراب: هل هذه مزحة أخرى من مزحاتك؟

(هياء): لا.. يبدو أني فقدت ذاكرتي بالفعل عندما هبَّت تلك الريح.

(ياسمين) بتعجب: ألا تذكرين (نرجس)؟.. لقد كانت أعز صديقة لك.

(هياء): لا.. لا أذكرها.

(جوري): لا يوجد شيء يستحق التذكر؛ فتلك الزهرة المجنونة كانت حمقاء مثلك تماماً.

(كادي) موجهة كلامها لـ(هياء): لا تعيري كلامها أي اهتمام.

(هياء): هل كان حلمها مثل حلمي؟

(ياسمين): نعم وهو أن تُصبحا زهرتين مُجففتين معاً.

(هياء): وهل تملكن جميعكن الحلم نفسه؟

(كادي): لا.. لكل منا حلمه الخاص.

(هياء): ما أحلامكن؟

(جوري): أتمنى أن أكون في آخر أيامي هدية معشوق لمعشوقته.

(فلة): أتمنى أن يستخدم أريجي وعبقي في صناعة عطر جميل.

(كادي): أتمنى أن أكون قبلة للنحل يوماً، وأسهم في صناعة العسل ولو مرة واحدة.

(ياسمين): حلمي بسيط، وهو أن أكون هدية لمريض يحتضر أواسيه في آخر أيامه.

(جوري) بسخرية: كئيبة كما عهدناك يا (ياسمين).

(هياء): أحلامكن غريبة.

(كادي): لِمَ غريبة؟.. أنتِ تحلمين بأن تصبحي زهرة مجففة.

(هياء): هذا لم يكن حلمي قط.

(فلة) باستغراب: هل غيرتِ حلمك.

(هياء): أخبرتك بأنه لم يكن حلمي كي أغيره.

(جوري): ما حلمك إذاَ؟

(هياء): أنا؟

(ياسمين): نعم أنتِ.. ما حلمك؟

(هياء) بحزن: لا أعرف.. ربما بلقاء (عرندس) مرة أخرى.

(كادي): (عرندس)؟.. هل هذا نوع لا نعرفه من الزهور؟

(هياء) بارتباك: لا، لا.. اِنسين الأمر.

(فلة) ما بكِ يا (زنبق)؟ لا تبدين على طبيعتك اليوم!

(هياء) وهي تحاول تغيير الموضوع: كيف علمتن بما حل بها؟.. نحن هنا في وسط حقل شاسع ومحاطات بأعشاب طويلة، وبالكاد نرى الأفق.

(كادي) عمَّن تتحدثين؟

(هياء): عن صديقتي (بنفسج).. كيف علمتن أنها حققت حلمها وأصبحت زهرة مجففة كما كانت ترغب؟

صمتت الزهور جميعاً من كلام (هياء)، وكأنها قالت شيئاً غريباً أو محرماً لا يجوز الحديث عنه أو الخوض فيه، لكنها لم تأبه لصمتهن، وكررت سؤالها وقالت: لِمَ سكتن؟.. كيف عرفتن أنها حققت حلمها وتحولت لزهرة جافة؟

بعد صمت لم يدم طويلاً تحدثت (فلة) وقالت: من أنتِ؟

(هياء) باستغراب يخالطه بعض التوتر: أنا؟.. أنا صديقتكن (زنبق).

(جوري) بنبرة توجس واستنكار: (زنبق) لا تتحدث بهذه الطريقة وتنكر أحلامنا وتكذبها.

(هياء) بتوتر: أنا لم أكذبكن، أنا فقط كنت أتساءل..

(كادي) بغضب: أنتِ لستِ (زنبق)؛ فهي لا تهدم الأحلام كما تفعلين.. من أنتِ؟!

(هياء): الوهم لا يعتبر بناءً للأحلام؟

(ياسمين) بغضب: أين (زنبق)؟!

(هياء) بخوف: حسناً، حسناً.. اِنسين ما قلته للتو.. أنا آسفة.

لم يرد أحد منهن على (هياء) ودخلن في حالة من الصمت..

بعد مضي فترة من الهدوء حاولت (هياء) التحدث مع بقية الزهور، لكنهن لم يردُدْن عليها، ولم يُحرك أحد منهن ساكناً. غابت الشمس وعم المكانَ هدوءٌ أضيف

لهدوء وصمت الزهور، ولم يكن يُسمع في الجوار سوى صرير سيقان بعض الجنادب. بدأت (هياء) تشعر بالخوف من المكان الذي كانت فيه، خاصة بعدما تُركت

مــع أفكــارها وهواجســها وحــدها دون مــؤنس يتحـدث معـها. أحسـت بعـد سـاعات مـن التفكـير وحـدها بـالنعاس، وبـالرغم مـن أنـها لـم تكـن تسـتشعر عينيـها، فإنـها

وقعت في سبات عميق واستيقظت صباحاً على صوت حديث وحوار يدور بالقرب منها. ظنت في بادئ الأمر أن الزهور عُدن للحديث معها، لكنها رأتهن على حالهن

ولم يكن ذلك الحديث الذي تسمعه صادراً من أي أحد منهن، بل كان يأتي من فوقها. لم تستطع (هياء) رؤية المتحدثين، لكنها كانت تسمع الحوار بشكل واضح

وقد كان بين فتاة وشاب.

(الشاب): هل قررتِ أياً من تلك الزهور تريدين؟

(الفتاة): لا أعرف؛ فكلها جميلة.

(الشاب): قرري بسرعة، يجب أن نعود للكوخ؛ فالأغنام قد شربت كفايتها من النهر.

(الفتاة): سآخذها جميعها ما عدا تلك الزنبقة وأصنع منها باقة جميلة.

(الشاب) باستغراب: ولِمَ استثنيتِ تلك الزنبقة بالذات؟

(الفتاة): لا أعرف.. لا أراها جميلة كالبقية.

خــلال إنصــات (هيــاء) لــذلك الحــوار انتابــها شــعور غــريب بأنــها تعرفــهما، وأنــها ســمعت صــوت الشــاب بالــذات مــن قبـل، لكنـها لـم تسـتطع التـذكر بـالكامل. وخـلال

محاولتها التذكر شاهدت يد الشاب الضخمة وهي تقترب منها وتبدأ بقطف الزهور أمامها، واحدة تِلوَ الأخرى، حتى لم يتبقَّ منها واحدة، ورحل مع تلك الفتاة

التــي كــانت معــه. أحســت (هيــاء) بوحشــة قابضــة عنــدما خــلا المكــان مــن بقيـة الزهـور. كـان الـوقت لا يزال نـهاراً، لكـن ذلـك لـم يمنـع مشـاعر الخـوف والوحـدة مـن أن

تحاصرها، وتتمكن منها. بدأ نور السماء بالخفتان، وهو الأمر الذي استغربته (هياء)، فحاولت رفع نظرها للأعلى، فرأت أن الغيوم بدأت بالتجمع لتغطي السماء

بــالكامل وتحجــب معــها الشــمس ونورهــا. بعــد دقــائق قليلــة مــن هيمنــة الغــيوم وَمَضَت الســماء وبـدأ البـرق يتـراقص، لَحِقَه طـرق الرعـد الـمُزلزل، تبعـه هطـول قـوي

للأمطار. أحست (هياء) بانتعاش شديد مع كل قطرة نزلت على بتلاتها. كان إحساساً مختلفاً لم تجربه من قبل، وكأن روحاً جديدة تُبث فيها. أحست (هياء) بأمر

غريب يحدث لها خلال نزول المطر، وهو أنها لم تعد مربوطة بالأرض، وأنها تستطيع الارتفاع فوق مستوى الأعشاب حولها، وبعد بعض المحاولات بدأت ترتفع

أكثر وأكثر مبتعدة عن الأرض وهي ترى الزنبقة أسفل منها. عندما وصلت لكبد السماء لم تكن ترى جسدها، لكنها كانت ترى حولها بوضوح وكأن روحها خرجت،

وبدأت بالتجول بحرية. بإيماءة بسيطة للأمام استطاعت التقدم وبدأت تحلق، وكأنها طير يفترش بجناحيه السماء. وبعد تحليق بسيط رأت أسفل منها قطيعاً

من الأغنام تسير خلفه فتاة وشاب، فنزلت محاولة الاقتراب منهما، ومع اقترابها رأت الأزهار التي كانوا بصحبتها في قبضة الفتاة. استمرت (هياء) بالتحليق نزولاً

نحو الفتاة التي لم يكن وجهها ظاهراً لها، وكانت غايتها هي بلوغ الزهور في قبضتها، وقبل أن تصل إليهن توقف المطر، لتجد نفسها تصحو في مكانها وقطرات

الندى تقطر من بتلاتها وأشعة الشمس تداعبها مع تفرُّق الغيوم. كانت (هياء) في ذلك الوقت تحس بمشاعر متضاربة منعتها من التفكير بشكل سليم. كانت في

حالة من الانتشاء الغريب بددت أيَّ ذاكرة كانت تحملها من حياتها السابقة.

مضـــت الأيـــام وقضـــتها بصـــمت وســـكون بــين مــداعبات الريــاح، ودغــدغة بعــض الفراشــات مــن وقــت لآخــر. كــانت حياتــها هادئــة جــداً أوصــلتها لمرحلــة مــن الســكينة

والاندماج الروحي الذي لم تشهده من قبل. لم تكن تشعر بملل أو ضجر من تلك الحياة الرتيبة، بل كانت سعيدة جداً. تعكَّرَ صفو تلك الحياة عندما أحست بألم

حاد في ساقها أيقظها من سباتها في إحدى الليالي، لترى نفسها ترتفع بعيداً عن الأرض وتستقر أمام وجه شاب يحدق بها بوجه حزين. زال الألم الذي كانت تحس

به في ساقها، لكن حل محله ألم آخر عندما تعرفت إلى وجه ذلك الشاب الذي كان يُمعن النظر إليها. كان (عرندس) هو الشاب الذي يحدق بها، وكان في العمر

نفسه الذي التقت به أول مرة. حاولت الحديث معه، لكن صوتها لم يكن مسموعاً له، وبعد محاولات فاشلة لإيصال صوتها المشتاق لمسامعه، رفع يده ونزع

إحدى بتلاتها وهو يقول: تحبني..

صرخت (هياء) عندما نزع (عرندس) بتلتها لأنها أحست بألم شديد وكأن إحدى أذرعها قد انتُزعت..

مدَّ (عرندس) يده مرة أخرى ونزع بتلة أخرى وهو يقول: لا تحبني..

كان الألم لا يحتمل و(هياء) تصرخ وتستنجد وتستجدي (عرندس) بالتوقف عمَّا يقوم به، لكن استمر في نزع بقية البتلات وهو يقول مع كل بتلة ينتزعها: تحبني..

لا تحبني..

انتزع (عرندس) البتلة الأخيرة وهو يبتسم ويقول "تحبني"، ورمى ما تبقى من الزنبقة وعاد من حيث أتى تاركاً (هياء) على الأرض تتلوى وتئن من الألم، وهي تقول:

ألمي كان ثمناً زهيداً لرؤية تلك الابتسامة مرة أخرى..

برقت السماء وأرعدت، وهطل المطر بغزارة على تلك الزهرة المقطعة، لتجد (هياء) نفسها ترتفع وتحلق عن الأرض بهدوء، لكنها لم تقوَ على التحرك أو التقدم في

أي اتجاه؛ لأن الألم الذي أحست به سابقاً لا يزال مسيطراً عليها، فاستمرت بالارتفاع للأعلى حتى سمعت برقاً قوياً تبعه ضوء قوي وهج في وجهها، لتجد نفسها

واقفة مرة أخرى في غرفة المعيشة بمنزل (أمين)، وهي ممسكة بالكتاب الصغير في يدها و(حليمة) تقتحم المكان مع مجموعة من الحراس وتصرخ قائلة: أمسكوا

بذلك الرجل!

صَفَحات الألم وسطور الوجع

جرى الحراس نحو (أمين) الجالس على أريكته وأمسكوا به ورفعوه، وبدؤوا يسوقونه خارج منزله و(حليمة) تحاول معانقة (هياء)، التي لم تفِقْ بعدُ من صدمة

العودة من صفحات الكتاب الصغير، لكن رؤيتها لـ(أمين) وهو يُساق بمهانة أخرجتها سريعاً من حالتها لتدفع (حليمة) جانباً، وتصرخ في الحراس بالتوقف عن

جرِّه بتلك الطريقة وتركه فوراً.

(حليمة) باستغراب شديد: ماذا تفعلين يا سيدتي؟.. هذا الرجل مجرم ويجب أن يحاسب.

(هياء) وهي تصرخ في (حليمة): وبماذا أجرم؟!

(حليمة) بتعجب من انفعال (هياء): لقد..

(هياء) وهي تتجاهل (حليمة) وتوجه سخطها نحو الحراس الذين توقفوا عن السير، لكنهم لا يزالون ممسكين بذراعي (أمين) بإحكام: أتركوه يا حمقى!

ترك الحراس (أمين) الذي مسح ساعديه بوجه متجهِّم، وعاد سائراً نحو أريكته. وعند مروره بـ(هياء) قال لها بصوت خفيض مسموع لها فقط: هل يمكنكم المغادرة

من منزلي لو سمحتم؟

(هياء) بحزن واستياء: أنا آسفة يا..

(أمين) وهو يجلس على أريكته ويقاطع حديث (هياء): لا أريد اعتذارك، أريد فقط رحيلك مع أتباعك الذين اقتحموا منزلي.

(هياء) وهي تهز رأسها خجلاً: أمرك يا سيد (أمين).

التفتت (هياء) بنظرة سخط وغضب شديدة تجاه (حليمة) التي أحست بالخوف، وقالت للحراس وهي تسير نحوهم: هيا لنعُدْ للقصر.

خرج الجميع عدا (هياء) التي كانت لا تريد الرحيل دون أن تطمئن بأن (أمين) ليس غاضباً منها، فوقفت أمامه وهي تفرك يديها بقلق وتنظر إليه دون أن تتحدث.

كان (أمين) في ذلك الوقت ينظر للأرض بنظرة غريبة، وكأنه مصدوم مما حدث ثم قال: يبدو أني أخطأت..

(هياء) بقلق: أخطأت في ماذا؟

(أمين) وهو يرفع نظره لـ(هياء): في محاولة مشاركة كتبي معك.

(هياء) وهي تجلس على الأرض عند قدمَيْ (أمين) وتضع كفيها على ركبتيه وتقول بحزن يخالطه بعض الدموع: أرجوك، لا تقل ذلك!.. لقد منحتني حياة ومشاعر

جديدة لم أحلم يوماً بالإحساس بها!

(أمين): أهلك وجماعتك لن يسمحوا لكِ بأن تعيشي حياة أخرى ولو من خلال كتاب.

(هياء) وهي تدمع وتستجدي: لا عليك منهم، أنا سوف أتولى التعامل معهم، لكن لا تحرمني كتبَك.

(أمين) وهو يبتسم: ما الذي تغيّر بكِ؟.. لستِ مستاءة كما كنتِ في المرة السابقة عندما قرأتِ الكتاب الأول.

(هياء) وهي تمسح دموعها وتبتسم: لقد أحببتُ هذا الكتاب كثيراً بالرغم من الألم الذي أحسست به خلال قراءته.

(أمين) مبتسماً وهو يشير للكتاب الصغير على الأرض: أحضريه كي أعيده لمكانه في الرف.

حَبَتْ (هياء) على ركبتيها وأمسكت بالكتاب، ثم استدارت وعادت حبواً تجاه (أمين) ومدت له الكتاب الذي أخذه بيد، وباليد الأخرى مسح على رأسها مبتسماً وهو

يقول: عودي للمنزل الآن.

(هياء) بوجه متحمس وصارم: أريد كتاباً آخر!

(أمين): لكل شيء وقته.. ارتاحي أولاً من هذا الكتاب.

(هياء) وهي لا تزال جالسة على ركبتيها: لم أمضِ سوى أيامٍ قلائِل في هذا الكتاب.

(أمين) وهو يبتسم وينظر للكتاب في يده قائلاً: حياة الزهور قصيرة..

(هياء): ما اسم الكتاب؟

لف (أمين) الكتاب نحو (هياء) لتقرأ عنوانه "أحلام الزهور"..

ابتسمت (هياء) وهي تقرأ العنوان قائلة: كان كتاباً جميلاً بالرغم من قِصَره.

(أمين) وهو ينهض: عودي الآن للمنزل.

(هياء) وهي تقف وتقول بقلق: لكني أريد كتاباً آخر.

(أمين) وهو يغمض عينيه ويزفر: يجب أن تتعلمي كيف توازنين بين حياتك والكتب.

(هياء) وهي متوترة: سأفعل!.. سأفعل!.. لكن أريد كتاباً آخر.. لا أريد العودة لحياتي الكئيبة الآن.

(أمين) وهو يلتفت إلى (هياء) ويضع يده على كتفها: لا يمكنك الهروب من حياتك للأبد.. يجب أن تبحثي فيها عن شيء يستحق البقاء.

(هياء) وهي تحدق بعينيْ (أمين): أرجوك..

(أمين): حسناً.. اتبعيني.

مشى (أمين) نحو باب السرداب و(هياء) تتبعه، ونزل الاثنان عبر السلالم المظلمة. وعند وصولهما للأسفل أشعل (أمين) بعض الشموع التي أنارت المكان، ثم أشار

لـ(هياء) بالجلوس على الكنبة الجلدية فجلست وهي تبتسم بحماس وتقول: أريد كتاباً شائقاً!

(أمين) وهو يتفحص الرفوف بنظره: ما رأيكِ لو تُجربين شيئاً مختلفاً؟

(هياء) والحماس يفيض منها: لا بأس أي شيء!

سحب (أمين) كتاباً أسود، ووضعه على المنضدة المقابلة لـ(هياء) وهو يقول: جربي هذا الكتاب..

(هياء) وهي تلتقط الكتاب بسرعة وتنظر لعنوانه بشغف بابتسامة عريضة وتقرؤه: "العجز".

تغيرت ملامح (هياء) بعد قراءة العنوان وتحولت للتساؤل بشيء من القلق وقالت: العنوان غير مريح يا سيد (أمين).

(أمين): هل تريدين تغيير الكتاب؟

(هياء) وهي تضع الكتاب في حجرها وتنظر لـ(أمين): لا لكن..

(أمين): لا تقلقي، الكتاب جميل..

(هياء): هل لديك كتب غير جميلة لتقول إن هذا الكتاب جميل؟

(أمين) وهو يضحك: سؤال وجيه.. أنا أرى أن كل كتاب مهما كان محتواه يحمل شيئاً من الجمال، لكن رؤية هذا الجمال تعود للقارئ.

(هياء): صحيح أنني لست محبة للقراءة، لكني أسمع أن هناك كتباً تافهة وسيئة وخالية من أي جمال.

(أمين): وما تعريف الجمال من وجهة نظرك؟

(هياء): الجمال هو كل شيء يُدخل الفرح والسرور على قلوبنا من مجرد النظر إليه..

(أمين): لقد عرّفتِ الجمال السطحي فقط.

(هياء): ماذا تقصد؟

(أمين) وهو يومئ بنظره للكتاب في حجرها: هل أدخل هذا الكتاب الفرح والسرور في قلبك؟

(هياء) وهي تنظر للكتاب في حجرها: في البداية كنت مسرورة للحصول عليه، لكن بعد قراءة عنوانه لا أعرف.. تحولت سعادتي لحيرة وقلق.

(أمين): لماذا؟

(هياء) وهي توجه نظرها لـ(أمين): لماذا ماذا؟

(أمين): لِمَ تغيرت مشاعرك فجأة نحو الكتاب بعدما كانت سعادة إلى شيء آخر؟!

(هياء) وهي تعيد نظرها للكتاب وتحديداً لعنوانه: ربما بسبب العنوان..

(أمين) مبتسماً: العنوان لا دخل له بالموضوع.

(هياء) وهي ترفع نظرها لـ(أمين): الكتاب يُعرَف من عنوانه كما يقول المثل الشائع.

(أمين): لقد سمحتِ لغيرك بأن يفكر عنك..

(هياء): ماذا تقصد؟

(أمين): أقصد أنكِ وصلتِ لقناعة من خلال أقوال الناس وليس من تجربتك الخاصة..

(هياء): الاستعانة بآراء الناس تختصر عليك الكثير من الوقت والمعاناة.

(أمين): هل تستعينين بآراء الناس في اختيار ملابسك؟

(هياء): شخصياً لا، لكن أعرف الكثير ممن يقوم بذلك.

(أمين): أنا أتحدث عنكِ أنتِ.

(هياء): أنا لا، أبداً، لا أثق برأي الناس في الملابس وخصوصاً الأحذية.

(أمين): ما الفرق؟.. لِمَ وثقتِ بآرائهم في ما يتعلق بالكتب وليس الملابس؟

(هياء): لأني لا أعرف شيئاً عن الكتب، لكني أعرف الكثير عن الملابس؛ لذا يمكنني تحديد ما يناسبني بنفسي دون الحاجة للإصغاء لرأي الغير.

(أمين): وكيف وصلتِ لهذه المرحلة من الإلمام بما يناسبك من الملابس والأحذية؟ هل ولدتِ هكذا؟

(هياء) وهي تبتسم: لا.. بالتجربة.

(أمين): إذاً، اِجعلي من تجاربك الخاصة أساساً للحكم على الأشياء دون غيرها.

(هياء): هل تعني أن رأي الناس غير مهم؟

(أمين): رأيهم السلبي نعم، فالانقياد وراء الأذواق العامة قد يحرمك الكثير.. لا مانع أن يكون لكِ أشخاص بحياتك تأخذين برأيهم من باب الاستشارة، لكن أن

تجعلي الذوق العام بوصلتك فهذا أمر لا أتفق معه نهائياً، خاصة لشخصية مميزة واستثنائية مثلك.

(هياء) وهي تبتسم بسعادة كبيرة: هل تظن حقاً أني مميزة واستثنائية؟

(أمين) وهو يتوجه نحو السلم باسماَ: نعم، وسوف تصبحين شيئاَ عظيماَ عندما تكبرين.

(هياء) بقلق: إلى أين أنت ذاهب؟

(أمين) وهو يصعد السلم للطابق العلوي: عندما تنتهين من الكتاب، اِلحقِيْ بي فسوف أعد لكِ كوباً من القهوة.

(هياء) تراقب قدمَيْ (أمين) وهما تختفيان صعوداً وتبتسم: قهوة في الليل؟

(أمين) من الأعلى: لا تتقيدي بالذوق العام كما أخبرتك.

(هياء) وهي تمسك الكتاب وتستعد لفتحه: لنَرَ ما الذي يحتويه هذا الكتاب..

فتحت الكتاب وخرج منه وهج قوي..

بعد ثوانٍ قليلة في ذلك الوهج وجدت (هياء) نفسها تقف في مطبخ واسع وكبير تلبس زياً ذكّرها بلباس الخادمات اللاتي كُنَّ يعملن في قصر والدها. بقيت تتفحص

المكان بنظرها دون حراك، ورأت أن الوقت كان ليلاً من خلال النافذة التي كانت أمامها. استمرت بالنظر حولها حتى دخلت عليها امرأة تلبس زياً مشابهاً لزيها،

وتوجهت نحو بعض الأواني وهي تتحدث وتُوجّه الكلام لـ(هياء) وتقول: ما بكِ واقفة هكذا، لقد حان موعد تحضير مائدة العشاء للسيد الكبير!.. هيا ساعديني!

تحركت (هياء) تجاه تلك السيدة بارتباك، ووقفت بجانبها وهي ترفع بعض الصحون والكؤوس فنهرتها وقالت: لِمَ تحملقين بي هكذا؟!.. هيا عاونيني!

(هياء) بارتباك: ماذا تريدين مني أن أفعل؟

وضعت المرأة ما كان بيدها والتفتت إلى (هياء) وقالت: هل سنبدأ بالغباء منذ اليوم الأول؟.. لم يمضِ على تعيينك هنا ساعتان، وخلالهما نسيتِ كل ما أخبرتك به!

(هياء) وهي تائهة: أنا آسفة.. أخبريني فقط ماذا تريدين مني يا سيدتي؟

(المرأة): أنا لست بسيدتك أنا زميلتك (حسينة) كما أخبرتك سابقاً، ونحن المسؤولتان في القصر ليلاً، ومهمتنا الآن إعداد مائدة العشاء قبل أن يغضب السيد الكبير.

(هياء) بتوتر: حسناً، حسناً.. هل آخذ هذه الصحون والكؤوس للمائدة؟

(حسينة) وهي تنظر لـ(هياء) بتعجب: إذا سمحتِ!

(هياء) وهي تحمل الصحون والكؤوس: سوف آخذها فوراً.

حملت (هياء) ما طلب منها وخرجت من المطبخ، لكنها توقفت في الممر الكبير والمتفرع الذي ظهر أمامها، وكانت في حيرة نحو أي اتجاه يجب أن تسلك، وخلال

وقوفها نَهَرَتها (حسينة) من خلفها للتحرك، فأوقعت ما كان بيدها من صحون وكؤوس ليتحطم معظمها.

وقفــت (هيــاء) وقِطَع الزجـاج تحتـها ومتنـاثرة حولـها وهـي تحـدق بـ(حسينة) التـي كـانت غاضـبة فـي بـادئ الأمـر، لكـن غضـبها تحـول لـهدوء وابتسـامة خفيفـة أتبعتـها

بقول: لا بأس يا ابنتي.. نظفي المكان وعودي للمطبخ وأنا سأُعِد المائدة وحدي.

(هياء): أنا آسفة.

(حسينة) وهي تمسك بصينية كبيرة بين يديها: لا تقلقي، فقط نظفي المكان.

(هياء) وهي تنزل على ركبتيها وتبدأ بجمع قطع الزجاج المكسور: حاضر.

(حسينة) وهي تسير مبتعدة عنها: حاذري كي لا تجرح قِطَع الزجاج ركبتيكِ الجميلتين.

(هياء) ترفع نظرها لـ(حسينة) بتعجب من تعليقها الغريب..

بعدما نظفت (هياء) المكان عادت للمطبخ، وجلست على أحد الكراسي تنتظر عودة (حسينة)، ولكنها تأخرت كثيراً بعدما أخذت كل ما تريد لإعداد المائدة. بعد ما

يُقــارب الســاعة غفــت عينــاها وهــي علـى الكرسـي ولـم تشـعر بـالوقت حتـى أحسـت بأحـدٍ يـهزُّ كتفـها ويوقظـها، ففتحـت عينـها لتـرى (حسـينة) أمامـها وهـي تقـول: هيـا

لتغسلي الصحون.

نهضت (هياء) ودعكت النعاس من عينيها وتوجهت للأطباق والأواني المتراكمة، وبدأت تغسلها و(حسينة) جالسة خلفها تشعل سيجارة.

(حسينة) وهي تنفخ سحابة من الدخان: من أين أنتِ؟

(هياء) بارتباك: ماذا تعنين؟

(حسينة) بعصبية: ماذا تقصدين بماذا أعني؟.. من أين أنتِ؟.. من أي بلد؟.. من أي قرية؟.. من أي جحيم؟

(هياء) وهي تجفف بعض الكؤوس: من هنا؟

(حسينة): من مدينتنا؟

(هياء) وهي ترفع بعض الصحون على المنشر: نعم.. نعم..

(حسينة) وهي تنفخ سحابة أخرى من الدخان: غريبة.. الرجل الذي أحضرك للعمل هنا لا يبدو من سكان المدينة.. كان يبدو قروياً على أكثر تقدير.

(هياء) وهي تمسح يديها في مئزرها: لقد انتهيتُ.. هل تأمرينني بشيء آخر؟

(حسينة) وهي تطفئ السيجارة في قاع حذائها: نعم.. اسحبي كرسياً واجلسي أمامي.

نفذت (هياء) ما طلبته منها. وبعد جلوسها قالت لها: اِسمعي يا فتاة.. العمل هنا سهل ومريح والأجر مُجزٍ كما تعلمين، لكن يجب أن تعرفي مع مَنْ نعمل، وما الذي يجب علينا القيام به كي يكون راضياً عنا.

(هياء) بتوتر: هل العمل كخادمة في هذا المكان يتطلب الكثير منا؟

(حسينة): المهم هو إرضاء السيد الكبير.

(هياء) بتوجس: إرضاؤه إلى أي حد؟

(حسينة): ماذا تقصدين؟

(هياء): أقصد أنه يبدو شخصاً غير مريح من حديثك عنه.

(حسينة) بتجهُّم: وما شأنك إذا كان مريحاً أو لا؟!.. المهم أن تقومي بعملك فقط.

(هياء): وما عملي تحديداً؟

(حسينة) وهي تشعل سيجارة أخرى: ألم يخبرك الرجل الذي أحضرك إلى هنا بطبيعة عملك.

(هياء): أخبرني أني سأكون خادمة فقط.

(حسينة) وهي تنفخ سحابة من الدخان: خادمة؟.. ما هذا المصطلح المهين؟.. أنتِ مدبرة منزل.

(هياء): أياً كان المسمى فالمهام واحدة.

(حسينة): لكن هناك مهام إضافية مطلوبة منكِ.

(هياء) بتجهُّم: مهام مثل ماذا؟

(حسينة) وهي تطرق رأس سيجارتها بسبابتها وتنظر للأرض: كما أخبرتك سابقاً؛ فإن السيد الكبير رجل عجوز.. فاحش الثراء.. يسكن هنا وحده بعدما تركه أبناؤه

ليشقوا طريقهم في الحياة، ويمنُّون عليه بزيارة أو اثنتين في الأعياد، وبعضهم لا يلبي تلك المناسبات أحياناً.

(هياء): رجل عجوز؟

(حسينة): نعم والقصر في الأغلب هادئ وخالٍ من الأصوات، ولا يكسر الصمتَ في مساحته الشاسعة شيءٌ إلا صوت العاملين به من وقت لآخر خلال أعمالهم

اليومية من تنظيف وغيره، وينتهي ذلك الصخب المحبب لقلب سيدنا العجوز مع إشعال الشموع على مائدة العشاء قبل رحيلهم جميعاً للعودة في صباح اليوم

التالي ولا يبقى في خدمته سوانا.

(هياء): ولِمَ يحتاج إلينا ليلاً؟

(حسينة) وهي تنفخ سحابة من الدخان في وجه (هياء): الرجل كان عصامياً ويكره الاعتماد على غيره في القيام بأعماله والعناية بنفسه، لكن تقدمه في السن

والمرض الذي طوق جسده أرغماه على اللجوء لمن يساعده في تلك الأمور.

(هياء): ما زلتُ لا أفهم ما المطلوب مني؟

(حسينة) وهي تطفئ السيجارة تحت حذائها: المطلوب منكِ هو تلبية أي طلب يطلبه منك خلال وجودك هنا.. عملك ينتهي مع شروق الشمس ويبدأ مرة أخرى مع

غروبها.

(هياء): ألا ينام هذا الرجل؟

(حسينة) وهي تنهض من أمام (هياء): بلى، لكنه إذا احتاج شيئاً فسوف يناديك.

(هياء): المكان كبير.. كيف سأسمع صوته.

(حسينة) وهي تشير لجرس على الجدار: عندما يدق هذا الجرس فهذا يعني أنه يحتاجك.

(هياء): ماذا عنكِ؟

(حسينة): ماذا عني؟

(هياء): ألن تكوني موجودة معي؟

(حسـينة): أنـا أشـارك فـي الأعمـال الصـباحية والمسـؤولة عـن إعـداد الإفطـار لـه، فـهو لا يسـمح لغـيري بـذلك، لـذلك فسـاعات عملـي تنتـهي مـع بـدء سـاعات عملـك،

ووجودي اليوم معك هو فقط كي أتأكد من أنكِ فهمتِ كل شيء.

(هياء) بتوتر: لكني لم أفهم شيئاً.

(حسينة) وهي تهم بالخروج من المطبخ: لا تقلقي، ستكونين على ما يرام.

(هياء) بقلق: إلى أين؟!

(حسينة): سأنام بالطبع.

(هياء): هل أنتِ مقيمة هنا؟

(حسينة) وهي تبتسم: غرفتي في آخر الممر.. إذا احتجتِ شيئاً، فلا تطرقي الباب لأني لن أرد!

خرجت (حسينة) وتركت (هياء) في حالة من الحيرة والقلق. نظرت للساعة التي كانت في المطبخ ورأت أنها تشير للعاشرة، وأن الوقت لا يزال مبكراً على شروق

الشمس وانتهاء فترة عملها، وخلال حيرتها وتفكيرها رنَّ الجرس بقوة وقد كان أشبه بجرس المدارس الذي يشير لانتهاء أو بدء الحصص الدراسية. نهضت (هياء)

مفزوعة من صوت الجرس، وخرجت جرياً من المطبخ وبدأت تسير في الممر الكبير الذي انتشرت عبر جوانبه أبوابٌ كثيرة لم تعرف أياً منها كان الرجل العجوز قابعاً

خلفــها، وبعــد جــري طويـل وصـلت لنـهاية الممـر وخـرجت لغرفـة معيشـة كبـيرة مَلأى بـالتحف الجميلـة التـي أبـهرتها واسـتوقفتها لثـوانٍ قبـل أن تسـمع نـداءً يـأتي مـن

إحدى الغرف الكبيرة المتفرعة من غرفة المعيشة: (حسينة)!.. أين أنتِ؟!

توجــهت (هيــاء) جريــاً نحــو البــاب الخشــبي الضــخم الــذي أتــى مــن خلفـه الصـوت وفتحتـه دون أن تطـرق البـاب، لتـرى كـهلاً عجـوزاً يجلـس علـى طاولـة فخمـة وكبـيرة

وحولــه تحــف لا تحصــى مصــفوفة علــى رفــوف خشــبية منقوشــة ومنحوتـة ببراعـة وحِرَفـيّة عاليـة. نظـر العجـوز لــ(هياء) بتجـهُّم وقـال بغضـب شـديد: مـن أنـتِ؟!.. أيـن

(حسينة)؟!

(هياء) وهي تحني رأسها وتقول بخوف: (حسينة) نائمة يا سيدي.. هل أستطيع أن أخدمك بشيء؟

(العجوز) بغضب وصوت مرتفع: أين (حسينة)؟!

(هياء) بتوتر وقلق: (حسينة) نائـ..

قاطع العجوز (هياء) برمي حجرٍ رخامي كان على طاولته يستخدمه كمثبت للأوراق وهو يصرخ ويقول: هل تظنين أني خَرِف ولم أسمعك؟!

(هياء) وهي تتجنب الحجر وتقول ورأسها للأرض: لا، أبداً يا سيدي العفو.

صمت العجوز وبدأ يحدق بـ(هياء) بحدة ثم قال: هل تجيدين إعداد القهوة؟

(هياء): سأحاول يا سيدي.

(العجوز) بتجهُّم: لِمَ عيَّنت (حسينة) خادمة غبية لا تجيد حتى إعداد كوب بسيط من القهوة؟!

(هياء) وهي ترفع نظرها للعجوز: هل تأمرني بشيء آخر يا سيدي؟

(العجوز): وما الفائدة وأنتِ لا تُجيدين شيئاً؟

لم ترد (هياء) واكتفت بالصمت..

(العجوز) وهو يشير بيده لها بالخروج: اذهبي وأغلقي الباب خلفك..

(هياء) وهي تمد ذراعيها وتمسك بمقابض الباب الخشبي الكبير وترجع للوراء وتسحبهما لإغلاقه: أمرك.

قبل أن تغلق (هياء) الباب أحسَّت بشخص يمسكها من الخلف، وقبل أن تصرخ مستنجدة أطبق على فمها وتقدم للأمام نحو العجوز وأغلق الباب خلفه بقدمه.

(العجوز) وهو مفزوع مما رأى: من أنت؟! وماذا تريد؟!

لم يرد الرجل على العجوز، لكنه شدَّ ساعدي (هياء) خلف ظهرها وربطها ورمى بها في إحدى زوايا الغرفة، وبدأ بتقليب الأثاث وفتح الدواليب بعنف أخاف العجوز

الذي صرخ وقال: توقف!.. ماذا تفعل؟!

التفت الرجل الذي كان رثّ الملبس والمظهر إلى العجوز ورمقه بنظرة غاضبة أخافته، ولم يلحق أن يبلع ريقه حتى وجد عنقه في قبضة ذلك الرجل الأهوج يشدها

ويهزُّها قائلاً: أين تخبئ الأموال؟!

(العجوز) وهو يبحث عن النفس: عن أي أموال تتحدث؟!

(الرجل): لا تراوغ أيها العجوز الخرف. أعرفُ أنك غني جداً؛ فلا يسكن في مثل هذا القصر رجل فقير!

(العجوز) وهو يحاول تخليص عنقه من قبضة الرجل: اتركني، سأختنق!

أفلت الرجل خناق العجوز وجلس في الجهة المقابلة له على تلك الطاولة الكبيرة، وقبل جلوسه أشعل سيجارة وقال وهو ينفخ الدخان بهدوء: أين تخبئ أموالك؟

استعاد العجوز أنفاسه ونظر للرجل وقال: هل أتيت لتسرقني؟

(الرجل) وهو يضرب بقبضته على الطاولة ويصرخ في العجوز بصوت مرتفع: لا تهدر وقتي بهذه الأسئلة الغبية!

كـانت (هيـاء) خـلال ذلـك تـراقب مـا يحـدث بـرعب شـديد وهـي فـي زاويـة الغرفـة، ولـم تملـك الشـجاعة للـوقوف والـهروب مـن المكـان، خاصـة أنـها كـانت مقيـدة وبـاب

الغرفة مغلق وأي محاولة منها لفتحه وهي بتلك الحالة سوف تنكشف وقد تعرض حياتها للخطر؛ لذا اكتفت بالصمت ومراقبة ما يحدث بهدوء.

(الرجل) بغضب: هل سأنتظر طويلاً أيها العجوز؟!

(العجوز) يبتسم ويُصلح هندامه الذي تعكر بسبب قبضة ذلك الرجل لعنقه: يبدو أنك أحمق..

(الرجل) وهو يصرخ بقوة: سأمهلك دقيقة واحدة فقط! إما أن تدلني على مكان الأموال أو أقتلك أنت وتلك الخادمة، وعندها سنرى من الأحمق!

مدَّ العجوز يده نحو قلم فضي كان أمامه وبدأ يكتب بهدوء..

(الرجل) بعينين متفحصتين لِمَا كان يكتبه العجوز: هل ترسم خريطة لمكان الأموال؟

(العجوز) وعيناه على ما كان يكتب: هل تظن أنك أتيت لسرقة قرصان؟

(الرجل) بغضب: سيكون هذا القلم في صدرك بعد قليل!

(العجوز) وهو يكتب دون أن يرفع نظره باتجاه الرجل: اسمع..

(الرجل) بغضب: ماذا تريد؟!

(العجوز): هل تظن أنني جمعت هذه الثروة بالصراخ بغباء مثلك؟

(الرجل) بصوت غاضب ومرتفع: هل تنعتني بالغبي أيها الهالك؟!

(العجوز) بكل هدوء وهو يضع القلم جانباً: أنت في عداد الموتى؛ لأن المنزل بأكمله مزود بكاميرات قامت بتصوير شكلك وما قمت به منذ دخولك هنا بالكامل.

(الرجل) بسخرية: لا أكترث!.. وبما أني سأدخل السجن على أي حال سوف أقتلك

قبلها لأشفي غليلي!

(العجوز) بهدوء وهو يعقد أصابعه ويحدق بالرجل: ولن تلحق بالقيام بذلك أيضاً..

(الرجل) باستغراب: ماذا تقصد؟

(العجوز) وهو يدخل إحدى يديه تحت الطاولة: هناك مسدس موجه لبطنك الآن ولو تحركت فسأفرغه فيك.

(الرجل) بتوتر: أنت كاذب وتحاول خداعي!

(العجوز) وهو ينظر بثقة في عيني الرجل: جرِّب حظك..

صمت الرجل لبرهة وهو يُحدق في عيني العجوز الواثقتين، وفي يده المختبئة تحت الطاولة ثم قال: هل يمكنني الرحيل..؟

(العجوز) بلا تردد: لا..

(الرجل) وقد بدا عليه القلق والتوتر: لماذا؟ لم أعُدْ أريد مالك؟.. أريد أن أرحل فقط.

(العجوز): لقد اخترقت حرمة منزلي، ويجب أن تدفع الثمن ولن يحاسبني أحد على قتلك، بل على العكس قد أصبح بطلاً.

(الرجل) وقد بدأ بالبكاء: أرجوك، لا أريد الموت!.. أرجوك!

(العجوز) مبتسماً بتهكم: اُخرج من هنا ولا تعُدْ أبداً..

نهض الرجل بسرعة من كرسيه الذي سقط خلفه بسبب سرعة قيامه وتوجه

للباب، وقبل أن يخرج صرخ فيه العجوز: توقف!

توقف الرجل مذعوراً والتفت إلى العجوز ببطء..

صمت العجوز ثم رمى بالقلم الفضي الذي كان يكتب به سابقاً تحت قدمَيْ الرجل وقال: خذ هذا القلم معك، فلا أحد يخرج من منزلي خاوي اليدين.. ثمنه لا بأس به وقد يكون بالنسبة لحقير مثلك ثروة بالنظر لحالك.. اُخرج الآن!

التقط الرجل القلم ثم خرج وأغلق الباب خلفه بقوة..

(العجوز) وهو ينظر لـ(هياء): هل أنتِ بخير؟

(هياء) تهز رأسها بالموافقة وهي مصدومة مما حدث..

بعدها بدقائق دخلت (حسينة) عليهما وهي متوترة ومرتبكة وتقول: ظننتُ أني سمعت باب القصر يغلق.. هل حدث شيء يا سيدي؟!

(العجوز) بغضب: أين كنتِ؟!

(حسينة): كنت نائمة يا سيدي.

(العجوز) بصوت عالٍ: أنتِ مفصولة!

ابتسمت (حسينة) وقالت: وما الجديد يا سيدي أنت تفصلني كل يوم؟

(العجوز) وهو يبتسم: خذيني لغرفتي إذاً. أريد أن أنام..

تقدمت (حسينة) نحو الرجل العجوز الجالس خلف مكتبه، وخلال سيرها رأت (هياء) في زاوية الغرفة فقالت: ما الذي تفعلينه هنا؟

(العجوز) متداركاً نفسه: لقد نسيت أمرها.. حلي وثاقها.

(حسينة) باستغراب: وثاقها؟.. من الذي ربطها؟

(العجوز): يمكنكما الثرثرة في الموضوع لاحقاً في المطبخ. أما الآن فحُلي وثاقها فقط كي أذهب للنوم.

توجهت (حسينة) لـ(هياء) وحلت وثاقها وهي تهمس في أذنها وتقول: ما الذي حدث هنا؟

(العجوز) بتجهُّم: (حسينة)!.. دعي الفضول عنك الآن. هيا، أريد أن أنام!

توجهت (حسينة) للرجل العجوز و(هياء) ترقبها باستغراب لإصرار الرجل العجوز أن تأتي إليه قبل ذهابه للنوم، لكن استغرابها تبدد وتحول لصدمة عندما رأتها

تستقر خلفه وتمسك بالكرسي الذي كان يجلس عليه وتسحبه للخلف لتظهر عجلاته أسفل منه. كان الرجل العجوز مشلولاً والكرسي الذي كان يجلس عليه ما

هو إلا كرسيه المتحرك.

دفعت (حسينة) الكرسي متوجهة نحو الباب، وقبل خروجهما قال العجوز:

(حسينة).. أخبري السائق غداً بأن يركب كاميرات للمراقبة في كل غرف ومداخل القصر، وأخبريه أيضاً بأني أريد اقتناء مسدس.

(حسينة): حاضر يا سيدي.

(هياء) وهي مندهشة لما تراه أمامها: ماذا عني؟

(حسينة) وهي تلتفت إليها خلال خروجها من المكتب مع العجوز: رتبي المكان واذهبي للمطبخ.

بدأت (هياء) بترتيب الفوضى التي تسبب فيها الرجل، وخلال ترتيبها لمحت شيئاً مألوفاً على طاولة الرجل العجوز، فتوجهت نحوها ووقفت حيث كان يجلس،

ورأت زهرة بنفسجية جافة على سطح الطاولة، فأحست بشعور غريب عند رؤيتها. أمسكت بها واستنشقتها فخرج منها وميضُ نور قوي استمر لثوانٍ قصيرة،

لتجد نفسها على الكنبة الجلدية في سرداب (أمين) الذي كان يقول بصوت مرتفع من الطابق العلوي: كم قطعة من السكر تريدين في قهوتك؟!

هذه حياتي وسأعيشها كما أريد

نهضت (هياء) من مكانها وصعدت للطابق العلوي حيث كان (أمين) يُعد كوبين من القهوة، فاقتربت منه وقالت: الكتاب كان غريباً..

(أمين) وهو يمد كوب القهوة لها: لم أعرف كم ملعقة من السكر تفضلين فوضعتُ واحدة فقط.

(هياء) وهي تمسك بكوب القهوة وتستنشقه: رائحتها زكية.

(أمين) وهو يجلس على الكنبة ويلبس نظارته الصغيرة: اشربيها قبل أن تبرد.

(هياء) وهي تجلس على الأريكة المقابلة لـ(أمين) وتحتضن بيديها كوب القهوة: هذا الكتاب لم يكن كالكتب السابقة.

(أمين): كل كتاب يختلف عن الآخر.

(هياء): لا، لا.. أقصد أن أحداثه كانت متسارعة ومختصرة.. لم أمضِ بضع ساعات فيه.

(أمين): لا تركزي على المدة وركزي على الفائدة.

(هياء): وكيف أستخلص فائدة مما حدث معي في ذلك الكتاب؟

(أمين): وكيف لي أن أعرف ما حدث لكِ؟

(هياء): ألم تقرأ هذا الكتاب من قبل؟

(أمين): بلى، لكن هذه الكتب تعطي تجربة مختلفة لكل قارئ، لكن بالمضمون نفسه.

(هياء): ما الذي حدث لك عندما قرأت هذا الكتاب بالذات؟

(أمين) وهو يرفع سبابته ويأخذ رشفة من قهوته: لا يجب أن نتحدث في هذه الأمور.

(هياء) بتعجب: لِمَ؟ ما الضير في ذلك؟

(أمين): اعتبريها قاعدة يجب ألا تكسر.. لا تناقشي تجاربك في أي من هذه الكتب مع شخص آخر.

(هياء): ما زلتُ لا أفهم السبب.

(أمين): ثقي بي..

(هياء): حسناً.. ماذا سأقرأ الآن؟

(أمين) وهو يأخذ رشفة من قهوته: اِسمعيني يا (هياء).. أنا سعيد بشغفك الجديد للقراءة، لكن الأمر بدأ يخرج عن السيطرة.

(هياء) باستغراب: ماذا تقصد؟

(أمين) وهو يضع كوب القهوة على المنضدة: أقصد أن هذا الشغف بدأ يؤثر في

حياتك.

(هياء): لا تهمني حياتي ما دمت سأعيش بين تلك الكتب.

(أمين): لن تستمتعي بها ما دمتِ تستخدمينها للهروب من واقعك بهذا الشكل.

(هياء): ألم تقل إن الكتب حياة أخرى؟

(أمين): لكن لم أقل إنها بديل عن حياتنا الحقيقية.. من هم حولك لهم حق عليك، ولن يعجبهم هذا التغيّر الذي طرأ عليك مهما حاولتِ أن تشرحي لهم.

(هياء): ألهذا السبب تعيش وحدك؟

(أمين) وهو يبتسم: ركزي على حياتك أنتِ فقط.

(هياء) وهي تضع كوب القهوة أمامها: ماذا تريد مني أن أفعل؟

(أمين): أن تنسقي الأمور في منزلك ومع أهلك كي لا تصبح القراءة سبباً يعكر صفو حياتك، ومن ثَمّ حياة من حولك، وخاصة ممن يهتمون لأمرك.

(هياء): لا شأن لأحد بحياتي.

(أمين): عندما تستقلين بها يمكنك أن تفعلي ما تريدين، لكن في الوقت الحالي الأمر مختلف وليس بيدك.

(هياء): هل تعني أنك لن تعيرني كتاباً آخر لأقرَأه بعد الآن؟

(أمين): أنا لم أقل ذلك، لكن سوف نقنن.. في البداية على الأقل.

(هياء): كيف؟

(أمين): سوف أربط كل كتاب تقرئينه بمهمة تقومين بها.

(هياء): ما زلتُ لا أفهم قصدك.

(أمين): سوف أعطيك كتاباً تقرئينه عندما تُنهين خلافك مع تلك السيدة التي اقتحمت منزلي مع الرجال آنفاً.

(هياء): (حليمة)؟

(أمين): نعم.

(هياء): هل تريد مني معاقبتها على ما فعلته؟

(أمين) بتعجب: معاقبتها؟.. تلك السيدة تصرفت من دافع حبها لكِ وأنتِ تريدين معاقبتها؟.. أي عقل تملكين؟

(هياء): ماذا إذاً؟

(أمين) وهو يزفر: فقط طمئنيها بأنك على ما يُرام.

(هياء) وهي تنهض وتتوجه نحو باب الخروج: حسناً.

(أمين): (هياء)..

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين) من عند الباب: نعم؟

(أمين) مبتسماً: كيف وجدتِ الكتاب؟

(هياء) وهي تبتسم: كان مختلفاً كما قلت لك..

خرجت (هياء) وتوجهت للقصر، وبعدما تجاوزت البوابة ودخلت لقلب القصر وجدت (حليمة) تستقبلها بوجه قلق وهي تقول: سيدة (هياء) أنا..

قاطعت (هياء) مربيتها بعناق طويل وعميق همست خلاله في أذنها وقالت: لا تقولي شيئاً.. أعرف أنكِ تحبينني وتخافين علي، لكن لا تقلقي، أنا بأحسن حال.

(حليمة) وهي تشد عناق (هياء) وتدمع: لقد قلقت عليكِ كثيراً.

(هياء) وهي تفك عناقها لـ(حليمة) وتنظر إليها بعينين دامعتين وابتسامة عريضة: لا تقلقي، أنا بخير وأشعر بسعادة لم أشعر بها من قبل.

(حليمة) وهي تمسح دموعها: كل هذا بسبب صحبة ذلك الكهل السمين؟

(هياء) وهي تسير بسعادة نحو السلالم المؤدية للطابق العلوي: ليس هو فقط، بل كتبه يا (حليمة)!

(حليمة) باستغراب وهي تراقب (هياء) تصعد نحو غرفتها: كتبه؟.. كنت أظنكِ تكرهين القراءة.

(هياء) وقد بلغت أعلى الدرج وبصوت مرتفع: لقد كنت حمقاء يا (حليمة)!.. حمقاء!

كانت تلك الفترة التي انتقلت فيها (هياء) مع أبيها لذلك الحي متزامنة مع الإجازة الصيفية؛ لذا لم تجد أي صعوبة في التردُّد إلى منزل (أمين) في أوقات مختلفة

من اليوم لقراءة كتبه، وبدأت تختار أوقاتاً ملائمة لزيارته، وبدأت تجنب الزيارات الليلية واكتفت بالنهار، وبالذات العصر، خاصة أن قراءتها لتلك الكتب مهما

طـالت لـم تكـن تأخـذ مـن وقتـها فـي الـواقع أي شـيء يـذكر عـدا المـدة التـي تسـتغرقها بـين الـذهاب والعـودة مـن مـنزل (أمـين). اسـتمرت تلـك الزيـارات، وزادت حصـيلة

(هيــاء) مــن الكتــب التــي كــانت تقرؤهــا، وزادت معــها خبرتــها فــي الحيــاة، مــا أبــهر معلميــها عنــدما انتــهت الإجــازة وعـادت لمقاعـد الدراسـة؛ فقـد كـان خيالـها وعلمـها

مُبهرين جداً حتى إنها عندما كانت تخبر (أمين) بذلك الانبهار الذي يحيط بها نبهها بألا تحاول إظهار معرفتها كثيراً كي لا تثير الشكوك حولها. لاحظ والد (هياء)

تلك الزيارات لجارهم المسن بعد عدة أسابيع عن طريق الصدفة عندما سأل ابنته خلال خروجها صباحاً في عطلة نهاية الأسبوع وقال: إلى أين يا (هياء)؟

(هياء) وهي تقف عند باب القصر: للسيد (أمين).

(الأب) وهو جالس في غرفة المعيشة يدخن غليونه أمام المدفأة الكبيرة التي أوقدها لأنهم كانوا في فصل الشتاء: السيد (أمين)؟.. ومن يكون هذا؟

حكت (هياء) تفاصيل لقائها بـ(أمين) أول مرة خلال توزيعها الكعك مع (حليمة)، وكيف حببها في القراءة بشكل كبير وهي تذهب إليه من وقت لآخر للقراءة عنده.

(الأب): يمكنني أن أبنيَ لكِ مكتبة أكبر من مكتبته، وأملأها لكِ بالكتب من كافة الأنواع.

(هياء) مبتسمة: لن تكون ككتب السيد (أمين).

(الأب) باستغراب: لماذا؟.. ما الذي يجعل كتبه مميزة لهذا الحد؟

(هياء) وهي تفتح باب القصر وتخرج متوجهة لمنزل (أمين): لن تفهم مهما شرحت لك يا أبي.

بقي الأب يراقب ابنته وهي تسير بسعادة نحو بوابة القصر من خلال النافذة بعد وقوفه ونظرات الارتياب والشك تفيض من عينيه..

وصلت (هياء) لباب منزل السيد (أمين)، وبدأت تطرقه بطرقات متقطعة، ففتح لها

الباب بابتسامة كبيرة وهو يقول: لقد تأخرتِ اليوم على غير عادتك.. هل لأننا في فصل الشتاء والبرد القارس منعكِ من الاستيقاظ؟

(هياء) وهي تدخل المنزل ضاحكة: لا، لقد عطلني أبي قليلاً.

(أمين) وهو يغلق الباب: لماذا؟ ما الذي حدث؟

(هياء) وهي تسكب لها كوباً من القهوة التي أعدها (أمين) قبل قدومها: لا شيء.. أمر غير مهم.

(أمين) وهو يجلس على أريكته: المهم أنه غير مستاء منكِ لأي سبب.

(هياء) وهي تمد كوب قهوة لـ(أمين): لا تقلق، أبي راضٍ عني تماماً خاصة أني أصبحت متفوقة دراسياً والفضل يعود بالطبع لك.

(أمين) يشير لها بأنه لا يريد قهوة: هل تعرفين تاريخ اليوم؟

(هياء) وهي تبتسم وتأخذ رشفة من كوب القهوة: لا، فلقد فقدت الإحساس بالزمن منذ أن بدأت بقراءة كتبك العجيبة.

(أمين) مبتسماً: تعرفين أنه يوم الجمعة على الأقل.

(هياء) وهي تضحك: نعم، نعم، لم أفقد الإحساس بالزمن لتلك الدرجة!

(أمين) وهو يخرج كتاباً مربوطاً بربطة ملونة جميلة: اليوم يوم ميلادك.. لقد بلغتِ الثالثة عشرة.. كل عام وأنتِ بخير يا (هياء).

(هياء) وهي تضع كوب القهوة جانباً وتمسك الكتاب بحماس وابتسامة عريضة: كيف عرفت؟!.. أنا لم أذكر أنه يوم ميلادي!

(أمين) مبتسماً: (حليمة) أخبرتني.

(هياء) وهي تفك الرباط الملون عن الكتاب بحماس: بالطبع هذا الكتاب مميز كي تهديه لي بيوم ميلادي.

(أمين) وهو يعتدل في جلسته مبتسماً ومشاركاً لـ(هياء) في حماسها: أتمنى ذلك.

(هياء) وهي ترمي بالرباط على الأرض وتلقي نظرة على العنوان: متأكدة من ذلك.. "عبير البرتقال".. يبدو شائقاً يا (أمين)!

(أمين): استمتعي به..

اندفعت (هياء) نحو (أمين) وعانقته وهو جالسٌ على الأريكة وهي تقول: شكراً.. شكراً لأنك مصدر السعادة في حياتي..

(أمين) يغمض عينيه ويربت على ظهر (هياء) بصمت..

فكت (هياء) عناق (أمين)، وحملت الكتاب وجرت بحماس نحو السرداب، لكنه استوقفها قائلاً: إلى أين؟

(هياء) وهي تتوقف: إلى السرداب بالطبع.

(أمين) مبتسماً: لا.. هذه المرة الكتاب ملك لكِ، ويمكنك قراءته في أي مكان تشائين.

(هياء) وعيناها تشعان سعادة وفرحاً: حقاً؟!.. هل هذا الكتاب ملكي؟!

(أمين) مبتسماً: هذا هو تعريف الهدايا.

(هياء) وهي سارحة تفكر: سأقرؤُهُ في غرفتي!

(أمين): المهم أن تخبئيه جيداً عند الانتهاء منه.

(هياء) وهي تخرج من المنزل مسرعة: لا تقلق، سأحافظ عليه جيداً.

جَرَتْ (هياء) نحو القصر وقدماها تكادان ترتفعان عن الأرض من السعادة، وعندما فتحت باب القصر وبدأت بالتوجه نحو الطابق العلوي سمعت أباها ينادي

عليها من غرفة المعيشة ويقول: (هياء)!.. انتظري!

وقفت (هياء) مكانها وقالت: نعم يا أبي.

(الأب): تعالي إلى هنا.. أريد التحدث معكِ.

تقدمت (هياء) نحو أبيها بخطوات بطيئة وهي ممسكة بالكتاب بين يديها، ووقفت أمامه وقالت: نعم يا أبي!

(الأب) وهو يوجه نظره للكتاب: ما هذا الذي تحملينه في يدك؟

(هياء) وهي تنظر للكتاب وتبتسم: هدية من السيد (أمين).

(الأب) وهو يمد يده: دعيني أرَ.

(هياء) وهي تضم الكتاب لصدرها: لا!

(الأب) بتعجب: ما بك؟.. لِمَ لا تريدين مني رؤية محتوى الكتاب؟

(هياء) بتوتر وعصبية قليلة: لِمَ تريد أنت رؤيته؟.. منذ متى تهتم بالكتب؟ همك جمع المال فقط!

(الأب) وهو يقف ويقول بغضب: أريد أن أعرف ما نوع الكتب التي تقرؤُها ابنتي والتي غيرت من حالها!

(هياء) بعصبية: ماذا تقصد؟!

(الأب): أقصد أني يجب أن أعرف محتوى تلك الكتب التي تدفعك لزيارة ذلك المسن في كل فرصة تجدينها.

(هياء) وهي تشد على الكتاب: لن ترى محتواه!

(الأب) بهدوء: سآخذ الكتاب منكِ شئتِ أم أبيتِ!

تقدَّم الأب تجاه ابنته ومد يده لأخذ الكتاب، لكنها ـ وقبل أن تصل يده إليها ـ فتحته فخرج منه نورٌ قوي في وجهها..

عبير البرتقال

فتحــت (هيـاء) عينيـها بعـد ثـوانٍ مـن زوال وهـج النـور القـوي لتجـد نفسـها فـي المقعـد الخلفـي مـن سـيارة متـهالكة يقودهـا رجـل تظـهر عليـه علامـات الإرهـاق والتعـب،

يمسك مقودها بكلتا يديه ويحاول الإمعان في الطريق المزدحم أمامه. ثيابه مكرمشة ومبتلة، لحيته خشنة، وجبينه يقطر عرقاً من حر الشمس الحارقة. تجلس

بجانبــه امــرأة تنظــر مــن النافــذة المفتوحــة وتحــرك قطعــة مــن الــورق المقــوى لتخفــف مــن أثـر الحـر المحـيط بـها، وعلامـات الضـيق والسـخط مرتسـمة علـى وجـهها وهـي

تشاهد المنازل من حولها تنحدر في الجمال والمستوى كلما تقدموا أكثر. يقفز الجميع فجأة من أماكنهم لتصرخ المرأة بعدما أسقطت قطعة الورق المقوى من يدها

وتقول: انتبهْ أمامك! هل تحاول قتلنا؟!

(الرجل) ببرود وهو لا يزال ممعناً النظر بالطريق أمامه: كانت مجرد حفرة في

الطريق.. لا تنزعجي لهذا الحد.

التقطت المرأة قطعة الورق المقوى من بين رجليها بغضب، وبدأت تحركها بعصبية وهي تقول: لا أحد يجيد الوقوع في الحفر مثلك!

(الرجل) وهو يلتفت إلى المرأة: ماذا تقصدين يا (زكية)؟

(زكية) وهي تصرخ وتشير أمامها: انتبه!

قفز الجميع مرة أخرى في الهواء بعدما وقعت السيارة في حفرة ثانية، ما دفع المرأة للصراخ في الرجل: أبقِ عينيك على الطريق يا (صالح)!

(صالح) وهو يشد من قبضته على المقود ويركز أمامه: حسناً، حسناً.

(زكية) وهي تلتفت إلى المقعد الخلفي حيث كانت (هياء) جالسة وتقول مبتسمة: هل أنت بخير يا عزيزي؟

أدركــت (هيــاء) ســريعاً الأمــر، وأن هــذه المــرأة هــي أمــها وأن ذلــك الرجــل فــي الأغلــب أبوهــا؛ لأنــها فــي ذلــك الــوقت قـد اعتـادت أن يزج بـها فـي مثـل هـذه المـواقف فجـأة،

وأصبحت سيطرتها على توترها أكبر من السابق، لكنها استغربت هذه المرة أن المرأة نادتها بـ"عزيزي" بدل "عزيزتي"؛ لذا حاولت النهوض من مقعدها والنظر في

المرآة الأمامية؛ لأنها تعلمت من خلال قراءتها لكتب (أمين) أنها يمكن أن ترى الشخصية التي تتقمصها من خلال انعكاسها في الماء أو في مرآة. وقبل أن تستطيع

الوصول للمرآة للنظر لوجهها انتبهت إليها المرأة وقالت لها وهي تدفع صدرها براحة يدها: اجلسْ مكانك يا (سامي)!

جلست (هياء) بفم مفتوح عندما اكتشفت أنها حبيسة في جسد صبي صغير لم يتجاوز الخامسة من عمره لما تفحصت جسدها بيديها بعد سماع تلك المرأة تناديها

باسم مذكر. قفز الجميع مرة ثالثة في الهواء وبمجرد هبوطهم بدأت (زكية) بضرب (صالح) على رأسه بغضب بقطعة الورق المقوى وهي تقول: كفَّ عن الوقوع في الحفر يا أحمق!

(صالح) وهو يوقف السيارة: لقد وصلنا.

(هياء) وهي تخرج رأسها من النافذة وتحدث نفسها: وصلنا إلى أين؟

(صالح) وهو يخرج ذراعه من النافذة ويحدق بعمارة قديمة مبتسماً: هذا منزلنا الجديد يا (زكية).

(زكية) بتذمر: تقصد قبرنا الجديد.

(صالح) وهو يفتح الباب ويترجل من السيارة: هذا ما نستطيع تحمل تكلفته الآن.

(زكية) وهي تحرك قطعة الورق المقوى بعصبية أمام وجهها: لن أسكن في هذا المكان مهما حدث!

(صالح) وهو يفتح صندوق السيارة ويُخرج حقيبة كبيرة: يمكنك البقاء في السيارة لو أحببتِ.. هيا يا (سامي) كي ترى غرفتك الجديدة.

فتحت (هياء) باب السيارة وبدأت بالنزول، لكن قدمها زلَّت لأنها لم تعتَدْ جسدها الصغير بعد. صرخت (زكية) وخرجت من السيارة وهي تقول: ابني!

حملت (زكية) ابنها على كتفها وصفعت (صالح) على رأسه بالورقة المُقوّاة وهي تقول: سوف تتسبب بأذية ابني الوحيد بغبائك!

(صالح) وهو يحمل الحقيبة الكبيرة ويسير بثقل نحو باب العمارة: هيا بنا.

(زكية) وهي تتقدم أمام زوجها وتتذمَّر: الحمد لله أنك لم تبِعْ أثاث منزلنا أيضاً، وإلا

لكنا نمنا على الأرض الآن!

دخلت المرأة العمارة و(هياء) على كتفها تنظر نحو الأب الذي كان يسحب تلك الحقيبة الكبيرة بصعوبة، وخلال تحديقها به صرخت الأم وقالت: المصعد معطل!

(صالح) وهو يتجاوز مدخل العمارة ويجر خلفه تلك الحقيبة الضخمة والثقيلة: لا بأس، سنستخدم السلالم.

(زكية) تلتفت إلى زوجها وتشد بقبضتها على الورقة المُقوّاة وتقول بتجهُّم: في أي دور نحن؟!

(صالح) بقلق: الشقة 13 في الدور السابع.

صفعت (زكية) زوجها بتلك الورقة ثم رمتها على الأرض وبسطت يدها وهي تقول بغضب: ناولني المفتاح!

مد الرجل يده بانكسار في جيبه وأخرج سلسلة المفاتيح وبدأ يبحث بينها..

(زكية) وهي تخطف السلسلة من يده وتتوجه للسلالم: اِلحَقْ بنا!

بدأت المرأة بالصعود وهي لا تزال تحمل ابنها على كتفها، فقالت (هياء) بشكل عفوي: ألن ننتظر أبي؟

(زكية) بهدوء وحنان: لا يا حبيبي، أبوك يستطيع الاعتماد على نفسه.

(هياء): أنزليني، أستطيع السير وحدي.

(زكية) وهي تضحك وتقبل ابنها على وجنته، وتطبع بعض أحمر الشفاه عليها: مازلت صغيراً كي أتركك تقطع كل هذه المسافة وحدك.

لم تنزل (زكية) ابنها إلا عندما وصلت للدور السابع، وتحديداً عندما وقفت أمام الشقة 13 وهي تتنفس بثقل وتقول: هذا ما جنيناه من حماقة أبيك.

(هياء): لِمَ تقسين على أبي هكذا؟

(زكية) وهي تجرب المفاتيح في الباب: أبوك خاطر بأمواله كلها في مشروع فاشل، وخسرها كلها دفعة واحدة وخسرنا معها حياتنا.

(هياء): لم يقم بذلك إلا لنحظى بحياة أفضل.

(زكية) تدير قفل الباب وتلتفت إلى ابنها باستغراب: طريقة كلامك غريبة اليوم.

ارتبكت (هياء) وفتحت ذراعيها مبتسمة وهي تقول: احمليني يا أمي، فأنا متعب.

(زكية) وهي تحمل ابنها مبتسمة: أخبرتك بأنك لن تقوى على السير وحدك.

حملـت الأم (هيـاء) ودخلـت للشـقة التـي كـانت ضـيقة ومكتومـة، والغبـار متـراكم علـى أرضـياتها، ومعظـم أثـاث منزلـهم السـابق مُتكـوّم فـي منتصـف غرفـة المعيشـة

الصغيرة، فغطت (زكية) فمها وتوجهت لأقرب نافذة وفتحتها وهي تقول: إذا كان أبوك يتوقع أني سأنظف هذا المكان فهو يحلم!

نظرت (هياء) من النافذة وأحست بالرهبة من الارتفاع الشاهق الذي كانت تُطل منه، وعانقت الأم بخوف صادق من ذلك المنظر.

(زكية) وهي تطبطب على ظهر ابنها مبتسمة: لا تقلق يا حبيبي، سوف تنام معي كل ليلة حتى تألف المكان.. هيا، لنَرَ الغرفة التي سننام فيها.

أخذت المرأة تلف في الشقة وتستكشفها، ولم ترَ سوى مطبخٍ صغيرٍ وغرفة متوسطة الحجم تجاورها غرفة صغيرة وضيقة جداً، تتوسطهما دورة مياه أصغر. كان

سخطها يزداد شيئاً فشيئاً كلما تجولت في الشقة وهي ترى الفرق الشاسع بينها وبين المنزل الشاسع الذي كانت تسكن فيه. تزامن دخول (صالح) من باب الشقة

وهو يجر الحقيبة الكبيرة خلفه مع انتهاء تلك الجولة التفقدية لـ(زكية) في محل إقامتها الجديد، فاستقبلته بصياح ونياح وهي تقول: هل تنوي حقاً أن تبقينا في

هذا المكان؟!

(صالح) وهو يبحث عن النفس من تعب صعود الطوابق السبعة بتلك الحقيبة الثقيلة: مؤقتاً فقط يا عزيزتي..

(زكية) بعصبية وصوت مرتفع: ولِمَ لم تأتِ بأحد لتنظيف المكان.. ولِمَ حاجياتنا وأثاثنا متراكم في مكان واحد؟!.. هل تتوقع أني أنا من سيهتم بهذا الأمر!

(صالح) وهو يجلس على الحقيبة ويضع يده على صدره ويتنفس بثقل: لا يا عزيزتي، استريحي أنتِ وأنا سأقوم بكل شيء.

(زكية) بصوت مرتفع: وأين تتوقع أن أجلس؟! المكان كله متسخ بالأتربة!

ردَّ صوت رجلٍ من خارج الشقة التي ترك (صالح) بابها مفتوحاً وقال: يمكنكم البقاء عندي ريثما تنتهون من تنظيف المكان.

التفت (صالح) إلى مصدر الصوت ليرى رجلاً في عمره تقريباً، يطل برأسه من باب الشقة. وقبل أن يسأله عن هويته سبقته (زكية) بالحديث وقول: من أنت؟!..

وهل كنت تتجسس علينا؟!

(الرجل) وهو يأخذ خطوة داخل الشقة مبتسماً: أعتذر على تطفلي، لكن صوتكم وصل للطابق بأكمله.

(صالح): نعتذر على إزعاجكم.

(الرجل) وهو يمد يده لـ(صالح) مبتسماً: أنا (مراد) جاركم في الشقة المقابلة.

(صالح) وهو يبتسم خلال مصافحة جاره الجديد: تشرفت بك، وعذراً على إزعاجكم.

(زكية) بتجهُّم وهي تضع (هياء) على الأرض وتمسك بيدها: كُفّ عن الاعتذار منه. نحن لم نرتكب جريمة!.. هو من كان يسترق السمع!

(صالح): كفى يا (زكية).

(زكية) بعصبية: أكفُّ عن ماذا يا (صالح)؟!.. هل الحديث ممنوع في هذه العمارة التعيسة؟!

(مراد) مبتسماً: معكِ حق يا سيدتي. أنا من يعتذر؛ لقد كان خطئي أنا.

(زكية) بتجهُّم: أعرف واعتذارك مرفوض!

(صالح) وهو مغلوب على أمره: انتهى الموضوع يا (زكية).

(مراد) وهو يضع يده على كتف (صالح) ويقول مبتسماً: يمكنكِ يا سيدتي أن ترتاحي في شقتي، وأنا والسيد (صالح) سننظف ونرتب المكان.

(زكية) بتجهُّم: وماذا عن زوجتك؟

(مراد): أنا أسكن وحدي.

(زكية) بعصبية: هل هذه العمارة تقبل بسكن العزاب؟!

(صالح) وهو يقف ويحاول سحب الحقيبة الكبيرة للداخل: لا! لا!.. أقسم لكِ إنها عمارة للعائلات فقط.

(مراد): لا توبخي الأستاذ (صالح)، فهو يقول الحق.. لقد توفيت زوجتي قبل أشهر.

(زكية) بتجهُّم: آسفة لخسارتك.

(مراد) وهو يحاول مساعدة (صالح) في سحب الحقيبة: لا بأس.

(زكية) بنظرة استحقار: لا تبدو حزيناً على فراقها.

(مراد) وهو يسند الحقيبة للجدار: الحزن الخارجي زال، ولم يبقَ إلا حزن قلبي لا أشاركه أحداً.

(صالح): (زكية)!.. هل ستحققين مع الرجل؟!.. يكفي أنه عرض علينا خدماته دون مقابل.. من الواجب علينا شكره لا توبيخه!

(مراد) مبتسماً: نحن جيران ولا يوجد مجاملات بيننا.. مساعدتكم من دواعي سروري.

(زكية) وهي تحمل (هياء) وتقول بتجهُّم: أين شقتك هذه؟!

(مراد) وهو يشير نحو باب الشقة: الشقة المقابلة لكم.. بابها مفتوح.

(زكية) وهي تسير مروراً بزوجها وجارهم: لا تتأخروا، أريد أن أرتاح!

خرجت (زكية) من الباب و(هياء) على كتفها تنظر للأب مع الجار، وهما يبدآن بالتنظيف. دخلت الأم باب شقة (مراد)، وبمجرد دخولها وضعت يدها على أنفها

وقالت: ما هذه الرائحة القوية؟

(هياء) وهي تستنشق عبق المكان: برتقال..

(زكية) وهي تتقدم لوسط الشقة وتتمعن في أثاثها بنظرات غطرسة: أثاث شقته أفخم من شقتنا..

(هياء): أنزليني يا أمي..

(زكية) وهي تنزل ابنها: لا تكسر شيئاً يا عزيزي، وكن قريباً مني.

بدأت (هياء) تتجول في المكان الذي كان مرتباً ونظيفاً بشكل لافت للنظر. وكانت التحف واللوحات الزيتية موزعة في كل زواياه وأركانه. لاحظت أيضاً أن ألوان قطع

الأثاث كانت زاهية ومَلأى بالحياة، ولم يكن هناك قطعة تشبه الأخرى في الشكل ولا في اللون. رمت (زكية) بعد جولة قصيرة في غرفة المعيشة بكل ثقلها على إحدى

الأرائك، وخلال ثوانٍ غطت في النوم. لم توقظ (هياء) الأم النائمة وأمضت قرابة الساعة في التجول في الشقة وحدها، لكن لصغر حجمها لم تتمكن من استكشاف

الكثير. استيقظت (زكية) مفزوعة من غفوتها وقالت: أين أنت يا (سامي)؟!

(هياء) من على مسافة قريبة منها: أنا هنا يا أمي.

(زكية) وهي تزفر بارتياح: الحمد لله.

أخذت (زكية) تجوب بنظرها مرة أخرى في أرجاء الشقة ثم قالت: ما هذا المكان الجميل؟

(هياء): يمكنك أن تجعلي منزلنا هكذا يا أمي.

(زكية) وهي تسند رأسها للخلف وتحدق بالسقف: ومن أين لنا بالمال يا حبيبي؟

(هياء): لا نحتاج المال لشراء الجمال..

(زكية) وهي تعود بنظرها بسرعة للأمام وتبدأ بالشم والاستنشاق بقوة: ما حكاية هذه الرائحة النفّاذة والقوية؟

(هياء): إنها رائحة برتقال يا أمي.

(زكية) وهي تنهض من مكانها وتشمشم في الهواء: أعرف يا عزيزي، لكنها قوية جداً ونفاذّة بشكل مزعج.

(هياء) وهي تخطو بقدميها الصغيرتين باتجاه (زكية): ما بكِ يا أمي؟

(زكية) وهي تبحث بنظرها في المكان بانزعاج: لا أعرف، لكن تلك الرائحة توترني.

(هياء): هل تريدين أن نعود لشقتنا؟

(زكية) وهي تنظر لـ(هياء): لا يا عزيزي.. فالشقة الآن بالتأكيد تعج بالغبار وأنت مصاب بالربو.

(هياء) مبتسمة: لِمَ لا نبحث عن مصدر الرائحة إذاً؟

(زكية): تقصد رائحة البرتقال؟

(هياء) وهي تمد ذراعيها مبتسمة: نعم.

(زكية) وهي تلتقطها من على الأرض وتضحك: أنت على غير عادتك اليوم يا (سامي).

(هياء) بتوتر: أنا أحبك يا أمي.

(زكية) وهي تُقبل ابنها وتطبع بعضاً من أحمر الشفاه على خده: وأنا أحبك أكثر.

بــدأ الاثنــان باســتكشاف غُرف الشــقة حتـى وصـلا إلـى بـابٍ كـانت رائحـة البرتقـال قويـة جـداً بـالقرب منـه، فقـالت الأم وهـي تحـدق بـالباب: يبـدو أننـا اقتربنـا مـن مصـدر

الرائحة يا (سامي).

(هياء) وهي تحدق مع الأم بالباب: افتحي الباب يا أمي.

وضعت (زكية) يدها على مقبض الغرفة، لكن ـ وقبل أن تديره ـ سمعت صوت (مراد) من شقتهم ينادي ويقول: يمكنك العودة الآن يا سيدة (زكية).. لقد انتهينا!

أرخت الأم قبضتها عن الباب وقالت: يبدو أننا لن نلحق يا عزيزي.

عــادت (زكيــة) أدراجــها نحــو شــقتها و(هيــاء) تحــدق مــن علــى كتفــها بــالباب الــذي كــادتا تفتحانــه والفضــول يزداد فــي قلبــها مــع كــل خطــوة. بعــد عودتــهما لشــقتهما

وتحديداً عندما خطت الأم خطوتها الأولى داخلها رأت (هياء) السعادة التي غمرت (زكية)، وهي ترى الشقة بحالة مختلفة تماماً عما تركتها سابقاً؛ فقد كانت

نظيفة، وكان الأثاث مرتباً ومنسقاً بشكل جميل. وخلال رضاها بما كانت تراه أمامها قال (صالح) مبتسماً: ما رأيك يا عزيزتي؟

(زكية) وهي سعيدة بما تراه أمامها: لا بأس يا (صالح).. لا بأس.

(صالح) وهو يضع يده على كتف (مراد) مبتسماً: الفضل كله يعود لجارنا صاحب الذوق الرفيع واللمسة الذهبية.

(مراد): لم أكن سأنجز شيئاً يستحق الذكر دون مساعدتك.

(زكية) بنظرة تهكُّم: هل انتهيتما من مغازلة كلٍّ منكما للآخر؟.. أريد أن أرتاح من يومي الشاق.

(مراد) وهو يهم بالخروج مبتسماَ: عذراَ على التطفل.. أراكما لاحقاَ.

(صالح) وهو يلحق بجاره ويرمق زوجته بنظرة تعجب: انتظر يا (مراد)، سوف أوصلك!

(زكية) وهي تدخل غرفة المعيشة وتنزل (هياء) على الأريكة: هذا ما كان ينقصنا.. جارٌ متطفل.

مضت الأيام وتدريجياً بدأت (هياء) تعتاد حياتها كطفل في الخامسة من العمر، بل إنها كانت تستمتع بها من وقت لآخر بسبب تدليل (زكية) لها بشكل مفرط

لدرجة أنها كانت تبقيها معها في غرفتها وتنام معها بعدما ألزمت (صالح) بالمبيت في الغرفة الأخرى الصغيرة لحين أن يعتاد ابنهما على المكان كما قالت. تغير رتم

حيات__هم يوم__اً عن__دما اس__تيقظت (هي_اء) ظ_هراً عل_ى ص_وت ص_ياح وش_جار ق_ادمين م_ن غرف_ة المعيش_ة، وك_ان الش_جار ي_دور ب_ين الأب والأم، لك_ن ب_الطبع الغلب_ة ف_ي عل_و

الصوت وحدة الألفاظ كانت لـ(زكية) التي لم تدخر كلمة جارحة أو نابية إلا وقذفتها في وجه (صالح) المغلوب على أمره. نزلت (هياء) من السرير المرتفع بالنسبة لها،

وتوجهت نحو باب الغرفة وأطلت برأسها وبدأت تسترق السمع في محاولة منها لفهم أسباب الشجار:

(زكية) بعصبية شديدة: ألن تخبرني أين كنت البارحة؟!

(صالح) بحسرة: كنت نائماً يا (زكية).

(زكية) وهي ترفع سبابتها وتقول بصوت مرتفع: لا تكذب!.. لقد عرجت على غرفتك فجراً ولم أجدك في فراشك.

(صالح): ربما كنت في الحمام.

(زكية) بعصبية: ما زلتَ تصر على المراوغة؟!.. أنا استيقظت من نومي للذهاب للحمام ولم أرَ سوى منظف المراحيض!.. إلا إذا كنت أنت هو وأنا لا أعلم.

(صالح) بتجهُّم: لا تخاطبيني بهذه اللهجة!

(زكية) بعصبية: كن صادقاً ولن أوبخك!

(صالح): نعم خرجت!.. هل الخروج محرم؟!

(زكية): خرجت؟!.. وأين ذهبت في تلك الساعة؟!

صمت (صالح) وكأنه يفكر في الرد..

(زكية) بغضب: لا تحاول اختلاق أكذوبة جديدة! فأنا أعرف أين ذهبت!

(صالح) بتوتر: تعرفين؟

(زكية): بالطبع!.. فرائحتك ورائحة ملابسك تفضحانك!

(صالح) بتعجب: رائحتي؟

(زكية): نعم رائحتك التي تفوح عطوراً نسائية لم أقتنِها من قبل!

(صالح) وهو يبتسم بسخرية: هل تظنين أني كنت مع امرأة أخرى؟

في تلك اللحظة أحست (هياء) برغبة في التدخل ومقاطعة ذلك الشجار قبل أن يتطور الأمر أكبر، ففتحت الباب وتظاهرت أنها استيقظت للتو. جرت (زكية) نحوها والتقطتها وهي تقول بتجهُّم: لقد أيقظت الصبي!

(صالح) وهو يهم بالخروج: اِبقي معه إذاً.

(زكية) وهي ممسكة بـ(هياء): إلى أين؟!
(صالح) وهو يغلق الباب: إلى جحيمٍ آخر..

(زكية) وهي تزفر وتجلس على الأريكة: أحمق!

(هياء) وهي تحاول التخفيف عن (زكية): أبي طيب.

(زكية) بعصبية: أبوك أبله!

رأت (هياء) في عيني الأم أنه لا فائدة من محاولة التخفيف عنها أو من حدة الموقف فآثرت الصمت. عاد (صالح) بعد ساعة من غيابه وبمجرد دخوله توجهت (زكية)
نحوه بعدما وضعت (هياء) أرضاً وبدأت تشم ملابسه.

(صالح) باستغراب: ماذا تفعلين؟

(زكية) وهي لا تزال تشم ملابسه: هذه المرة رائحتك مختلفة.. تبدو كرائحة الدخان.

(صالح) بتوتر: هل أصبحت علاقتنا مبنية على الروائح الآن. رائحتك الآن بصل ولم أقل شيئاً.

(زكية) بعصبية: رائحتي هي بسبب الطعام الذي أعده كي تلتهمه، لكن ما تفسير رائحتك هذه؟!.. هل معشوقتك الجديدة تحب التدخين؟!

(صالح) وهو يتوجه لغرفته متجاوزاً زوجته: لا وقت لدي الآن لحماقاتك.

(زكية) بعجب يخالطه السخط والتعجب: حماقاتي؟!

صفع (صالح) باب غرفته بعد دخوله تاركاً (زكية) خلفه تتوجه نحوه بخطوات غاضبة والشر في عينيها..

مدت (هياء) يدها وأمسكت بلباس الأم وهي تقول: أريد الحمام!.. أريد الحمام!

كانت (هياء) تتصرف بعفوية لمنع تفاقم المشاكل بين (زكية) و(صالح) خاصة بعد أن تقمَّصت دور الابن الصغير المدلل لهما..

وقفــت (زكيــة) تحــدق ببـاب غرفـة زوجـها الصـغيرة وهـي تتنفـس بثقـل كـالثور الـهائج، لكـن إصـرار (هيـاء) وتمسـكها بملابسـها غـيَّرا مـن وجـهتها إلـى دورة الميـاه بعـدما

حملتها على أكتافها. بدأ الفضول والملل يتسلل إلى قلب (هياء) بعد أيام من التدليل والأكل والنوم؛ فهذه الحياة قد تروق لطفل في الخامسة، لكن ليس لروح

عتيقة كروح (هياء)؛ لذا قررت يوماً التعلق بـ(صالح) خلال خروجه الذي ازداد مؤخراً، وبالرغم من تمنعه في البداية ويقينه أن زوجته لن تسمح له بأخذ ابنه إلى

أي مكان بدونها، إلا أنه فوجئ بأنها أيدت ذلك، بل أصرت على أن يصطحبه معه في مشواره:

(صالح) وهو يحمل (هياء) بتعجب: هذه أول مرة تسمحين لي بأخذ (سامي) معي بدونك.

(زكية) بهدوء غريب: الولد بدأ يكبر ويجب أن يتعلم مصاحبة أبيه.

(صالح) و(هياء) على كتفه: أنا ذاهب فقط لجارنا (مراد).

(زكية) بنظرة خبث: أعرف.. هل يضايقك وجود ابنك معك؟

(صالح) بنظرة ارتياب وتوجس: لا.. لِمَ يضايقني مثل هذا الأمر؟

(زكية) وهي تعود للمطبخ: جيد.. الغداء سيكون جاهزاً بعد ساعتين.. يمكنك دعوة صاحبك لتناوله معنا لو أحببت.

(صالح) وهو يهم بالخروج ويقول باستغراب: حسناً.

سار (صالح) في الممر بين شقته وشقة (مراد) وهو يكلم ابنه ويقول: ما بها أمك اليوم؟

طرق (صالح) باب جاره ففتح (مراد) الباب، وبمجرد رؤيته لـ(هياء) التقطها من ذراعي أبيها وهو مبتهج وسعيد قائلاً: لقد أحضرتَ البطل الصغير أخيراً معك!

(صالح) مبتسماً: نعم، لقد تحرر من مخالب أمه اليوم ولأول مرة منذ ولادته.

(مراد) وهو يدخل شقته حاملاً (هياء) بين ذراعيه: سوف نمرح كثيراً اليوم!

(صالح) وهو يدخل خلفهما ويغلق باب الشقة: ماذا سنفعل اليوم؟

(مراد) وهو يضع (هياء) على الأريكة: ما تحب.. أنت هنا حر.

(صالح) وهو يجلس بجانب ابنه: أحسدك على الحرية التي تملكها.

(مراد) وهو يجلس أمامهما ويخرج سيجارة ويمررها عند أنفه ويستنشقها: حريتي حصلت عليها ولم تأتِني هدية.

(صالح): ماذا تقصد؟

(مراد) وهو يمد السيجارة لـ(صالح): خذ.

(صالح): لا، لا.. كدت أن أنكشف آخر مرة، ثم هل يمكننا عدم التدخين اليوم لأن

الصغير هنا.

(مراد) وهو يضحك ويعيد السيجارة لجيبه: حسناً لا بأس.

(صالح): لم تخبرني.. ماذا كنت تقصد بأنك حصلت على حريتك ولم يُهدِها لك أحد؟

(مراد) وهو ينهض من مكانه ويتوجه للمطبخ: دعك من هذا الأمر الآن. لقد حصلت على روائح جديدة كي نستنشقها.

(صالح) وهو يحمل (هياء) المنصتة باهتمام للحوار ويضعها في حجره: ما حكايتك مع الروائح؟

(مراد) من المطبخ: وهل هناك أجمل من استنشاق الروائح؟

(صالح): هوايتك هذه غريبة جداً.

(مراد) عائداً من المطبخ وهو يحمل مجموعة من القناني ويضعها على الطاولة بينهما: الروائح هي أقرب شيء للأحلام..

(صالح) مبتسماً: لم تخبرني من قبل ما أحب رائحة مرت عليك.

(مراد) وهو يستنشق إحدى القناني: كل رائحة لها سحرها الخاص..

(صالح): ربما.

(مراد) وهو يوجه نظره نحو (صالح) خلال استنشاقه للقنينة: ما أجمل رائحة بالنسبة لك أنت؟

(صالح) وهو يشير بسبابته لوجهه: أنا؟

(مراد) وهو يضع القنينة على الطاولة: نعم أنت.

(صالح) وهو في حيرة: لا أعرف..
(مراد): فكر.

(صالح): ربما رائحة الفانيليا.

(مراد) مبتسماً: اختيار موفق.. لكن هل هناك رائحة أخرى أقل شيوعاً تحب استنشاقها؟

(صالح): مثل ماذا؟

(مراد): رائحة تحرك إحساسك.. تدفعك لاستنشاق المزيد منها عندما تلامس أنفك.

(صالح) وهو يضحك: هذا يحدث معي عندما أشمُّ رائحة البنزين عند محطة الوقود.

(مراد) بحماس: نعم! نعم!.. هذا ما عنيته!

(صالح) باستغراب: عنيت ماذا؟

(مراد) وهو متحمس: رائحة تبعث فيك الحياة بغض النظر إذا كانت زكية أم لا.

(صالح) يضحك..

(مراد) بتعجب: ما الذي يضحكك؟

(صالح) وهو يشوح بيده مبتسماً: لا شيء، لكنك عندما قلت "زكية" انتفض جسدي فجأة.

(مراد): هذا ليس بالأمر المضحك، بل هو شيء محزن.. أنت تذبل يوماً بعد يوم وسوف تموت بحسرتك.

(صالح) وهو يبتسم بحزن: وماذا يمكنني أن أفعل؟

(مراد) ببرود وثقة لـ(صالح): يمكنك فعل الكثير.

(صالح) و(هياء) يحدقان بنظرات (مراد) ويستمعان لكلماته بتعجب وتوجس..

(مراد) وهو يكسر جديته ويضحك قائلاً: وما غير البنزين يثير مشاعرك؟

(صالح): أخبرني أنت قبلها.

(مـــراد) وهـــو يزفـــر مبتسـماً: مـن أيـن أبـدأ؟.. علاقتـي مـع الـروائح قـديمة منـذ نعومـة أظفـاري.. كنـت أحـب أن أسـتنشق كـل

شــيء تقريبــاَ.. أعتقــد أن جمــيع حواســي

اجتمعت في أنفي.. أحببت رائحة التبغ، وعشقت رائحة المطر، حتى الملابس التي تخرج للتو من مجفف الملابس كانت عالماً آخر بالنسبة لي عندما أغوص بوجهي في

كومة ساخنة منها.. الجلد المدبوغ وما أدراك ما الجلد المدبوغ.. ياه.. عالم من الجمال.

(صالح): إلى هذه الدرجة تحب الروائح؟

(مراد) ودمعة تلمع في عينه: وأكثر يا (صالح).. وأكثر.

(صالح) وهو يبتسم: أحب نسيم البحر.. الحطب المحترق..

(مراد) وهو يضم كفيه: روائح جميلة جداً.

(صالح): لكن أيها يأخذ نصيب الأسد من إعجابك؟

(مراد) دون تردد: رائحة البرتقال..

(صالح) بتعجب: البرتقال؟

(مراد): نعم، فلا رائحة أقرب لقلبي من رائحته.

(صالح): ولِمَ البرتقال بالذات؟

(مراد) وهو يبتسم: تربطني به ذكرى جميلة أتذكرها كلما شممت رائحته.

(صالح): هل يمكن أن أسأل ما هي؟

(مراد) وهو ينهض: قبل أن أخبرك، دعْني أرِكَ شيئاَ.

توجه (مراد) لغرفته ودخل إليها، وبعد ثوانٍ خرج وبيده زهرة بنفسجية جافة ومدها لـ(صالح) مبتسماً وقال: خذ نفحة من هذه.

(صالح) وهو يمسك الزهرة و(هياء) تشاهد الزهرة بتوتر: ما هذه؟

(مراد) وهو يجلس: قبل أن أقع في غرام رائحة البرتقال كانت هذه عشقي الأول بين كل الروائح.

(صالح) وهو يشم الزهرة: فعلاً رائحتها جميلة.

(مراد) مبتسماً: ألم أخبرك؟

(صالح) وهو يعيد الزهرة لـ(مراد): لم أكن أعلم أن الزهور تحتفظ بأريجها بعدما تموت وتجف.

(مراد) وهو يمسك الزهرة: لكن هذه ليست كبقية الزهور.

(صالح): كيف؟

انقطع حوارهما عندما سمع الجميع نداء (زكية) لـ(صالح) من الشقة الأخرى، فنهض وهو يحمل (هياء) ويقول مبتسماً: يبدو أن لقاءنا انتهى لليوم.

(مراد) وهو يقف: لكنك لم تجلس سوى وقت قصير.

(صالح): أخبرتك بأنها لا تطيق فراق ابنها.. سوف أزورك مرة أخرى بلا شك.

(مراد) مبتسماً: لا بأس، رافقتك السلامة.

(صالح): لِمَ لا تنضم إلينا على الغداء اليوم؟

(مراد) وهو يضحك: لا، شكراً فزوجتك لا تتقبلني كثيراً.

(صالح) مبتسماً: (زكية) هي صاحبة الدعوة وليس أنا.

(مراد): على الأرجح أنها كانت تتهكم.

(صالح) مبتسماً: أتفق معك، فنبرتها كانت تشير لذلك.

(مراد) وهو يقف ويضع يده على كتف (صالح): همك سينجلي قريباً.. أعِدُك..

ابتسم (صالح) باستغراب، لكنه لم يرد على جاره ورحل نحو شقته..

بعد تلك الزيارة بيومين فقط، وكما اعتادت (هياء) آخر اليوم المبيت مع (زكية) في فراشها بينما ينام (صالح) في الغرفة الصغيرة المجاورة لهما، أحست في منتصف

الليل بحاجتها للذهاب لدورة المياه، فبدأت تهز كتف (زكية) لإيقاظها، لكنها لم تستيقظ، ومهما حاولت لم تستجب لها، فنهضت وبدأت تحرك وجهها بيدها

وكانت صدمتها كبيرة عندما أشعلت النور ورأت عينيها مفتوحتين والزبد يخرج من فمها. صرخت (هياء) بقوة ليدخل (صالح) الغرفة على عجالة، ويرى زوجته

متخشبة على فراشها بذلك المنظر البشع المرتسم على ملامحها. أسرع (صالح) نحو (هياء) وحملها وقد بدأت بالبكاء، وخرج من الغرفة واتصل بالشرطة فوراً.

نقلت (زكية) للمستشفى بالرغم من أن الإسعاف أعلن وفاتها فور وصولهم والكشف عليها، ولم يبقَ سوى محقق مع شرطي كان يقف عند الباب.

(المحقق): أقدر حزنك لخسارتك يا أستاذ (صالح)، لكن هناك بعض الأسئلة التي يجب أن نسألها الآن.

(صالح) وهو مشوش: حسناً، لا بأس.

(المحقق) وهو يشير لـ(صالح) بالجلوس: تفضل.

في تلك الأثناء كانت (هياء) مع (صالح)، وعند جلوسه للحديث مع المحقق أجلسها في حجره.

(المحقق): لِمَ اتصلت بالشرطة قبل الإسعاف؟

(صالح) بتوتر: ماذا؟.. أنا..

(المحقق): لقد تأكدنا أنك اتصلت بنا قبل الإسعاف.. هل كنت تبلغ عن جريمة؟

(صالح) وتوتره بدأ بالازدياد: لم أفكر وقتها فقد كنت مصدوماً، لكني اتصلت بالإسعاف.

(المحقق): لكن ردة فعلك الأولى هي بمخابرة الشرطة، وهذا أمرٌ غريب بل يدعو للشك.

(صالح): الشك؟.. هل تشك أني قتلت زوجتي؟!

(المحقق): ومن قال إنها ماتت مقتولة؟.. تقرير الطب الشرعي لم يصدر بعد.

(هياء) ترفع نظرها نحو (صالح) الذي بدأ جبينه يتعرّق..

(صالح) ويداه ترتجفان: أنا.. أنا..

(المحقق): أنت مقبوض عليك بتهمة الشروع في قتل زوجتك.

(صالح): لا!.. أنا لم أقتلها!

(المحقق) وهو يشير للشرطي الذي كان معه: خذ الطفل منه.

(صالح) وهو يشد على (هياء) ويصرخ: أنا لم أقتلها!

(المحقق) وهو ينهض: لا تعرض ابنك للخطر!.. سوف تأتي معنا شئت أم أبيت.

(صالح) يخفف من قبضته على (هياء) وهو مكسور: وماذا عن ابني؟

(المحقق) وهو يمد يده ويسحب (هياء) بهدوء: لا تقلق، سنسلمه لأي قريب من أقربائك حسب رغبتك حتى ننتهي من التحقيق.

وما إن وصلت (هياء) للمحقق حتى انقض الشرطي على (صالح)، وكبله بالقيود وساقه للخارج بعدما أعطاهم رقم أخته كي يتصلوا بها لأخذ ابنه. خرج الشرطي مع (صالح) وترك المحقق مع (هياء) المصدومة مما يحدث..

(المحقق) مبتسماً: لا تقلق يا بني، كل شيء سيكون على ما يرام.

خلال جلوسهم في انتظار أخت (صالح) تلقى المحقق اتصالاً من المشرحة، وقد كان أوصاهم سابقاً بأن يعلموه بأي شيء غريب يكتشفونه خلال التشريح فوراً، وعدم انتظار التقرير النهائي. ولفت انتباه (هياء) عبارة قالها المحقق وهو مندهش خلال حديثه عبر الهاتف وهي: "ماذا؟.. برتقال؟.. ماذا تعني أن الجثة تفوح منها رائحة البرتقال؟.. حسناً! حسناً! إذا اكتشفت أي شيء آخر فاتصل بي".

أغلق المحقق الخط وحمل (هياء) وتوجه نحو غرفة النوم التي كانت الجثة فيها قبل أن يحملها الإسعاف، وبدأ يتفحص المكان بنظره من عند عتبة الباب. لم يكن بالمكان شيء غريب أو رائحة غريبة، ومع ذلك بقي المحقق بعدما أنزل (هياء) يبحث في المكان لشكه بأن هناك أمراً مريباً. كانت (هياء) تشارك المحقق شكه خاصة

بعد سماعها كلمة "البرتقال"، التي لم تسمعها إلا عند جارهم (مراد) عندما كان يتحدث بشغف عن رائحة البرتقال. قررت المجازفة ومحاولة لفت انتباه المحقق

لشقة جارهم بقول: جارنا يحب البرتقال..

التفت المحقق إليها وقال باستغراب: ماذا؟.. ماذا قلت أيها الصغير؟

(هياء) وهي تحاول تقمُّص دور الطفل دون إثارة الشكوك: جارنا.. يحب البرتقال..

(المحقق) وهو يدنو بالقرب منها: وأين جاركم هذا؟

أشارت (هياء) بإصبعها تجاه الباب، فحملها المحقق وبدأ يسير معها حتى أوصلته لباب شقة (مراد)، ثم أنزلها وأبعدها قليلاً وقال وهو يخرج مسدسه من جيبه:

هل أنت متأكد أيها الصغير أن هذه شقة جاركم الذي يحب البرتقال؟

(هياء) تهز رأسها بالموافقة بصمت..

طرق المحقق الباب بيد وباليد الأخرى حرر زر الأمان في مسدسه..

لم يجد المحقق رداً، فكرر الطرق مرة أخرى، وخلال طرقه بدأ الاثنان يشمان رائحة نفاذة من عبير البرتقال وقد كانت قوية.

(المحقق) لـ(هياء): يبدو أنه كان معك حق أيها الصغير.

بمجرد أن قال المحقق تلك العبارة حتى فُتح الباب أمامهما فجأة، ليقفز (مراد) وهو شبه عارٍ وينقض على المحقق ويبدأ بالصراع معه على الأرض، وهو مغطى

بمادة صفراء لزجة تفوح برائحة البرتقال المركزة. سقط سلاح المحقق من يده فاضطر للمقاومة بيديه المجردتين من السلاح، لكن الغلبة لم تكن في مصلحته، فقد

انهال عليه (مراد) باللكمات التي أدمت وجهه، فخارت قواه ولم يعد يستطيع

المقاومة. بدأ (مراد) يبحث بنظره يميناً وشمالاً عن المسدس، لكنه لم يجد سوى

رصــاصة منــه تســتقر فــي ظـهره بعـدما سـمع دوي إطلاقـها. وقـف يتـرنح والتفـت خلفـه لـيرى (هيـاء) ممسـكة بالسـلاح وفوهتـه يتصـاعد منـها سـلسلة مـن الـدخان. بـدأ

(مراد) الملطخ بتلك المادة الصفراء اللزجة بالتقدم نحو (هياء) وهو يمد يده لينزع منها المسدس، لكنه وجد رصاصة أخرى تخترق قلبه ليسقط بعدها على الأرض

صريعاً. رمت (هياء) السلاح جانباً بعدما تيقنت من موته، وجرت نحو المحقق الذي كان في حالة مزرية، لكن ـ وقبل وصولها إليه ـ ظهر وميض قوي في وجهها لتجد

نفسها أمام أبيها في القصر، وهو مندفع باتجاهها ليأخذ الكتاب من يدها.

العورة التي سترتنا

قبل أن تصل يد والد (هياء) للكتاب الذي كان بيدها رمت به في المدفأة التي كانت تشتعل بجانبهما، فوقف الأب يشتعل غضباً كالنار التي كانت تلتهم صفحات

الكتاب وقال بغضب: متى تنوين التصرف كفتاة مهذبة؟!.. هل تريدين أن ينتهي بكِ المطاف كأمك؟!

(هياء) بعصبية: أمي؟!.. هل أصبحتَ الآن تعايرني بأمي؟!

(الأب) بصوت مرتفع: أنتِ!.. أمك!.. كل النساء!.. لا تختلفن بعضكن عن بعض!.. كلكن تنتظرن الفرصة للانفلات!

(هياء) بعصبية وهي تدمع: هل هذا ما تظنه بي يا أبي؟!

(الأب) بتجهُّم وغضب: لن تذهبي لذلك العجوز مرة أخرى، وستبقين حبيسة هذا المنزل ما حييت!

(هياء) بلا اكتراث: يمكنك أن تحبس جسدي، لكن روحي ستبقى طليقة..

رفع الأب يده في نية للطم ابنته، لكنه عندما رأى في عينيها إصراراً لم يَرَهُ من قبل أنزل يده وقال بهدوء: أنتِ فتاة ويجب أن تتصرفي كذلك.

(هياء) بعصبية وسخرية: وكيف يجب أن تتصرف الفتاة يا أبي؟!.. أخبرني!.. لقد حرمْتَني أمي منذ صغري ولم أجد أحداً يرشدني كي أكون فتاة مهذبة وصالحة

لأعجبك!

(الأب) بهدوء: أنا لم أقصد ذلك.

(هياء) بصوت مرتفع: وإن كنت قصدتها!.. جرحك قديم وأنت تفتحه في كل مرة يحاول فيها الالتئام!

(الأب) بهدوء وهو ينظر للأرض: عُودي إلى غرفتك.

(هياء) بغضب وهي تتوجه لباب القصر: سوف أذهب لمن تذكر يوم ميلادي، وليس لمن يذكرني بأني ناقصة ولا قيمة لي!

(الأب) وهو يصرخ: عودي إلى هنا!

خرجت (هياء) ولم تكترث لنداء أبيها وأغلقت باب القصر خلفها بقوة..

لم يلحق الأب بها ولم يوجه أحداً من الحراس بتعقبها، بل جلس على أريكته وعبأ غليونه بالتبغ وأشعله وبدأ يدخن بهدوء غريب.

(حليمة) من على مقربة من السيد الكبير: هل تريد مني اللحاق بها يا سيدي؟

(الأب) وهو يحدق بالأفق: لا.. اُتركيها وشأنها الآن.

لم تذرف (هياء) دمعة واحدة بعد خروجها من المنزل حتى وصولها لعتبة باب منزل (أمين)، الذي طرقته بهدوء. وبمجرد أن فتح لها الباب بدأت بالبكاء كطفلة،

فما كان منه إلا أن ابتسم وعانقها وهو يقول: لا أظن أن بكاءَك هذا بسبب الكتاب..

(هياء) وهي تبكي ورأسها على صدر (أمين): لا!

(أمين) وهو يضحك ويطبطب على ظهرها: هيا لندخل لتحكي لي عمّا حدث.

دخل الاثنان المنزل، وبعدما سكب (أمين) كما اعتاد كوباً من القهوة لـ(هياء) استمع لكل ما كان يفيض من قلبها من سخط على أبيها مما قاله لها، وأضافت أنه

كان دائماً يعاملها بقسوة لأنه كان يريد ولداً، وأنه يرى أن كونها بنتاً فهذا الأمر ينتقص منها ولا يؤهلها لتحمل مسؤولية أملاكه وشركاته، وأخبرته أيضاً بأنها

اضطرت لرمي الكتاب في المدفأة كي لا يقرأه أبوها.

(أمين) وهو يأخذ رشفة من قهوته: وماذا تظنين أنتِ؟

(هياء) وهي تمسح دموعها: ماذا أظن في ماذا؟

(أمين): هل تعتقدين أنكِ ناقصة بالفعل.. أقصد عن الرجال.. أو الذكور كي أكون أدق.

(هياء) بحماس وتجهُّم: بالطبع لا!.. النساء متساويات تماماً مع الرجال!

(أمين): هل تؤمنين حقاً بهذا الكلام؟

(هياء): بالطبع يا (أمين)، وإلا فما قلت ذلك.

(أمين): إذاً، فأنتِ حمقاء.

(هياء) بتعجب: ماذا؟.. حمقاء؟!.. هل تعتقد أن الرجال أفضل من النساء؟

(أمين) ينهض ويهز رأسه بخيبة أمل ويتوجه لباب السرداب: اِتبعيني..

(هياء) وهي تلحق به مبتهجة: هل سأقرأ كتاباً جديداً؟!

(أمين) وهو ينزل من سلالم السرداب المظلم: اسبقيني وأشعلي الشموع.

نزلت (هياء) في السرداب المظلم على عجالة و(أمين) من خلفها يقول: احترسي كي لا تقعي!

أشـعلت (هيـاء) الشـموع وجلسـت علـى الكنبـة الجلـدية وعلـى وجـهها ابتسـامة عريضـة وهـي تـؤرجح سـاقيها للأمـام والخلـف، وعنـدما رآهـا (أمـين) بعـد نزولـه بتلـك

الحالة قال: لِمَ كل هذه السعادة؟

(هياء) وهي مبتهجة: لأني سأقرأ كتاباً جديداً!

(أمين) وهو يبحث بنظره بين الرفوف: كيف وجدتِ كتاب "عبير البرتقال".

تغير وجه (هياء) وأنزلت رأسها وقالت: أخبرتك قبل قليل أنني اضطررت لرميه في النار كي لا يقرأه أبي بعدما قرأته.

(أمين) وهو يمد يده ويسحب كتاباً من أحد الرفوف: قيمة الكتاب بمحتواه وليس بأوراقه..

(هياء): ألست غاضباً مني لأني لم أحافظ على الكتاب؟

(أمين) وهو يضع كتاباً على الطاولة أمامها: أنا لا أغضب.

(هياء) وهي تتجاهل الكتاب: كل إنسان يغضب.

(أمــين): الغضــب هــو أقصــر طــريق للقبــر.. وقتــي أثمــن بكثــير مــن أن أغضــب علــى أي شــيء.. مـن المفتـرض أنـكِ أدركـتِ ذلـك بعـد الكتـب التـي قرأتـها ورؤيتـك لكـل تلـك

الحَيَوات.

(هياء) وهي تنظر لعنوان الكتاب الذي وُضع أمامها: "العورة التي سترتنا".. هل هذا كتابٌ يناسب عمري؟

(أمين) وهو يضحك بقوة ويهم بالتوجه نحو السلم المؤدي للطابق العلوي: عندما تنتهين منه أعيديه للرف.

(هياء) وهي ترفع الكتاب وتحدق بعنوانه الغريب: حسناً..

فتحت الكتاب ليضيء في وجهها وهج نورٍ قوي غطاها بالكامل..

فتحــت عينيــها لتجــد نفســها فــي قاعــة كبـيرة تجلـس بـين جمـهور غفـير مـن النسـاء مـن أعمـار مختلفـة، ولـم يكـن بينـهن رجـل واحـد. كـانت القاعـة مكتظـة والأحـاديث

الجانبية بين الجالسات تُحدث طنيناً كطنين النحل. وقد رأت نفسها فتاة في العشرينيات من عمرها بقيت تراقب المكان وتستوعب ما يدور حولها حتى تحدثت فتاة

كانت بجانبها وقالت: هل هذه أول مرة تحضرين محاضرة لـ(الرؤوم)؟

(هياء): لماذا؟

(الفتاة) وهي تبتسم: القائدة الكبيرة لنا.. لا أحد يعرف اسمها، لكنها تُكنى بـ(الرؤوم)

(هياء) وهي تنظر حولها: هل نحن جيش؟

(الفتاة) وهي تضحك: لا، لكن إذا كانت الحرب ضد الرجال فربما.

(هياء) وهي تلتفت إلى الفتاة: ماذا تقصدين؟

انقطــع حــديثهما عنــدما بــدأت أصــوات طــرق قويــة تعــم المكــان أسـكتت كـل الحاضـرات اللاتـي وجـهن انتباهـهن وأنظـارهن للمسـرح أمامـهن، والـذي خـرجت مـن بابـه

الخلفي امرأة في منتصف الأربعين من عمرها تقريباً، واعتلت المنصة وبدأت تجول بنظرها بين الحاضرين بصمت وعلى وجهها تبدو صرامة وحدة، ثم قالت بصوت

مرتفع مسموع للجميع من خلال ميكرفون أمامها عززته السماعات المنتشرة في أرجاء القاعة: يوم آخر بلا رجال!

(الحضور) يهتفن بصوت واحد عدا (هياء): بلا هم!

(الرؤوم) بصوت مرتفع: وبلا غباء!

(الحضور) بصوت واحد عدا (هياء) التي التفتت باستغراب خلفها لتشاهد المتحمسات وهن يرددن: وبلا قمع!

(الرؤوم): شكراً لحضوركن.. محاضرتنا اليوم ستكون عن موضوع لا يقل أهمية عمّا قلناه سابقاً، وهو عن تاريخنا كبنات حواء على هذه الأرض!.. أين المُخترعات

عبر التاريخ؟.. أين المُكتشفات؟.. أين إنجاز نصف سكان هذا الكوكب؟.. هل يُعقل أن كل إنجاز غيّر مسار البشرية كان بيد رجل فقط؟!.. هل يعقل أن المرأة وقفت

متفرجة منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا ولم تقدم شيئاً أسهم في نهضة الإنسان؟!

(هياء) وهي تهمس في أذن الفتاة التي تحدثت معها سابقاً: لِمَ تصرخ هكذا؟

وضعت الفتاة سبابتها على شفتيها وعينها لا تزال منصبة على المنصة وهي تقول لـ(هياء): الحديث ممنوع خلال المحاضرة.

(الـــرؤوم) وهـــي تســـتأنف كلامــها: الإجابــة المنطقيــة هــي بــالطبع لا.. وألــف لا!.., لكــن أيــن إنجازاتــها؟.. أيــن إنجــازات حــواء وبناتــها؟!.. ومــن المســؤول عــن إخفــاء هــذه

الإنجازات وقمع صاحباتها؟!.. لا يوجد رجلٌ لم يستفد من امرأة بشكلٍ أو بآخر!.. أو بالأحرى لا يوجد اختراع غير مجرى التاريخ إلا وكان للمرأة يدٌ فيه، لكننا لم

ولن نسمع ذلك لأنها كانت غالباً تدون تحت اسم "مجهول" فقط، لأن مَنْ خلفها كان امرأة! وكأن الأمر جريمة لأن الفاعل هنا من منطقهم الضيق والعقيم لا

يمكنه أن يقترفها لعجزه التام!... هل تعرفون لماذا؟.. لأن مَنْ كتب تلك الكلمة "مجهول" ودوّن أحداث التاريخ منذ بدايته حتى يومنا هذا كان رجلاً..

أنزلت (الرؤوم) نظرها لورقة كانت أمامها وبدأت تمعن النظر فيها لثوانٍ..

(هياء) تشير للفتاة عمّا إذا كان بإمكانها الحديث الآن، لكن الفتاة أشارت لها بالصمت والتركيز مع المحاضرة..

رفعت (الرؤوم) رأسها وقالت بصوت مرتفع: حقيقة يتجاهلها البعض وينكرها الكثير، وهي أن أغلب النساء متيقنات من أن الرجل لا يملك قدرة عقلية أو فكرية

تفوقهن، بل على الأرجح أنهن متقدمات عليه بمراحل، لكن تجدن أن أغلب هؤلاء النسوة لا ينكرن على الرجل انتقاصه لهن ولعقولهن كلما سنحت له الفرصة..

لماذا؟.. هل لأنهن مدركات لذلك فاكتفين بذلك الإدراك؟.. أم لأنهن بلغن من التفوق العقلي الذي يمنعهن من التعامل مع فئة أدنى منهن عقلياً مثلما يتعامل

الشخص مع طفل يصر على أنه أقوى منه؟.. لن تجدن أحداً يبرر قوته لطفل يدعي عكس ذلك إلا في بعض الحالات التي يكون فيها معيار الذكاء للمتحدث أدنى

من المعتاد. أغلب الرجال ينجذبون للمظهر والقشور الخارجية للوهلة الأولى، وهذا أكبر دليل ومؤشر صارخ للسطحية التي يعيشونها حسب تفسير جميع كتب

علم النفس والاجتماع، على عكس المرأة التي تنجذب للجوهر في معظم الأمور التي تواجهها، وهذه الحقيقة وحدها كافية كدليل على عمق تفكير جنسنا ومدى

تفوقه العقلي بالمقارنة مع نصفه الآخر، لكن العالم الذكوري اختار مصطلح "الحس الأنثوي" ليصف هذا التفوق العقلي ليلطف الحقيقة ويستر عورته!

(هياء) وهي تراقب حماس (الرؤوم) في خطابها وتقول في نفسها: من هذه المرأة الحديدية؟

(الرؤوم) وهي تفتح علبة جلدية وتُخرج منها نظارة طبية صغيرة وتلبسها وتنظر للورقة التي كانت معها وتستأنف حديثها:

أكثر الرجال يرون أنفسهم محظوظين لأنهم وُلدوا ذكوراً وأن ما يملكونه من قدرات عقلية وجسدية تخولهم الهيمنة على مقدرات الأرض بمَنْ فيها نساؤها! وفي

المقابل لا تفكر النساء بهذه العقلية الانتهازية.. حتى القدرات الجسدية بنظرة بسيطة للمخاض والولادة تعطينا مؤشراً جلياً وواضحاً لما يمكن للمرأة أن تتحمله

من ألم وإرهاق، لكنها غالباً تختار الصمت وعدم مجادلة الرجل في وهمه.. وأكرر السؤال مرة أخرى.. لماذا؟!

لمــاذا نبقــى نحــن تلــك المخلوقــات المتفوقـة عقليـاً وحسـياً وفـي نظـري جسـدياً أيضـاً صـامتات أمـام الـهيمنة الـذكورية؟ هـل هـو ضـعف؟!.. لا أعتقـد.. هـل هـو خـوف؟!.. لا

أظن.. ما السبب إذاً؟!

صمت الجميع، لكن (هياء) تحمست ورفعت يدها ظناً منها أن السؤال حقيقي وليس مجازياً، فأسرعت الفتاة وأنزلت يدها قبل أن تنتبه (الرؤوم) لها.

(الرؤوم) وهي تخلع نظارتها وتطوي الورقة التي معها: لنأخذ استراحة بسيطة.

وقف الحضور وبدأ بالتصفيق بحرارة بينما كانت (الرؤوم) تسير مبتعدة عن المنصة..

وقفـــت (هيـــاء) تـــراقب حمـــاس التصـــفيق وهـــي مندهشـــة، وتـــدريجياً بــدأت تخلــو المــدرجات مــن الحاضــرات، فســألت الفتــاة التــي كــانت واقفــة بجانبــها: هــل انتــهت

المحاضرة؟

(الفتاة): لا.. هذه مجرد استراحة.

(هياء) وهي تراقب النساء وهن يخرجن من بابٍ كبير في آخر القاعة: لكنهن يَرْحَلن.

(الفتاة): إنهن ذاهبات للمقهى.. هل ترغبين في تناول كوبٍ من الشاي معي؟

(هياء): هل لديكم قهوة؟

(الفتاة) وهي تبتسم: بالطبع.

(هياء) وهي تضع يدها على رأسها: أظن أني أحتاج واحداً.

خرجت الاثنتان من القاعة الكبيرة ودخلتا في مكانٍ واسع انتشرت فيه الطاولات الصغيرة، ويتوسط ذلك المكان مقهى يقدم المأكولات الخفيفة والمشروبات الساخنة

والباردة. أجلست الفتاة (هياء) وقالت: سوف أذهب لأحضر لنا كوبين من القهوة.. ما سكرك؟

(هياء) وهي تتمعن في الجالسات المنشغلات بأحاديث ونقاشات جانبية محمومة مع بعضهن بعضاً: كما تشائين.

توجهت الفتاة للمقهى و(هياء) لا تزال تجول بنظرها في المكان حتى وقعت عيناها على المرأة التي كانت تلقي المحاضرة، وكانت تجلس وحدها تقرأ كتاباً وتحتسي

كوباً مجهول المحتوى. حدقت (هياء) بها مطولاً حتى كُسر تحديقها بها عندما رفعت (الرؤوم) رأسها ونظرت لـ(هياء) مباشرة وكأنها أحست بمراقبتها لها. بدأت

(هياء) تلتفت يميناً وشمالاً في حالة من الارتباك، وعندما حاولت اختلاس النظر مرة أخرى نحو (الرؤوم) رأت أنها عادت لقراءة كتابها كما كانت. رجعت الفتاة

بكوبين من القهوة ووضعت أحدهما أمام (هياء) وهي تقول: أتمنى أن يعجبك.

(هياء) وهي ترفع الكوب وتأخذ رشفة منه وعينها مسلطة على (الرؤوم): ما حكاية تلك المرأة؟

(الفتاة) وهي تجلس أمامها: أي امرأة؟

(هياء) وهي تضع الكوب على الطاولة وتنظر للفتاة مباشرة: المرأة التي كانت تلقي المحاضرة.

(الفتاة) وهي تبتسم: تقصدين السيدة (الرؤوم)؟

(هياء): نعم.. ما حكايتها؟

(الفتاة): لا حكاية لها.

(هياء): حماسها غريب.

(الفتاة): هذا يسمى إخلاصاً.

(هياء): إخلاصاً؟ لماذا؟

(الفتاة): هذا إخلاصٌ للقضية.

(هياء): أي قضية؟

(الفتاة): قضية المرأة.

(هياء): وما قضية المرأة؟

(الفتاة) بتعجب: ماذا تقصدين بهذا السؤال؟

(هياء): هل السؤال غامض لهذا الحد؟

(الفتاة) وهي تأخذ رشفة من قهوتها: لا، ولكن..

(هياء) وهي توجه نظرها لـ(الرؤوم): هل هي ناشطة نسوية؟

(الفتاة): كلنا هنا نؤمن بما تؤمن به بغض النظر عن المسمى.

(هياء) وهي تعيد نظرها نحو الفتاة وترفع كوب القهوة وتقربه من شفتيها: ألا تعتقدين أنها مزيفة؟

(الفتاة): ماذا تقصدين بمزيفة؟

(هياء) وهي تضع الكوب على الطاولة: أقصد أنها لا تؤمن بالكثير مما تقوله، وأن الأمر مجرد مسرحية.

(الفتاه) بتعجب: وما الذي يدفعك لمثل هذا الاعتقاد؟

(هياء): هو إحساس لا أكثر، لكنني أنوي التأكد منه.

(الفتاة) بقلق: وكيف تنوين القيام بذلك؟

(هياء): بالحديث معها مباشرة.

(الفتاة) مبتسمة: هذه فرصتك الآن.

(هياء): فرصتي لماذا؟

(الفتاة): للسؤال.. ألم ترفعي يدك سابقاً في المحاضرة؟.. (الرؤوم) وحدها الآن.

(هياء): في المحاضرة لم أكن أريد سؤالها فقط، كنت أريد أن أعترض على نقطة في كلامها أيضاً.

(الفتاة): يمكنك ذلك أيضاً؛ فـ(الرؤوم) تتقبل الرأي الآخر برحابة صدر.

(هياء) وهي توجه نظرها نحو (الرؤوم): لا يبدو أنها ممن يقبلن سماع صوت غير صوتها.

(الفتاة): جربي.. لن تخسري شيئاً.

(هياء) وهي تقف وتسير تجاه طاولة (الرؤوم): سنرى.

(الفتاة) وهي تلحق بـ(هياء) بقلق: لكن حاولي ألا تستفزيها.

(هياء) وهي تصل إلى طاولة (الرؤوم): وما الغرض من السؤال إذاً؟

رفعت (الرؤوم) رأسها ونظرت لـ(هياء) وهي تقف أمامها مبتسمة..

(هياء): هل يمكنني أن أسألك سؤالاً أستاذة (الرؤوم)؟

(الرؤوم) وهي تعيد نظرها لصفحات الكتاب الذي بين يديها: يمكن توجيه سؤالك خلال المحاضرة.

(هياء): قد لا تتاح لي الفرصة؛ لذلك أريد أن أسألك الآن.

(الفتاة) بتوتر: لنذهب الآن ولنترك الأستاذة براحتها.

(هياء): أنا لست خائفة منها مثلكم.

(الرؤوم) ترفع نظرها وتحدق بـ(هياء) بصمت..

(هياء) وهي تبتسم: هل ستجيبينني عن سؤالي؟

(الــرؤوم) تُخــرج زهـرة بنفسـجية مـن حقيبتـها وتضـعها فـي وسـط الكتـاب وتغلقـه ثـم تقـول بعـدما رفعـت كـوب قـهوتها لتأخـذ رشـفة منـه: كـيف أجـيب عـن سـؤال لـم

أسمعه بعد؟

(هياء) سارحة في طرف الزهرة البنفسجية المطل من صفحات الكتاب المغلق..

(الفتاة) تهز كتف (هياء) وتقول: هيا اسألي!

(هياء) وسَرَحانها ينقطع: سؤالي..

(الرؤوم) وهي تضع الكوب على الطاولة: هل ستضيعين الكثير من الوقت؟

في تلك الأثناء بدأت الحاضرات بالتجمع حول طاولة (الرؤوم) يراقبن ما يحدث باهتمام، لأنه لا امرأة في العادة تجرؤ على الحديث معها خلال فترات الاستراحة،

وكسر (هياء) لذلك العرف كان لافتاً للانتباه.

(هياء) وقد بدأت بالتوتر عندما لاحظت أعين الناس من حولها وهي تراقبها: أنتِ جيدة بالكلام، لكن هل أنتِ جيدة بالحوار مع مَنْ لا يتفق معك؟

نظرت (الرؤوم) لـ(هياء) باستخفاف ثم قالت: هل هذا هو سؤالك؟.. لِمَ لا تجربين؟

(هياء) بتوتر: ماذا تقصدين؟

(الرؤوم) بصوت مسموع لمن حولها: لنَرَ قدرة هذه الفتاة في محاورتي..

(هياء) وهي تجلس أمام (الرؤوم) وتقول بهدوء: أنتِ تعتمدين على إثارة الجماهير كي يبدو كلامك منطقياً وذا معنى، لكن الحقيقة هي أن كلامك في أغلبه خاوٍ.

(الرؤوم) تبتسم وتقول: هل لديكِ كلام آخر؟

(هياء): نعم لدي سؤال.

(الرؤوم) مبتسمة بسخرية: تفضلي.

(هياء): هل أنتِ أم؟

(الــرؤوم): الأمومــة شــعور لا مثيــل لــه، ولــم ولــن يحــس بــه أي رجــل! ولا يحــق لأي رجــل أن يصــف أو يحــاول وصــفه؛ فــهو شــرفٌ وتشــريف للأنثــى التــي أُوكلــت لــها

مسؤولية رعاية كل نفسٍ عند دخولها لهذه الدنيا حتى تستطيع الاعتماد على نفسها أو يستطيع الاعتماد على نفسه، وفي المقابل ومن منطلق الحسد والغيرة لهذا

الشرف ابتدع الرجل مصطلح "الأبوة" فقط كي يجاريها وينافسها في ذلك الشرف.

(هياء) وهي تبتسم بتهكم: ما هذه الإجابة النموذجية المنمقة؟.. شعرت وكأنني أتحدث مع آلة وليس إنساناً يحمل مشاعر.. ثم ما دخل الرجل في الموضوع؟.. لِمَ

تقحمينه في كل كلامك؟

(الــرؤوم) بتجــهُّم: "الأبــوة" التــي تُذكــر صــفاً بصــف مــع الأمومــة لا تعــادل عُشــر مــا تشــكله الأمومــة مــن تضــحيات وســمو فــي المشــاعر والحــب غــير المشــروط؛ فلــيس مــن

المستغرب أن يهجر الأب أطفاله سواء كان حيواناً أم بشراً، لكنه من الغرائب النادرة أن تجد أماً تهجر أطفالها لأغراض دنيوية!

(هياء) وهي تضحك: هل أنتِ جادة؟!.. ألا تستطيعين الحديث دون إقحام حياتك الشخصية في الموضوع؟

(الرؤوم) بتجهُّم: حياتي الشخصية؟!

(هياء): نعم، فمن الواضح أن حديثك كله نابع من معاناة شخصية عانيتِ منها أنتِ وليس معاناة كل النساء.. أنتِ إنسانة مكسورة أو صاحبة تجربة سيئة مع رجل، وربما لعدم قدرتك على الاقتصاص منه قررتِ الأخذ بثأرك من كل الرجال.

(الرؤوم) وهي تضرب براحة يدها بقوة على سطح الطاولة: كلام فارغ!

(هياء) بابتسامة خبيثة: هل تتمنين أن تكوني رجلاً؟

(الرؤوم) بغضب ونبرة صوت ساخطة ومرتفعة قليلاً: ماذا؟!.. أنا لست حمقاء كي أتمنى ذلك! قد تقع بعض النساء ضحايا لهذه الفكرة الغبية لاقتناعهن بأنهن أقل شأناً من الذكور حولهن، وذلك من باب الارتقاء، غير مدركات أنه لو حدث ذلك فعلاً فسيكون تطوراً للأسفل!.. فكرياً وعقلياً وعاطفياً على أقل تقدير. المرأة تتعـــامل غـــالباً مـــع الرجـــل كـــالطفل لـــيس غبـــاءً منـــها، لكـــن تفـــهماً لسـطحيته، فـــهي ـ وبســبب تطورهـــا العقلـــي ـ مزودة بقـــدرات علـــى التعـــامل مـــع التقلبـــات المزاجيـــة والقرارات الارتجالية التي يتخذها الرجل بحقها وبحق نفسه كل يوم.. لذا كانت هي الطرف المتنازل معظم الوقت، وقد فسر الرجال بسطحية تفكيرهم هذا الرقي الفكري على أنه ضعف وهوان، واختارت المرأة بسبب تفوقها العقلي على الرجل ألا تفسر له الحقيقة لأنه لن يفهمها حتى وإن فعلت!

(هياء): لِمَ أنتِ غاضبة هكذا؟

(الرؤوم) بتجهُّم: أنا لست غاضبة!

(هياء): تحملين في صدرك هماً كبيراً يؤججك كلما تحدثتِ.

(الرؤوم) وهي تعتدل في جلستها وتدفع نظارتها بسبابتها للوراء محدقة بـ(هياء) قائلة: هل انتهينا؟

(هياء): لا أعرف.. هل يمكنك احتمال المزيد؟

(الرؤوم) بوجه ساخط: احتمال المزيد؟!.. عن ماذا تتحدثين؟!

(هياء): من الواضح أنكِ تعانين في كل مرة تجيبين فيها عن سؤالٍ من أسئلتي.

(الرؤوم) تضحك بسخرية: لا تعطي نفسك أكبر من حجمك! من الواضح أنك من النسوة اللاتي يرَيْنَ أنهن أقل من الرجل، لذلك لا أستغرب طريقتك المهزومة في الكلام!

(هياء) وهي تسند ظهرها للكرسي: أكمل إذاً؟

(الرؤوم): لدي محاضرة أريد إكمالها؛ لذا لا تطيلي بالأسئلة.

(هياء): لا تقلقي لقد حصلت على الإجابة التي أريد، لكن بقي سؤالان فقط.

(الرؤوم): قوليهما كي ننتهي.

(هياء): من يجيد اختيار شريك حياته أكثر.. الرجل أم المرأة؟

(الرؤوم) بتهكم: الرجل بكل سذاجة يمكن أن ينجذب لأي امرأة ذات مظهر خارجي لافت؛ لأن عقله السطحي يكتفي بالقشور الخارجية ويمكن أن يقرر الزواج بها دون أن يتحدث معها مرة واحدة فقط، لكونها تحمل صفاتٍ جسدية راقت له، لكن المرأة السوية لا تفعل ذلك بتاتاً، بل تأخذ وقتها حتى تشعر بالحب تجاه أي

رجــــل ومــــدة أطــــول كــــي تتخــذ قــراراً مصــيرياً كــالزواج.. لكــن بــالطبع وللأســف هنــاك اســتثناءات فبعــض النســاء مُســخن لــيفكرن كــالرجال وينجــذبن مثلــهم للمظــهر

الخارجي فقط، وهن في الأغلب من ترينهم يَنُحْنَ بسبب الهجر أو الخيانة، وأعتقد أنكِ واحدة منهن!

(هياء): وهل بكيتِ ونحبتِ عندما هجرك زوجك؟

(الرؤوم) بنظرةٍ مُتفاجئة وعينين اتسعتا دهشة: ماذا؟.. زوجي؟

(هياء): نعم.. زوجك الذي هجرك وحولك للمسخ الذي أنتِ عليه الآن.

(الرؤوم) وهي تبتسم بسخرية: وهل هذا هو الاستنباط الذي خرج به عقلك الصغير؟

(هياء): كلامك كله يصب في المجرى نفسه، ومن السهل أن أرى أن حنقك وحقدك على الرجال عامة لم ينبعا إلا من تجربة شخصية مريرة، وتحاولين جر هؤلاء

النسوة معك للهاوية؛ لأنك لا تريدين السقوط وحدك، فالرجال ليسوا دائماً أساس مشاكل المرأة، وإن كانوا كذلك فالحل لا يكون بالصدام وشنِّ حربٍ عليهم.

(الرؤوم): وهل كل من يطالب بحقوقه يصبح ضحية أو يغرر بغيره؟

(هياء): بالطبع لا.. لكن في حالتك نعم.

(الرؤوم) وهي تقف وتحمل الكتاب الذي كان معها: أنتِ اخترتِ الوهم وقررتِ العيش فيه.. هذا من حقك، لكن لا تحاولي أن تمنعينا من السعي وراء حقوقنا.

(هياء) وهي تقف وتقول بصرامة: لا أحد يعيش الوهم سواك!.. معظم النساء هنا لا يتفقْنَ معكِ!

(الرؤوم): أنتِ تتكلمين جزافاً وتعممين حسب أهوائك، لكني لست مثلك وسوف

أثبت لكِ ذلك؟

(هياء) بسخرية: هل ستُغرقينني بخطبة من خطبك المنمقة؟

(الرؤوم) بصوت مرتفع مُوجه لمن تجمعن حولهما: من تتفق مع هذه الفتاة في كلامها فلتبقَ هنا، ومن ترغب في إكمال المحاضرة فلتتبعني!

مشت (الرؤوم) بخطوات واثقة وثابتة نحو باب القاعة الكبير وسار خلفها كل النساء الموجودات في المقهى عدا الفتاة التي كانت تجلس مع (هياء) سابقاً، والتي

وقفت أمامها بابتسامة يخالطها الحزن وقالت: أنا أتفق معكِ، لكني لا أستطيع التخلي عن المجموعة.

(هياء) بسخرية: ستسيرين مع القطيع إذاً؟!

(الفتاة) بابتسامة حزينة: وما العيب في ذلك؟

(هياء) بغضب: ستكونين مسلوبة الرأي ولا يمكنك التحكم بحياتك!

(الفتاة): أن تكوني جزءاً من منظومة تحت لواء قائد مستنير شرف وغنيمة لا تتاح للجميع.

(هياء) بسخرية: تتحدثين وكأنك جندي في كتيبة عسكرية وأنتِ لستِ سوى شاة في قطيع كبير من النعاج.

(الفتاة) وهي تسير مبتعدة عن (هياء): وأنتِ ذئبة تبحث عن فريسة؛ لذا يجب أن أعود لقطيعي قبل أن تفترسيني بأفكارك الملوثة.

بقيت (هياء) تراقب بعُجب الفتاة وهي تسير عائدة للقاعة حتى دخلت وأغلقت بابها الكبير خلفها، ليخرج بعدها وميض قوي من أسفله غطى بنوره بصرها.

لغز الصندوق

وجدت (هياء) بعد انقشاع الضوء نفسها في السرداب مرة أخرى والكتاب بين يديها. أغلقته ووضعته على الطاولة أمامها ولم تنهض من الكنبة الجلدية وبقيت

تفكر. أمضت في تفكيرها وقتاً ليس بالقليل، ولم ينقطع ذلك السرحان حتى سمعت خطوات نزول من السلم أمامها. رأت بعد ثوانٍ من سماع الخطوات (أمين)

وهو يدخل وفي يده كوبان من القهوة تتصاعد منهما الأبخرة ليضعهما على الطاولة أمامها ويقول:

لِمَ لم تصعدي للطابق العلوي بعد انتهائك من الكتاب؟

(هياء) ببالٍ مشغول: هذا الكتاب لم يكن كبقية الكتب التي قرأتها سابقاً.

(أمين) وهو يشد كرسياً خشبياً كان بجانبه ويجلس أمام (هياء) قائلاً: لماذا؟.. ما المختلف فيه؟

(هياء) وهي توجه نظرها لـ(أمين): هل قرأته من قبل؟

(أمين): لا.

(هياء): لِمَ اقترحته علي إذاً؟

(أمين): لأني كنت أرى أنكِ بحاجته.

(هياء) باستغراب: كيف وأنت لا تعرف محتواه؟

(أمين) وهو يبتسم بشيء من الحزن: أنتِ لستِ أول من يقرؤه.

(هياء): لا أفهم كلامك.

(أمين) مبتسماً: اشربي قهوتك قبل أن تبرد.

تناولت (هياء) كوب القهوة وأخذت منه رشفة وبدأت تنظر لرفوف الكتب..

(هياء) وهي سارحة في الرفوف: لدي الكثير من الأسئلة يا (أمين).. هل ستجيبني عنها؟

(أمين) وهو يمسك كوب القهوة الخاص به: إذا كنت أعرف الإجابة فلن أبخل عليكِ بها.

(هياء) وهي تضع كوبها على الطاولة: لقد فتحت الكتاب الذي أهديتني إياه أمام أبي.. لِمَ لم يرَ وهج النور؟

(أمين): هذا الوهج لا يراه سوى القارئ فقط.

(هياء): ما سر الزهرة البنفسجية؟

(أمين): ماذا تقصدين؟

(هياء): في كل كتاب أقرؤه دائماً ما أصادف زهرة بنفسجية.. لماذا؟.. وهل لها علاقة بتلك الزهرة البنفسجية الجافة التي أهديتني إياها عندما تقابلنا أول مرة؟

(أمين) وهو يبتسم ويأخذ رشفة من قهوته: كنت أنتظر سؤالك هذا.

(هياء): وأنا أنتظر الإجابة.

(أمين) وهو يضع كوب القهوة على الطاولة: الوقت لا يزال مبكراً كي تعرفي

الإجابة.

(هياء): ومتى يحين الوقت؟

(أمين): الأمر عائد لكِ.

(هياء): لا تتحدث بالألغاز يا (أمين)!.. كن صريحاً معي!

(أمين): ما ترينها ألغازاً ليست إلا جزءاً من اللوحة التي ستكتمل قريباً.

(هياء): لدي سؤال آخر.

(أمين): ما هو؟

(هياء) وهي تشير لصندوق خشبي صغير على أحد الرفوف: ما الذي يحتويه هذا الصندوق؟

(أمين) وهو يوجه نظره للصندوق ثم يبتسم ويقول: ما الذي أثار فضولك به اليوم بالذات.. لطالما كان هذا الصندوق موجوداً هنا، لِمَ تسألين عنه الآن؟

(هياء) وهي تحدق بالصندوق: لا أعرف.. منذ أن انتهيت من قراءة هذا الكتاب أحسستُ بتغيير كبير في تفكيري، وتساؤلات أكثر تضج في عقلي، لدي رغبة كبيرة في
السؤال عن كل شيء ولا أعرف لماذا!

(أمين) وهو يعود بنظره نحو (هياء): هذا أمر جيد.

(هياء) وهي توجه نظرها لـ(أمين): ألن تجيبني؟

(أمين) وهو يوجه نظره مرة أخرى للصندوق الخشبي: هذا الصندوق أحفظ فيه أجمل ما قرأت في حياتي.

(هياء) بحماس وعينين متسعتين: حقاً؟!

(أمين) وعيناه لا تزالان على الصندوق: نعم.

(هياء): هل يمكنني فتحه؟

(أمين) وهو يلتفت إلى (هياء): لماذا؟

(هياء) بحماس: هل تمزح؟!.. أريد أن أرى ما تراه أنت أجمل ما كُتب وأن أقرأه أيضاً!

(أمين): الصندوق أمامك.. اِفتحيه.

نهضت (هياء) وهي متحمسة ومتشوقة لرؤية محتوى الصندوق، ومدت يديها وحملته ووضعته على الطاولة بينها وبين (أمين)، وفتحته وألقت نظرة بداخله.

(هياء) بوجه محبط: الصندوق فارغ.

(أمين) وهو يراقبها: نعم.

(هياء): لكنك قلت..

قاطعها (أمين) قائلاً: أعرف ما قلتُه.. لم أجد حتى الآن شيئاً يستحق أن يوضع في هذا الصندوق.

(هياء) بتعجب: كل هذه الكتب العجيبة التي تملكها ولم تجد شيئاً يستحق القراءة.

(أمين): هذا الصندوق ليس للكتب التي تستحق القراءة؛ فكل كتاب يستحق القراءة.

(هياء): ماذا إذاً؟

(أمين): أنا أبحث عن شيء يمكن أن أسميه "أجمل ما قرأت".

(هياء): وكيف ستعرف أن ما قرأته هو أجمل ما قرأت؟

(أمين): أريد نصاً بمجرد الانتهاء منه أرغب في سماعه مرة ثانية وثالثة.. نصاً يسعدني ويبكيني في كل مرة أعود إليه، ولا أمله أو يفقد جماله مهما سمعته.. نصاً متجدداً في جماله كبئرٍ لا تنضب.

(هياء): تسمعه؟.. النصوص المكتوبة تقرأ ولا تسمع.

(أمين) مبتسماً: يمكننا سماع النصوص المكتوبة.

(هياء): عدتَ لتتحدث بالألغاز مرة أخرى.

(أمين): لا يهم في النص الذي أبحث عنه أن أقرأه أو أسمعه. المهم أن يكون جميلاً بالقدر الذي يجعلني أتنفس بعده وكأني وُلدت للتو.

(هياء): وهل هناك كتاب أو نص بهذا الوصف؟

(أمين) وهو يبتسم: بحثت خمسين عاماً وما زلت أبحث..

(هياء) وهي تلف بنظرها حول المكان وتتفحّص الرفوف العليا: ماذا الآن؟

(أمين): أنا لدي سؤال.

(هياء) وهي توجه نظرها لـ(أمين): تفضل.

(أمين): كيف كانت علاقتك مع أمك؟

(هياء) باستغراب من سؤال (أمين): أمي؟.. لِمَ تسألني؟

(أمين): يمكنك الامتناع عن الإجابة، لكن لا تجيبيني بسؤال.

(هياء): لا، لكني مستغربة من سؤالك.

(أمين): وهل هذا الاستغراب يمنعك من الإجابة؟

(هياء): لا يوجد إجابة؛ فأنا لا أعرف عنها شيئاً.. ماتت وهي تلدني.. حتى إني لم أرَ شكلها من قبل، فأبي يحتفظ بصورها ولا يسمح لي برؤيتها.

(أمين): لماذا؟

(هياء) بحزن: لا أعرف.

(أمين): عودي لمنزلك الآن.

(هياء) أريد قراءة كتاب آخر.

(أمين): يكفي ما قرأتِهِ اليوم.

(هياء) بقلق: هل أنت مستاء مني؟

(أمين): لا.. لِمَ تقولين ذلك؟

(هياء): أحسست بذلك.

(أمين) مبتسماً: لا أبداً.. البرد تمكن مني وأريد العودة لمدفأتي.

(هياء) وهي تحتضن نفسها: فعلاً.. البرد قارس هذه السنة على غير العادة.

(أمين): سوف أكون بانتظارك غداً.

(هياء) وهي تنهض: ألن تصعد للطابق العلوي؟

(أمين): لا سأبقى هنا قليلاً.

(هياء): لكن المدفأة في الطابق العلوي.

(أمين): أعرف..

(هياء) وهي تمازحه: هل تريد القراءة وحدك من دوني؟

(أمين) يبتسم بحزن دون أن يرد..

(هياء) تضع يدها على كتف (أمين) وتقول بقلق: ما بك يا (أمين)؟ لم أَرَكَ هكذا من قبل!

(أمين) وهو يضع يده على يد (هياء): لا تقلقي، أنا بخير.. مجرد ذكريات ضالة وجدت طريقها لعقلي.

(هياء) بقلق: هل تريد مني البقاء؟

(أمين) وهو يربت على يد (هياء) التي لا تزال على كتفه مبتسماَ: لا يا عزيزتي.. عودي قبل أن يقلق والدك عليك.

قبَّلــت (هيــاء) جبـين (أمـين) وبـدأت بصـعود السـلالم، وعنـد وصـولها للسـلمة الأخـيرة وفتحـها البـاب، سـمعت (أمـين) يسـعل، فأحسـت بقبضـةٍ فـي صـدرها وخـرجت

وأغلقت باب السرداب خلفها.

دخلت (هياء) باب القصر وتوجهت مباشرة إلى غرفتها. وبالرغم من أنها رأت أباها و(حليمة) في غرفة المعيشة، فإنها لم تمر بهما أو تتحدث معهما. وصلت إلى

غرفتها واستلقت في سريرها وغطت نفسها. طرقت (حليمة) الباب وهي تقول: هل تأذنين لي بالدخول يا سيدتي؟

(هياء) وهي تحت الغطاء: أريد النوم يا (حليمة) لنتحدث لاحقاً!

(حليمة) من عند الباب: أمرك يا سيدة (هياء).

همت (حليمة) بالرحيل، لكن (هياء) نهضت وقالت: ما الأمر؟.. ما الذي تريدين التحدث فيه؟

(حليمة) وهي تدخل الغرفة: أمر يشغل بالي يا سيدة (هياء).

(هياء): ما هو؟
(حليمة): أنتِ..

(هياء):أنا؟

(حليمة): نعم.

(هياء) بتجهُّم: هل أرسلكِ أبي للحديث معي؟

(حليمة): لا أبداً.. حديثي معك سببه انشغالي أنا.

(هياء): وما الذي يشغل بالك؟

(حليمة): خروجك المتكرر للذهاب لمنزل ذلك العجوز.

(هياء) بتجهُّم: اسمه السيد (أمين)!

(حليمة) وهي تقترب من (هياء) وتقول بتوتر وقلق شديدين: أرجوك يا سيدتي توقفي عن الذهاب إليه!

(هياء) بتجهُّم وتعجب: ما حكايتكما أنتِ وأبي؟!.. لِمَ تحاولان منعي من الذهاب إليه؟!

(حليمة): أنتِ لا تلاحظين ما نلاحظه.. في كل زيارة له تعودين متغيرة تماماً وكأنكِ شخص جديد.

(هياء): وما المشكلة؟.. هل آذيتكما بشيء؟

(حليمة): لا، ولكن..

(هياء) بعصبية: ولكن ماذا؟!.. الرجل لم أرَ منه سوى كل خير، ولا أشعر بالضيق إلا عندما أعود إلى هنا وأحاصر بهذه الأسئلة والشكوك!

(حليمة) وهي تنزل رأسها: أعتذر يا سيدتي لأني تحدثت في الموضوع.

(هياء) وهي تنهض من فراشها وتتوجه نحو (حليمة) وتمسك كتفيها وتقول مبتسمة:

(حليمة).. أنتِ أقرب لي من أي شخص في هذه الدنيا.. أنتِ من ربيتني بعد وفاة أمي.. أنتِ أقرب لي حتى من أبي.. فلا تظني يوماً أني سأخفي عليكِ شيئاً.

(حليمة) وهي ترفع نظرها: إذاً بحق تلك السنين أجيبيني عن سؤال واحد.

(هياء) وهي تترك كتفي (حليمة): ما هو؟

(حليمة): ما الذي يجذبك ويدفعك للذهاب لمنزل السيد (أمين) بهذا الشغف وبشكل متكرر؟

صمتت (هياء) قليلاً وهي تحدق بعينَيْ (حليمة) القلقتين، ثم قالت: لن أخبرك..

(حليمة) وهي تنزل رأسها بحزن: لا بأس.

(هياء): لكني سأريك..

(حليمة) وهي ترفع رأسها: ترينني ماذا؟

(هياء) تمسك بيد (حليمة): هيا بنا!

(حليمة) باستغراب: إلى أين؟!

(هياء) وهي تسحب (حليمة) نحو باب الخروج: إلى السيد (أمين)!

(حليمة) وهي تُجر خلفها: لكنك أتيتِ منه للتو.

(هياء): لا بأس؛ فهو لن يمانع.

خرجت الاثنتان من الغرفة ونزلتا إلى الطابق السفلي وخرجتا من باب القصر. وخلال مرورهما بغرفة المعيشة لم يكن السيد الكبير موجوداً بها، لكنهما لم تلقيا بالاً لذلك الأمر، ثم مشتا حتى وصلتا إلى باب منزل (أمين) وطرقت (هياء) الباب.

(حليمة) بقلق: لِمَ لا نأتي في وقت آخر؟

(هياء) وهي تطرق الباب مجدداً: لماذا؟

(حليمة): ربما يكون نائماً.

(هياء) وهي تضحك وتطرق الباب مرة أخرى: لم أرَ السيد (أمين) ينام من قبل، فلا تقلقي.

لم يفتح أحد الباب بالرغم من تكرار طرق (هياء) على درفته بقوة، وعندها بدأ القلق يتسلل لقلبها وقالت: غريبة.. في العادة لا أضطر لطرق الباب مرتين كي يفتح السيد (أمين).

(حليمة): أخبرتك بأنه قد يكون نائماً.

(هياء) وهي تطرق الباب بقوة: سيد (أمين)!

لم يرد أحد..

بدأت (هياء) بإدارة المقبض بتوتر لفتح الباب، لكنه كان مغلقاً، فجرت نحو السور وهي تبحث بتوتر شديد عن مكان آخر يمكنها الدخول منه للمنزل.

(حليمة) بقلق: ما بكِ يا سيدة (هياء)؟

(هياء) وهي تصرخ في (حليمة): أحضري مساعدة بسرعة!

(حليمة) بتوتر: ماذا تقصدين؟

(هياء) بعصبية: استدعي بعض الرجال من القصر فوراً!

عادت (حليمة) جرياً نحو القصر، وبعد دقائق عادت ومعها بعض الحراس. وبمجرد وصولهم صرخت فيهم (هياء) وقالت: اِكسروا الباب!

نفــذ الرجــال أمرهــا، ولحظــة أن فُتــح البــاب هــرعت (هيــاء) لــداخل المــنزل وهــي تصــرخ وتنــادي علــى (أمــين). لــم تجــد لــه أي أثــر فــي غرفــة المعيشــة أو أي غرفــة أخـرى،

فتذكرت أنها تركته قبل رحيلها في السرداب، فتوجهت مسرعة نحو بابه ونزلت على عجالة عبر السلالم. وما إن وصلت إلى نهايتها حتى رأت (أمين) مُلقىً على

الأرض وفاقداً لوعيه. جرت نحوه وجثت عند رأسه ووضعته على حجرها وهي تصرخ وتبكي بقوة: سيد (أمين)!.. سيد (أمين)!

دخلت (حليمة) مع من كانوا معها للمنزل عندما سمعوا صراخ (هياء) وتوجهوا مباشرة للسرداب، وعند رؤيتها لهم صرخت فيهم وهي تبكي: خذوه للمستشفى

الآن!

نُقــل (أمــين) للمســتشفى بالســيارة، وكــانت (حليمــة) فــي المقعــد الأمـامي مـع السـائق، و(هيـاء) فـي المقعـد الخلفـي ممسـكة بــ(أمين) طَوَال الطـريق وتمسـح علـى رأسـه

وتبكي. لحقت بالسيارة سيارة أخرى استقلها بعض الرجال المُوكلين بمرافقة (هياء) وحراستها. وصلوا للمستشفى وأُدخل (أمين) للطوارئ في الحال، وبعد ساعة

من الانتظار خرج الطبيب الذي أشرف على الكشف عليه، ورأى ممر المستشفى ممتلئاً بالرجال المحيطين بفتاة تبكي بجانبها سيدة عجوز تواسيها. تقدم الطبيب نحو

(هياء) وقال لها: هل أنتِ أحد أقربائه؟

(هياء) وهي تنهض بسرعة وقلق شديد: هل هو بخير؟!

(الطبيب): لقد تعرض لجلطة وهو الآن في غيبوبة.

(هياء) وهي تبكي بحرقة: ما معنى ذلك؟!.. هل سيتعافى أم لا؟!

(الطبيب): الأمر بيد الله الآن.

(هياء) وهي تمسح دموعها المنهمرة: ومتى سيخرج من غيبوبته؟

(الطبيب): الله أعلم، لكنه يجب أن يبقى تحت الملاحظة فترة من الزمن.

(هياء): سوف آخذه لمستشفى آخر!

(الطبيب): هذا من حقك، لكن لا أنصح بنقله الآن. انتظروا حتى تستقر حالته.

بدأت (هياء) تبكي بحرقه و(حليمة) تواسيها..

(الطبيب): من سيتكفل بعلاجه؟

(هياء) وهي تشد لباس الطبيب بقوة وتصرخ في وجهه: لا تتحدث عن التكاليف!.. قم بعملك فقط!

أمسكت (حليمة) بقبضة (هياء)، وحررت الطبيب منها وهي تقول: ماذا تفعلين يا سيدة (هياء)؟!

(هياء) وهي تترك الطبيب وتعانق (حليمة) وتبكي بقوة: يجب ألا يموت!.. يجب ألا يموت!

(حليمة) وهي تضمها بقوة: لا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

(الطبيب) وهو يُرتّب هندامه بتجهُّم: لا تنسوا المرور بقسم المحاسبة قبل رحيلكم.

(هياء) وهي تفك عناق (حليمة) بعينين دامعتين: أين هو؟.. أريد رؤيته!

(الطبيب) وهو يهم بالرحيل: الغرفة 634.

توجهت (هياء) ومن كان معها للغرفة التي كان بها (أمين)، ودخلت عليه بخطوات بطيئة ودموع منهمرة، ورأته في سريره الأبيض والأجهزة موصلة به وصوت

طنين جهاز مراقبة نبضات القلب يرن كل ثانية. مشت (هياء) ببطء حتى أصبحت عند رأسه، فسحب أحد الرجال المرافقين لها كرسياً ووضعه خلفها، لكنها لم

تجلس وبقيت تحدق بوجه (أمين) الشاحب وهي تقول بحزن شديد ووجنتين مبتلتين بالدموع: لا تتركني يا (أمين).. أرجوك.

بعد دقائق من الوقوف أمامه بصمت أحست (هياء) بيد (حليمة) وهي تلمس كتفها وتقول لها: لنرحل الآن وسنزوره غداً.

(هياء) وهي تدمع وتحدق بوجه (أمين): قد يستيقظ وحده ولا يراني.

(حليمة): لا فائدة من بقائنا هنا الآن. سنعود غداً، أعدك بذلك.

سارت (هياء) بهدوء معها وهي تدمع بصمت..

عنـــدما عـــاد الجمـــيع للمـــنزل كـــان الســـيد الكبـــير فـــي انتظـــارهم، وكـــان غاضـــباً بســـبب غيـــاب الجمـــيع دون علمـــه. وعنـــدما دخلـــت (هيـــاء) القصـــر ـ وقبـــل أن يُوبِّخـــها أبوهـــا ـ

عانقته وبدأت تبكي. نظر السيد الكبير بتعجب لـ(حليمة) التي كانت تقف خلفها وقال: ما الأمر؟.. ما الذي حدث؟

(حليمة) وهي تشير للسيد الكبير بتأجيل السؤال لاحقاً..

عانق السيد الكبير (هياء) وهو يواسيها ويقول: لا تقلقي يا ابنتي، مهما حدث فستكون الأمور بخير..

بعـد ذلـك الـيوم، وبعـد معرفـة السـيد الكبـير سـبب حزن ابنتـه، أمـر بنقـل (أمـين) لأكبـر مسـتشفى فـي المـدينة بـالرغم مـن أنـه كـان سـينقله لمسـتشفى متخصـص فـي

الخارج، لكن (هياء) أخبرته بأنها ستذهب حيث سيذهب، لذلك قرر إبقاءَه في المدينة نفسها، خاصة أن جميع الأطباء الذين استدعاهم للكشف عليه اتفقوا على

أنه لن يفيق من غيبوبته، وأنه سيقضي بقية حياته بتلك الحالة. مرت خمس سنوات منذ أن سقط (أمين) في غيبوبته، وخلالها بلغت (هياء) الثامنة عشرة من

عمرها، وكانت تزوره بشكل شبه يومي في غرفته الخاصة في ذلك المستشفى الفخم الذي نُقل إليه. كانت في كل زيارة تتحدث معه وتقرأ له وكأنه ينصت إليها.

رافقتها (حليمة) في بعض زياراتها، ورافقها السيد الكبير عدة مرات أيضاً. وفي إحدى زيارات (هياء) لـ(أمين) وحدها، دار حوار بين (حليمة) والسيد الكبير في القصر:

(السيد الكبير) وهو يدخن غليونه: هل ستبقى (هياء) بهذه الحالة؟

(حليمة): لا نستطيع منعها يا سيدي؛ فأنت ترى كيف أنها متعلقة به.

(السيد الكبير): أنا متعجب من قدرتها على التفوق في دراستها، وهي تقضي معظم يومها في المستشفى.

(حليمة): أقدر قلقك يا سيدي، لكن أرى أن الوقت الحالي ليس مناسباً كي نتدخل.

(السيد الكبير) وهو ينفخ سحابة من الدخان: لن يطول الأمر.

(حليمة) بقلق: ماذا تقصد يا سيدي؟

(السيد الكبير): سوف تنتهي (هياء) من دراستها الثانوية خلال أسابيع، وحالما يحدث ذلك سوف أرسلها كي تُكمل دراستها بالخارج، وبذلك سوف تنسى كل شيء

يربطها بهذه المدينة، وقد ألحق بها لاحقاً بعد تصفية جزء من أعمالي هنا.

(حليمة): هل تنوي الهجرة يا سيدي؟

(السيد الكبير): لم أعُدْ أطيق البقاء هنا.. سوف أدير أعمالي من هناك، وسأربي (هياء) بعيداً عن هذه الأجواء الكئيبة.

(حليمة): ماذا عن السيد (أمين)؟

(السيد الكبير) وهو يضع بعض التبغ في غليونه: لا تقلقي، لن أتوقف عن الصرف على تكاليف علاجه حتى بعد سفرنا.

(حليمة) وهي تنزل رأسها: هل لي بسؤال يا سيدي؟

(السيد الكبير) وهو يشعل عود ثقاب: ماذا يا (حليمة)؟

(حليمة): لِمَ انتقلنا لهذا الحي؟.. لقد كنا سعيدين في الحي السابق.

(السيد الكبير) وهو يزفر بعض الدخان: كنت أظن أني أستطيع تصحيح أخطائي في الماضي، لكن يبدو أن الفرصة لن تتاح لي مرة أخرى.

(حليمة): لم أفهم قصدك يا سيدي.

(السيد الكبير): لا يهم الآن. المهم هو ألا تخبري (هياء) بما دار بيننا.

(حليمة): أمرك يا سيدي.

فــي تلــك الأثنــاء كــانت (هيــاء) قــد وصــلت للتــو إلــى المســتشفى، وتحــديداً عنــد بــاب غرفــة (أمــين) وطرقتــه وهــي تبتســم، ثــم دخلــت وهــي تحمـل كتـاباً وبعـض الزهـور.

استبدلت الزهور التي أحضرتها أمس بأخرى جديدة، ثم جلست بجانب السرير وهي تقول بسعادة: لقد أحضرت كتاباً جديداً اليوم!

منذ أن دخل (أمين) في غيبوبته لم تقرأ (هياء) أيَّ كتابٍ من كتبه، لكنها بدأت تجرب قراءة كتب أخرى من مكتبات المدينة ووجدت في بعضها متعة.

(هياء) وهي تتصفح الكتاب الذي أحضرته معها: تعرف يا (أمين) لم أكن أعلم أن بعض الكتب الموجودة في المكتبات يمكن أن تكون ممتعة.

(أمين):...

(هياء) وهي تضحك وتتمعن بإحدى صفحات الكتاب: بالطبع، لا أحد منها يقارن بكتبك.

(أمين):...

(هيــاء) ووجــهها يتحــول للــحزن وهــي تحــدق بطــرف صــفحة مــن صـفحات الكتـاب: لكنـي أقسـمت ألا أقـرأ أيـاً منـها حتـى تفـيق.. ولا تقلـق، لقـد أغلقـت بـاب السـرداب

جيداً، وعينت حراساً على المنزل حتى تعود إليه سالماً.

(أمين):...

(هياء) وهي تبتسم مرة أخرى، وتشد على دفتي الكتاب بين يديها: كتاب اليوم أخذته من المكتبة وأنا قادمة إلى هنا.. عنوانه شدني.. آمل أن يكون شائقاً كعنوانه.

بعد نصف ساعة من القراءة بصوت جهوري، توقفت (هياء) وأغلقت الكتاب، ولفته ونظرت لعنوانه وقالت: كيف يجد كاتب الجرأة على نشر مثل هذا الكلام.. ألا يخجل من وضع اسمه على هذا الهراء؟

(أمين) وهو مغمض العينين: أخبرتك سابقاً أنه لا يوجد كتاب سيئ..

رمت (هياء) الكتاب من يدها عندما سمعت صوت (أمين)، وبدأت تهزه بقوة وهي تصرخ وتدمع: (أمين)!.. هل أنا أحلم؟!

(أمين) وهو يفتح عينيه مبتسماً: توقفي عن هزي بهذا الشكل!

(هياء) ترفع يديها بسرعة وتغطي فمها وتدمع وتقول بتوتر وهي ترجف: أنا لا أحلم.. أليس كذلك؟!

(أمين) وهو يبتسم: لا أظن.

اندفعت (هياء) نحو (أمين) وعانقته بقوة، وبدأت تبكي بنحيب قوي..

(أمين) وهو يبتسم ويطبطب بكفه على ظهرها: لقد كبرتِ كثيراً.. كم كنت غائباً عن الوعي؟

(هياء) وهي لا تزال تعانق (أمين) وتبكي كالأطفال: كثيراً أيها الأحمق!

(أمين) وهو يضحك: أعتذر إذاً.

فكت (هياء) عناق (أمين) وقالت له بتوتر: اِبقَ هنا ولا تتحرك، سوف أستدعي الطبيب!

(أمين) مُبتسماً ومراقباً (هياء) وهي تخرج من الغرفة جرياً: لا تقلقي، لن أذهب إلى أي مكان.

خليل وحدتي ونديم أحزاني

بعد الكشف وبعض الفحوصات السريعة قال الطبيب المشرف على (أمين) لـ(هياء): لقد استعاد عافيته بالكامل، ولا أثر لأي ضرر لحق به من تلك الجلطة.. الأمر

أشبه بالمعجزة.

(هياء) والسعادة تغمرها: هل يمكنني أخذه للمنزل إذاً؟

(الطبيب) نعم، لكن سوف نبقيه لعدة أسابيع ليخضع للعلاج الطبيعي حتى يستعيد قدرته على الحركة بالكامل، بعدها يمكنني أن أحرر له وثيقة خروج من

المستشفى.

صافحت (هياء) الطبيب بسعادة وهي تقول: شكراً!.. شكراً!

عادت بعدها لغرفة (أمين) وأخبرته بكلام الطبيب..

(أمين) وهو يعتدل في جلسته على السرير: لا أستطيع الانتظار حتى أعود لمنزلي.

(هياء) وهي تسنده وتضع مخدة خلفه: المهم أن نطمئن عليك أولاً، وعلى أي حال منزلك يحتاج للتنظيف بعد كل هذه المدة الطويلة من الغياب.

(أمين): المهم أن أعود بأسرع وقت.

(هياء): لا تقلق، منزلك كما تركته ولم يدخله أحد.

(أمين): خدمات هذا المستشفى تبدو غالية.. من تحمل التكاليف؟

(هياء): لقد بعت بعض كتبك كي أحصل على المال.

(أمين) وهو مصدوم: ماذا؟!

(هياء) وهي تضحك: ما بك؟!.. أنا أمازحك فقط.

(أمين) مبتسماً: هل تريدين التسبب لي بجلطة أخرى؟

(هياء) وهي تضع يديها على صدر (أمين) بقلق: لا، أرجوك.. لا تتركني مرة أخرى.

(أمين) يمسح على رأسها مبتسماً: أنا لم أترُكِّ قط.

(هياء) تدمع وتبتسم..

عادت (هياء) مع السائق والمرافق الذي كان معها للقصر وهي في قمة السعادة، وزفت الأخبار لـ(حليمة) التي شاركتها تلك البهجة، لكنها ـ عندما أخبرت والدها بالأمر ـ لم يتحمس كثيراً، وقال ببرود: جيد، هذا سيوفر علينا الكثير..

(هياء) بتعجب وتساؤل: يوفر علينا ماذا يا أبي؟

(الأب): لا شيء.. كيف حال الدراسة معك؟

(هياء): أبي.. لا تغيّر الموضوع.. ماذا تقصد بأنه سيوفر علينا الكثير؟.. هل كنت مستاء من تحمل تكاليف علاج السيد (أمين)؟

(الأب) وهو يلتفت إليها: ماذا؟.. تكاليف؟.. تتحدثين وكأنك لا تعلمين كم حجم ثروتي.. أستطيع شراء ذلك المستشفى وعشرة أمثاله بجرة قلم!

(هياء): ماذا إذاً؟.. ماذا كنت تعني بكلامك؟

(الأب) وهو يقترب من ابنته ويعانقها: لقد أضعتِ أجمل سنوات عمرك وأنتِ تعتنين به، وبذلتِ الكثير من الجهد والدموع، وسهرت ليالِيَ طويلة بجانبه، وحان الوقت لأن تهتمي بنفسك ولا تضيعي وقتك أكثر.

(هياء) وهي تتفلَّتُ من عناق أبيها بغضب: السيد (أمين) ليس مضيعة للوقت!

(الأب): حسناً.. حسناً.. متى سيخرج من المستشفى؟

(هياء) بتجهُّم: الطبيب يقول بعد بضعة أسابيع.

(الأب): سوف أزوره قبل أن يخرج لأطمئن عليه.

(هياء) بتوجُّس: لماذا؟

(الأب) ممازحاً ابنته: هل تشكين بكل شيء أقوم به؟

(هياء) بتجهُّم: نعم!

(الأب) وهو يجلس ويخرج غليونه من جيبه: حسناً لن أزوره.

(هياء): يكون أفضل!

همت (هياء) بالخروج من باب القصر فنادى عليها والدها قائلاً: إلى أين؟

(هياء) وهي تخرج دون أن تلتفت إلى أبيها: منزل السيد (أمين) يحتاج للتنظيف.

(الأب) وهو يشعل عود ثقاب وينادي بصوت مرتفع: (حليمة)!

دخلت (حليمة) غرفة المعيشة على عجالة وهي تقول بارتباك: نعم يا سيدي!

(الأب) وهو يشعل رأس غليونه ويهز عود الثقاب ليطفئه: اِلْحقي بـ(هياء) وعاونيها في تنظيف منزل (أمين).

(حليمة) وهي تنزل رأسها وتهم بالخروج بعدها: أمرك.

خرج (أمين) من المستشفى صباحاً بعد عدة أسابيع من إفاقته بصحبة (هياء) السعيدة جداً به وبعودته للمنزل. ركب الاثنان المقعد الخلفي للسيارة و(حليمة) في

المقعد الأمامي وكان (أمين) يستعين بعصا طبية معدنية لمساعدته في المشي، نصحه الطبيب باستخدامها فترة من الزمن حتى يستعيد قدرته الكاملة على الحركة.

(هياء) وهي لا تستطيع تمالك نفسها من السعادة: سعيدة بعودتك!

(أمين) يبتسم بصمت..

أسندت (هياء) رأسها إلى صدر (أمين) وابتسامتها لا تفارقها، وبعد دقائق من الصمت خلال طريق العودة قالت وهي تحدق في ظهر الكرسي أمامها: لقد كان معك

كتاب..

(أمين) وهو ينظر لرأس (هياء) المسند إلى صدره: ماذا؟

(هيــاء) ورأســها لا يزال علــى صــدر (أمــين): عنــدما وجـدتك مغميـاً عليـك فـي السـرداب، كـان هنـاك كتـابٌ بجـانبك بعنـوان "الكنـف".. هـل كنـت تقـرأ فيـه قبـل أن تفقـد

الوعي؟

(أمين) وهو يزفر بحزن: لنتحدث في هذا الأمر عندما نصل للمنزل.

(هياء) تلف ذراعيها حول (أمين) وتعانقه بصمت..

وصل الجميع لمنزل (أمين) فنزلت (هياء) قبله وعاونته على النزول. بدأ بالسير متكئاً على عصاه والجميع خلفه يراقبونه، ثم وقف يتمعن في المنزل الذي غاب عنه
طويلاً. قاطعت (هياء) سَرَحانه بالقول: ألن ندخل الآن؟

(أمين) وهو لا يزال محدقاً بمنزله: الجسد يحس ويئن شوقاً عندما يبتعد عن المكان الذي تسكنه الروح..

(هياء) وهي تسند (أمين) بكتفها وتسير به نحو باب المنزل: هيا بنا إذاً لكي تستعيد روحك.

(حليمة) من خلفها وهي تقف بجانب السائق: هل تحتاجين إلى مساعدة يا سيدتي؟

(هياء) وظهرها مُدار لها: لا يا (حليمة)، يمكنك العودة للقصر، وأخبري أبي أني سأتأخر قليلاً.

(حليمة): أمرك.

دخل الاثنان المنزل و(هياء) لا تزال تسند (أمين)، وعندما انتصفا في غرفة المعيشة قالت: هل تريد أن آخذك إلى غرفتك؟

(أمين) وهو يرفع يده من على كتف (هياء) ويتكئ على عصاه ويسير باتجاه كنبته: لا.. لقد سئمت الفراش.

(هياء) بقلق: لِمَ لا ترتاح اليوم على الأقل؟

(أمين) وهو يجلس: لقد ارتحت بما فيه الكفاية.

(هياء): هل وصف لك الطبيب أي أدوية؟

(أمين) وهو يبحث حوله: أين نظارتي؟

(هياء) وهي تخرج النظارة من أحد الأدراج وتمدها له: أجبني يا (أمين)؟

(أمين) وهو يلبس نظارته: حتى لو وصف لي أدوية فلن أتناولها.

(هياء) بتجهُّم: لماذا؟.. ألا تقلق بشأن صحتك؟

(أمين) وهو يشير لـ(هياء): اِذهبي للسرداب وأحضري ما تستطيعين من الكتب.

(هياء): لا أريد القراءة الآن.

(أمين) وهو يضحك ويسعل: أنا من يريد القراءة.

(هياء): ولِمَ لا تذهب بنفسك وتحضر ما تريد؟

(أمين) وهو يتكئ على عصاه في محاولة للنهوض: حسناً.

(هياء) وهي تُجلسه: لا! لا!.. سأحضر لك ما تريد.

(أمين): مفاتيحي معكِ، أليس كذلك؟

(هياء) وهي تخرج سلسلة المفاتيح من جيبها: نعم.. لقد أخذتها من جيبك عندما دخلت المستشفى كي أغلق السرداب واحتفظت بها معي.

(أمين): ألم تقرئي شيئاً طَوَال فترة غيابي؟

(هياء) بحزن: لا.

(أمين): لماذا؟

(هياء): لا أعرف.. مزاجي لم يكن يميل للقراءة وأنت غائب.. اكتفيت بقراءة بعض الكتب المملة من المكتبات العامة.

(أمين): وماذا عن الآن؟

(هياء): همي الآن هو أن تكون بخير، وألا يتكرر ما حدث معك.

(أمين) وهو يشير بيده: اِجلسي يا (هياء)..

(هياء) تجلس على الأريكة المقابلة..

(أمين): ما حدث لي كان بسبب شعوري بالاشتياق لشخصٍ ما، ومحاولة زيارته مرة أخرى.

(هياء) بتعجب: لا أفهم قصدك.

(أمين): لقد قرأت كتاباً قرأته من قبل لأني اشتقت لحياتي التي قضيتها فيه.

(هياء): وهل إعادة قراءة كتابٍ من تلك الكتب تُسبب لك جلطة وتُدخلك في غيبوبة؟

(أمين) مبتسماً: هذا إذا كنت محظوظاً.

(هياء) بغضب: ماذا تعني؟!.. هل كنت تعلم أنك تُعرض حياتك للخطر؟!.. لماذا فعلت ذلك؟!

(أمين) وهو يسرح بنظره جانباً: اشتقت لها.

(هياء): اشتقت لمن؟

(أمين) وسَرَحانه ينقطع: اِنسي هذا الأمر الآن. أحضري الكتب التي طلبتها فقط.

(هياء): وكيف أعرف إذا كنت قرأتها من قبل أم لا؟

(أمين) وهو يبتسم: الكتب في الرفوف اليمنى هي التي قرأتها.. اختاري من الجهة اليسرى.

(هياء): هل سنقرأ معاً؟

(أمين): إذا كنتِ ترغبين في ذلك فلا بأس.

(هياء): وما نوع الكتب التي تريد مني أن أحضرها؟

(أمين): لا يهم.. المهم أن أخرج من هنا بأسرع وقت.
(هياء) وهي تنهض وتتوجه للسرداب: حسناً.

غابت (هياء) فترة نهض خلالها (أمين) ليُعد لنفسه كوباً من القهوة، لكنه لم يجد أدوات إعدادها في مكانها، ولم يَرَ سوى كوبه الذي اعتاد أن يحتسي فيه قهوته،
وعندما عادت (هياء) وهي تحمل معها خمسة كتب رأته واقفاً مُتكئاً على عصاه يبحث في الأدراج فسألته: عن ماذا تبحث؟

(أمين) دون أن يلتفت إليها: عن كيس البن والسكر.

(هياء) وهي تضع الكتب على الطاولة: توقعت أنها فسدت ورميتها، وكنت أنوي شراء المزيد.

(أمين) وهو يعود لأريكته معتمداً على عصاهُ المعدنية: لا بأس.

(هياء): يمكنني إرسال السائق ليحضر المزيد.

(أمين) وهو يجلس: سأكتفي بالماء اليوم.

(هياء): ألا تريد تناول شيء؟

(أمين) وهو يمد يده: دعيني أرَ الكتب التي اخترتها.

حملـــت (هيـــاء) الكتـــب الخمســـة ووضـــعتها علـــى المنضـــدة بجـــانب (أمـــين)، فتنـــاول الكتـــاب الأول علـــى قمـــة كومـــة الكتـــب، ونظـــر لمقـــدمته ثـــم قلَّبـــه ونظـــر لمؤخرتـــه ووضـــعه
جانباً، واطلع على الكتب الأخرى بالطريقة نفسها، ثم قال: هل كانت اختياراتك عشوائية؟

(هياء): نوعاً ما.. اثنان منها أعجبني عنواناهما.

(أمين) يرفع أحد الكتب بعنوان "لحن الأشواق"، ويقول: أعتقد أن هذا أحدها.

(هياء) وهي تبتسم: نعم.. عنوانه جذبني.

(أمين) وهو يمد الكتاب لها: سيكون الكتاب الذي ستقرئينه الآن إذاً.

(هياء) وهي تأخذ الكتاب: ماذا عنك؟

(أمين) ممسكاً بكتابٍ أخضر: هذا الكتاب يبدو مناسباً.

(هياء): ما عنوانه؟

(أمين) وهو يسند عصاه بجانب الأريكة: لا يهم.

(هياء): ألاحظ أنك تتفحص شكل الكتاب أكثر من عنوانه.

(أمين) متجاهلاً ملاحظتها: اِجلسي أمامي..

جلست (هياء) على الأريكة المقابلة والكتاب بيدها وقالت: ماذا الآن؟

(أمين) وهو يفتح كتابه: نقرأ.

فتحت (هياء) كتابها ليخرج وميض نور قوي أمامها..

انقشع النور لتجد نفسها في سجن كبير، والقضبان الحديدية تحيط بها من كل جانب. كانت رؤيتها في بادئ الأمر مشوشة، وأحست أنها تقف على سطح نحيل

زلت قدمها منه لتسقط على الأرض، التي كانت كما أحست مغطاة بالورق. نهضت بسرعة وأحست خلال نهوضها برشاقة لم تعتد عليها، وقبل أن تتفحص المكان

حولها رأت رجلاً مسناً عملاقاً يُطل عليها من وراء القضبان وهو يقول:

ما بكِ يا (صفير)؟ ما الذي أوقعك؟

ارتعبــت (هيــاء) مــن ذلــك المنظـر المخـيف، ومـن وجـه ذلـك الرجـل العمـلاق وهـو يُحـدق بـها ويتحـدث معـها فصـرخت بقـوة، لكـن صـراخها خـرج مـن حنجرتـها كتغريـد

وزقزقة العصافير، فرفعت ذراعيها أمام نظرها لترى أنهما جناحان أصفران،

فأدركت أنها عصفورة محبوسة في قفص، وأن ذلك الرجل لم يكن عملاقاً، بل هي التي كانت طائراً صغيراً. ابتسم الرجل المسن وقال:

اليوم ستزورني ابنتي..

(هياء) وهي تستوعب ما يحدث: أنا طائر..

سار العجوز مبتعداً عن القفص المعلق في منتصف غرفة معيشته، وجلس على كرسي خشبي هزاز، وبدأ يحتسي مشروباً ساخناً وينظر للخارج من نافذته بصمت.

بدأت (هياء) تحرك جناحيها وتقفز مكانها لكي تصعد نحو العصا الخشبية أعلى منها، وبعد محاولات كثيرة تأقلمت وحلقت وجلست عليها. التفت العجوز نحوها

باسماً وقال: اليوم جميل، أليس كذلك يا (صفير)؟

(هياء) وهي تتحدث للعجوز بصوت عالٍ: هل تستطيع فهم كلامي لو تحدثتُ معك؟!

ابتسم العجوز لها وقال: غناؤُك هو سلواني الوحيد في وحدتي..

(هياء) بصوت مرتفع: أنا لا أغني!.. أنا أحاول الحديث معك!

رنَّ الهاتف، فنهض العجوز ورفع السماعة وتحدث قليلاً، وخلال ذلك الحديث تغير وجهه وأغلق الخط. عاد إلى مكانه وجلس بوجه حزين صامتاً يحدق بأطراف

حذائه. نظرت (هياء) له وقالت بصوت مغرد: ما بك؟

رفع الرجل العجوز رأسه نحوها وقال بحزن: لا يا (صفير)، ابنتي لن تتمكن من الحضور اليوم.

(هياء) بتغريد عالٍ: لا تحزن من أجلها، فهي لا تستحق!

(العجوز) وهو يضع خده على كتفه ويقول بحزن: لا أعرف لِمَ تعاملني بهذه

الطريقة؟! ربما كنت قاسياً عليها قليلاً عندما كانت صغيرة، لكني كنت أفعل ذلك

لمصلحتها.. لقد كبرت وأصبحت طبيبة ناجحة، ولا أريد منها شيئاً سوى رؤيتها ورؤية أحفادي مرة في الشهر على الأقل.. ربما أنا أستحق ما يحدث لي.

(هياء) بحزن: أنت لا تستحق ذلك.. هي الحمقاء لأنها لا ترى كم تحبها.

(العجوز) وهو ينهض ويتوجه نحو القفص مبتسماً ويضع كفيه حوله: أنتِ الوحيدة يا (صفير) التي تتحدثين معي، وربما لأنكِ حبيسة في قفص فقط.

(هياء) وهي تغرد: لو رأت ابنتك مدى حبك لها لَمَا تركتك يوماً وحدك.

(العجوز) وهو يفتح باب القفص: لن أجبر أحداً على البقاء معي..

فتح العجوز باب القفص، وسار مبتعداً عنه نحو النافذة التي كان ينظر منها سابقاً وفتحها وهو يقول: يمكنك الخروج من أسرك يا (صفير)، لستِ مجبرة على

البقاء معي.

جلس العجوز بعدها مكتئباً على كرسيه الخشبي، ودَعَك عينيه ليمسح بعض الدموع التي تسللت من محجريه. حلقت (هياء) خارج القفص، لكنها لم تخرج من

النافذة، بل حطت على رأس الرجل، وبدأت "تفل" شعره بمنقارها وهي تقول مغردة: من يريد ترك رجلٍ لطيف مثلك؟!

ابتسم الرجل العجوز، ورفع كفه إلى قمة رأسه، فحطت (هياء) عليه لينزلها أمام وجهه قائلاً: أنتِ حقاً تحبينني يا (صفير).

(هياء) تنقر أنفه وتغرد والرجل يضحك مبتهجاً..

أمضــت (هيــاء) فــي مــنزل ذلــك الرجــل العجـوز عـدة أيـام تـأقلمت خلالـها علـى نظامـه وروتينـه الـيومي، وتعلمـت فيـها كـيف تـأكل الحبـوب وتشـرب المـاء بمنقـارها. كـان

الرجل يغطي قفصها ليلاً بخمار رقيق من القماش، ويزيله أول الصباح عندما يستيقظ باكراً كما اعتاد كل يوم. علمت (هياء) الكثير من التفاصيل عن حياة الرجل

العجوز؛ لأنه كان يتحدث معها على الدوام، وبالذات عن ابنته وعن أحفاده الذين لم يَرَهُم من قبل؛ لأن ابنته ـ منذ زواجها ـ لم تزره مرة واحدة بسبب سخطها

عليه لما كانت تسميه قسوة عليها خلال تربيتها. لم تَرَ (هياء) تلك القسوة التي تحدث عنها الرجل وأقرها على نفسه.. لم تَرَ إلا رجلاً طيباً وحنوناً بقلبٍ مكسور.

كــانت تتمنــى فــي قــرارة نفســها أن تزوره ابنتــه ولــو مــرة واحــدة؛ لأنــه كــان يــهذي بــها علــى الـدوام، ويحكـي قصـصاً كثـيرة عـن طفولتـها وعـن الأشـياء التـي كـانت تحبـها

وتكرهها.

رنَّ الهاتف ظهيرة أحد الأيام، فرفع الرجل العجوز السماعة، وبعد ثوانٍ تغيرت ملامح وجهه وأنيرت عيناه واتسع محجراه، وبعد إغلاقه السماعة جرى برشاقة

لم تَرَها (هياء) من قبل، وقال لها بعدما هز قفصها بيديه: سوف تأتي اليوم!.. سوف تأتي اليوم!

غمرت السعادة (هياء)، وبدأت تغرد وتقفز على العصا الخشبية التي كانت تقف عليها، فقال العجوز: أعرف أنكِ سعيدة مثلي يا (صفير)! يجب أن أبدأ بتنظيف

المكان وإعداد طبقها المفضل!

استمرت (هياء) بالتغريد بسعادة للرجل الذي فتح باب قفصها وهو يقول ضاحكاً: يمكنك التحليق في المنزل كما تشائين، لكن لا توسخي المكان بريشك!

أمضى الرجل العجوز ما تبقى من ظهيرة ذلك اليوم في تنظيف المنزل وترتيبه، وأعد طبقاً من حلوى الجيلاتين الأحمر المحبب لابنته عندما كانت صغيرة، ووضعه في

البراد، ثم جلس بعدها يراقب الباب وكأنه ينتظره أن يُطرق. حطت (هياء) على رأسه، وبدأت تعبث بشعره فقال وهو يحدق بالباب: لا تقطعي تركيزي يا (صفير)؛

فقد تطرق (ثرية) الباب ولا أنتبه وترحل. توقفت (هياء) عن العبث بشعره وهي مسرورة لحماسه وتراقبه بسعادة غامرة. لم يدُمْ صمت الرجل طويلاً حتى تحدث

وهو يراقب الباب: ستكون هذه أول مرة أرى فيها أحفادي.. هل سيُحبونني؟

(هياء) وهي تغرد: بالطبع سيُحبونك!

(الرجل العجوز) بحزن وهو يحدق بالباب: معكِ حق، قد لا يُحبونني.

(هياء) بتغريد عالٍ: لا تضعْ في فمي كلاماً لم أقله!

طُرِق الباب.. نهض الرجل من مكانه بسرعة وتوجه نحوه.. حلقت (هياء) من على رأسه وهبطت فوق القفص تراقب اللقاء بحماس..

فتح العجوز الباب بابتسامة عريضة، فدخلت سيدة بوجه متجهِّم تلبس لباساً أسودَ وضيقاً، وفي شعرها غُرست زهرة بنفسجية جافة، وسارت إلى وسط الشقة

متجاهلة أباها تماماً. نظر العجوز خلف الباب وهو يقول باسماً: أين أطفالك يا (ثرية)؟

(ثرية) وهي تجلس على كرسي أبيها الخشبي وتضع ساقاً على ساق: أنا لن أطيل المكوث، ولم يكن هناك سبب لقدومهم.

(الرجل العجوز) وهو يغلق الباب بحزن: لكني كنت أريد رؤيتهم.

(ثرية): أنا بحاجة لبعض المال.

(الرجل العجوز) وهو يسير نحوها ويفرك أصابعه: كم تحتاجين؟

(ثرية) وهي تهز ساقها وتنظر من النافذة متحاشية النظر في وجه أبيها: خمسة آلاف.

(الرجل العجوز): حسناً سأحاول توفير المبلغ وتحويله لحسابك غداً، لكن لنتحدث الآن قليلاً؛ فأنا مشتاقٌ لكِ كثيراً.

سار الرجل نحو المطبخ وهو يحاول استعادة ابتهاجه بالقول: لقد أعددتُ طبق الجيلاتين الأحمر المفضل لكِ.

فتح العجوز الثلاجة وحمل الطبق بيد، وباليد الأخرى أغلق بابها ومعها سمع صوت باب شقته وهو يُغلق، فسار بخطوات متسارعة نحو غرفة المعيشة، ليجد المكان فارغاً ويكتشف أن ابنته قد رحلت. وقف مصدوماً بوجه يضجُّ بالحزن وطبق الجيلاتين البارد في يده. انزعجت (هياء) كثيراً مما حدث، وحلقت نحوه وحطت على رأسه وهي تغرد وتقول: لا تحزن؛ فهي لا تستحق محبتك!

سار العجوز بصمت وجلس على كرسيه الخشبي، ووضع طبق الجيلاتين جانباً، وأدار رأسه باتجاه النافذة، وبدأ يحدق بالخارج بصمت. حاولت (هياء) إخراجه من حالة الكآبة والحزن التي كانت واضحة عليه بالتغريد والطيران عند وجهه، لكن دون فائدة، فحلقت عائدة نحو قفصها وحطت على العصا الخشبية تراقبه بحزن. بقي الرجل على حاله دون حراك حتى المساء، ولم تبدأ (هياء) بالقلق عليه حتى تجاوزت الساعة السادسة مساءً، وهو الموعد الذي اعتاد فيه إعداد عشائه،

فحلقت خروجاً من القفص نحوه وبدأت تغرد في وجهه وتقول: هيا، اِنسَ الأمر وقُمْ لإعداد عشائك!

لم يرد الرجل، لأنه مات لحظة جلوسه ونظره للنافذة، واكتشفت (هياء) ذلك عندما حلقت بالقرب من أنفه وتحسست أنفاسه. حطت في حجره وبدأت بالبكاء،

وكان بكاؤها تغريداً أشبه بالصياح المتقطع، تبعه وهج ونور قوي يأتي من النافذة أحاط بها.

بعــد انقشــاع النــور وجــدت (هيـاء) نفسـها فـي غرفـة معيشـة (أمـين) تجلـس أمامـه، وبمجـرد عودتـها رأتـه يغلـق كتابـه مبتسـماً ويقـول: كـانت رحلـة جميلـة. نظـرت لـه

لثوانٍ، ثم بدأت عيناها بالاحمرار، تبعها جريان لبعض الدموع.

(أمين): هل كان الكتاب سيئاً.

(هياء) وهي تدمع: على العكس تماماً.. لقد رأيت قبحي فيه.

(أمين): ماذا تقصدين؟

(هياء) وهي تقف وتمسح دموعها: هل يمكنني الاستئذان؟

(أمين): ماذا عن بقية الكتب؟

(هياء) وهي تهم بالخروج: سأعود.. أمهلني بضع دقائق فقط.

(أمين) بصوت مرتفع: أحضري بعض البن من منزلك!

جرت (هياء) مسرعة نحو القصر ودموعها تنهمر أكثر مع كل خطوة تخطوها نحوه. فتحت باب القصر وبدأت تنظر حولها، فرأت أباها يقف عند المدفأة الخامدة

يدخن غليونه ويتمعن بالتحف المنصوبة على الجدار، فاندفعت نحوه وعانقته من الخلف وقالت وهي تبكي: سامحني يا أبي!

(الأب) وهو يسحب غليونه من فمه بتعجب: ماذا فعلتِ الآن؟

(هياء) وهي لا تزال تعانق أباها وتبكي: سامحني لأني لم أعبِّر لك عن امتناني من قبل!

(الأب) باستغراب وهو يحاول أن يستدير باتجاه ابنته: امتنان؟.. عن ماذا تتحدثين؟

(هياء) وهي تفك عناقه وتنظر في عينيه بعينيها الدامعتين: امتناني بأنك لا تَمُنُّ علي بشيء مما تقوم به لأجلي.. أحبُّك لأنك أبي.. أحبُّك لأنك ـ بالرغم من وقاحتي طَوَال تلك السنين ـ لا تزال تحبني.

ابتسم الأب ووضع كفه خلف ظهر (هياء) وضمها لصدره وهو يقول: وسأظل أحبك دائماً..

(هياء) وهي تفك عناق أبيها وتجري مسرعة نحو باب القصر: سأعود لتناول الغداء معك اليوم، انتظرني!

(الأب) وهو يضع غليونه في فمه مبتسماً محدثاً نفسه: ما الذي طرأ عليها؟

جرت (هياء) نحو منزل (أمين) ودخلته على عجالة، وتوجهت مباشرة لغرفة المعيشة وجلست أمامه وقالت بحماس: ما الذي سنقرؤه الآن؟!

(أمين): أين البن؟

(هياء): أي بن؟

(أمين) بإحباط: لا شيء، اِنسي الأمر.

(هياء) بحماس متجدد: ما الذي سنقرؤه الآن؟

(أمين): لقد قرأت الكتاب الذي قرأته.

(هياء): أي كتاب؟

(أمين) وهو يرفع الكتاب الذي قرأته (هياء) قبل خروجها: هذا.. "لحن الأشواق".

(هياء) وهي تنظر للكتاب بحزن: نعم كان كتاباً مؤلماً.. كنتَ طائراً مثلي ورأيت ما حدث لذلك الرجل المسكين.. أليس كذلك؟

(أمين): لا، لم أكن طائراً، ولم يكن هناك رجل عندما قرأت الكتاب.

(هياء) باستغراب: ألم تقرأ الكتاب نفسه؟

(أمين): نعم، لكن هذا لا يعني أننا سنمر بالأحداث نفسها، وإنما فقط المشاعر نفسها.. أخبرتك بهذا من قبل.. هل نسيتِ؟!

(هياء) بفضول: ماذا كانت قصتك إذاً؟

(أمين) مبتسماً: قصة جعلتني أراجع نفسي في علاقتي مع بعض الأشخاص.

(هياء): هذا ما حدث معي تماماً.. مَنْ هو الشخص الذي تغيرت نظرتك إليه؟

(أمين): شخص خرج من حياتي منذ زمن طويل وكنت ساخطاً عليه، لكني سامحته الآن.

(هياء): هل يمكنني معرفة مَنْ هو؟

(أمين) مبتسماً بحزن: ابني.

(هياء): ابنك؟.. لم أكن أعرف أنك متزوج ولديك أبناء.

(أمين) وهو يزفر بحزن: ليس أبناء.. مجرد ابن واحد فقط.

(هياء): أين هو؟ لم أرَهُ يزورك من قبل.. وأين أمه؟

(أمين) وهو يمدُّ يده ويمسك بأحد الكتب المتبقية: النقاش في الكتب ممنوع، هل نسيتِ ذلك أيضاً؟

(هياء) مبتسمة بخبث: النقاش كان عنك وليس عن الكتاب.

(أمين): لا أريد الحديث عن أيٍّ منهما.

(هياء): حسناً كما تشاء.. أعتذر على تطفلي.

(أمين) وهو يمدُّ لـ(هياء) كتاباً بعنوان "قِمَم": من باب العدل أن تقرئي ما قرأتُه اليوم قبل أن نكمل قراءة بقية الكتب.

(هياء) وهي تقف لتأخذ الكتاب وتنظر لعنوانه: أذكر أنك خرجت سعيداً من هذا الكتاب.

(أمين) مبتسماً: نعم.. لا أعلم ما سترين، لكني متيقن أنكِ ستشعرين بما شعرت به تماماً.

(هياء): وهل سأخرج سعيدة مثلك؟

(أمين): اِفتحي الكتاب واكتشفي بنفسك.

جلست (هياء) وفتحت الكتاب ليخرج وهج نور قوي غطَّاها بالكامل..

الشهيق الشاهق

فتحت (هياء) عينيها عندما أحست بأن النور القوي قد انقشع وحل مكانه رياح قوية داعبت شعرها وجسدها بالكامل. أخذت نَفَساً عميقاً عندما رأت نفسها تقف

فـــوق قمـــة جبـــلٍ شـــاهق، فحـــاولت التـــراجع بضـــع خطـــوات للـــوراء لتبتعـــد عـــن الحافـــة التـــي كـــانت تطـــل منـــها، لكـــن قـــدمها زلـــت وبـــدأت بالســـقوط نحـــو الأســـفل. خـــلال

سقوطها كانت (هياء) تصرخ في بادئ الأمر، لكنها عندما حركت أذرعها خلال هبوطها المتسارع نحو الأرض، ارتفعت للأعلى وبدأت تحلق في السماء. شعرت (هياء)

بانبهار ودهشة شديدين وهي تشاهد قمة الجبل أسفل منها تتقلص في الحجم، وكيف كانت الغيوم القطنية الباردة تحيط بها من كل جانب. خفت وتيرة تسارعها

للأعلى حتى استقرت وسط السماء بين الغيوم، فعدلت من مسارها وبدأت تحلق للأمام ورويداً رويداً أجادت التحليق والتحكم بنفسها وبدأت بالنزول للأسفل

مرة أخرى.

رأت عند اقترابها من القاع نهراً عظيماً منبعه شلال كبير يتدفق من بين سلسلة جبال خضراء. كان ماؤه صافياً مُزرقّاً، تحيط به أشجار خضراء كبيرة امتدت على

مد البصر. رأت كذلك كمَّاً كبيراً من الطيور المُحلقة بألوان مختلفة، بعضها كان يغرد ويزقزق فوق تلك الأشجار. كانت جنة بمعنى الكلمة. تملّكت (هياء) رغبة

جامحة في الاندفاع نحو النهر والغوص في مائه العذب، وبالفعل هذا ما قامت به، لكن المفاجأة هي أنها ـ بعد أن غمرها الماء ـ وجدت أنها تستطيع التنفس بسهولة

وبحرية تحته مثل الأسماك الملونة والجميلة التي أحاطت بها. شعرت بالسعادة تتفجر من قلبها، واندفعت خروجاً من النهر العذب نحو السماء وهي تقول في

نفسها:

"لطالما رغبت في زيارة القمر.. لنَرَ مدى اتساع هذا الحلم الجميل".

انطلقت (هياء) صعوداً ولم تتوقف عن التحليق في السماء الزرقاء المكتظة بالغيوم حتى رأت في الأفق سواد الفضاء الممتلئ بالنجوم. توقفت لثوانٍ تُمعن النظر

بـــذلك الفضـــاء الواســـع ثـــم انـــدفعت مجـــدداً نحـوه، واختـرقت غـلاف السـماء الـرقيق والقمـر المكتمـل نصـب عيني‍ـها. حـدث مـا كـانت تتوقعـه وهـو قـدرتها علـى التنفـس

بسهولة في الفضاء، مثلما حدث معها في النهر. كانت تتنفس بسهولة وكأنها على سطح الأرض تماماً. بعد مسير لم يدُمْ أكثر من عشر دقائق اقتربت من سطح

القمر وحطت عليه بكل هدوء. بدأت تتجول على سطحه الخاوي من كل مظاهر الحياة، فلم يكن هناك حولها سوى الحجارة والرمال البيضاء وتساءلت في نفسها

قائلة:

"أين جمالك الذي نراه من بعيد"؟

خلال تجوالها كانت الألوان معدومة؛ فكل ما حولها كان محصوراً بين الأبيض والأسود، وكأنها في أحد الأفلام القديمة، لكن تلك الشحوبة كُسرت عندما لمحت

شيئاً ملوناً على مسافة قريبة منها. توجهت نحو ذلك الشيء بخطوات متسارعة تخللها بعض التحليق الخفيف حتى وصلت إليه، لتجد أنه زهرة بنفسجية نمت

من بين أحد الشقوق. تأملت (هياء) تلك الزهرة البنفسجية وقالت في نفسها:

"تلك الزهرة مرة أخرى.. ما سرُّ ظهورها المستمر"؟

انقطـــع تحـــديقها بـــالزهرة عنـــدما لمحـــت شـــهاباً يمـــر مـــن أمامـــها فـــي السـماء، فابتســمت وانــدفعت محلقــة للأعلــى وقــررت اللحــاق بــه. اســتمرت (هيــاء) بــالتحليق نحـو

الشهاب ومبتعدة عن سطح القمر بسرعة، لكنه اختفى قبل أن تصل إليه. بقيت عائمة في الفضاء تفكر في وجهتها التالية، خلال ذلك خرج وميض من خلف القمر

وكان ذلك الوميض هو نور الشمس، وعندما رأت (هياء) ذلك النور ابتسمت وقررت التحليق نحو الشمس وهي تحدث نفسها مبتسمة وتقول:

"لنَرَ مدى اتساع هذا الحلم الجميل..".

مع استمرار (هياء) بالتحليق نحو قرص الشمس المتوهج زادت سرعتها أكثر وأكثر، وأحاط بها وهج مشتعل وأصبحت كالشهاب الذي رأته سابقاً، لكنها لم تُحس بأي حرارة، بل كانت سعيدة ومبتهجة بما يحدث حولها. بدأت الشمس تزداد حجماً مع اقتراب (هياء) منها، وزاد مع اقترابها الوهج المحيط بها وقبل أن تصل للسطح غطى الوهج عينيها وحجب رؤيتها، لتستيقظ أمام (أمين) وهي ممسكة بالكتاب.

(هياء) وهي تقف في حالة من الدهشة تخالطها ابتسامة خفيفة: ما الذي حدث؟

(أمين) وهو يأخذ الكتاب من يدها: هل استمتعت بالكتاب؟

(هياء): نعم، لكن..

(أمين) وهو يضع الكتاب على المنضدة بجانبه: لكن ماذا؟

(هياء): كنت أريد أن أصل للشمس.

(أمين) مبتسماً: المتعة قد تكون بالرحلة وليس بالهدف منها..

(هياء): ماذا تقصد؟

(أمين) وهو يتناول كتاباً آخر: ما رأيك أن نكمل بقية الكتب؟

(هياء) مبتسمة: حسناً.. ما عنوان الكتاب الذي سنقرؤه الآن؟

(أمين) وهو يمد الكتاب لها: هل يهمك عنوان الكتاب أم محتواه؟

(هياء) وهي تأخذ الكتاب مبتسمة وتجلس مقابل (أمين): لا، فلكل كتاب جماله الخاص.

(أمين) وهو يأخذ كتاباً آخر: مهما كان محتوى أي كتاب يجب أن نبحث عن مصدر الجمال فيه.. تذكري ذلك دائماً.

(هياء): أريد أن أسألك عن أمر ما قبل أن نشرع بالقراءة.

(أمين): ماذا؟

(هياء): ألن تخبرني ما حكاية الزهرة البنفسجية التي تظهر لي في كل كتاب أقرؤه؟!

صمت (أمين) وبقي يحدق في (هياء) بنظرة تعجب..

(هياء): ما بك؟

(أمين): ألم تكتشفي الأمر بعد؟

(هياء): لا..

(أمين) بابتسامة خفيفة: لا يمكنني إخبارك! يجب أن تكتشفي الأمر بنفسك.

(هياء): ألا يمكنك على الأقل تقريب الأمر لي؟

(أمين): لا.

(هياء) بإحباط: حسناً.

بدأت (هياء) تتفحص الكتاب الذي اختاره (أمين) لها وقرأت عنوانه..

(هياء) بتساؤل:.. "المسوخ"؟

(أمين): كتاب جميل ويحمل قيماً جميلة..
(هياء) وعيناها لا تزالان مُنصبتين على العنوان المنقوش بحبر أسود: هل قرأته من قبل؟

(أمين): نعم.

(هياء) وهي ترفع نظرها وتوجهه نحو (أمين): العنوان غير مطمئن.

(أمين): هل ترغبين في تغيير الكتاب؟

(هياء) وهي تعيد نظرها لعنوان الكتاب: لا أعرف..

(أمين): اِتخذي قرارك الآن.

(هياء) وهي تعضُّ شفتها السفلية وتحدق بالكتاب: سأقرؤه.

(أمين) وهو يفتح كتابه: جيد.. أراكِ بعد قليل.

(هياء) وهي تفتح كتابها مع (أمين): حسناً.

خرج وميض قوي من الكتابين وغطى (هياء) و(أمين)..
أمن وأمان

زال وهج النور عن عيني (هياء) لترى أنها تقف في صف طويل من الرجال

المُنصتين لرجل بزي عسكري، يحدثهم ويخطب فيهم بصوت مرتفع وصارم ويقول: أنتم

اليوم صفوة شباب البلد، وقد تم اختياركم كي تكونوا جزءاً من درعه الحديدي ضد أعدائه!.. خلال أسابيع ستصبحون جاهزين للمشاركة في ردع المجرمين الذين

يحيكون ضدنا أبشع المؤامرات لزعزعة أمننا!

وقفــت (هيــاء) تســمع لــذلك الرجــل وهــو يشــحن الرجــال بجانبــها، والــذين كــانوا شــباباً فــي أوائــل العشــرين مــن أعمــارهم. أنــهى الرجــل كلامــه بــالقول: توجــهوا الآن

لعنابركم ومن الغد سيبدأ تدريبكم!

تحرك الرجال بخطوات متناغمة نحو مبنى قريب منهم و(هياء) تسير معهم، وتُحاكي حركاتهم باستغراب. كان الجو غائماً والأرض مشبعة بالماء والطين والبرك

الصــغيرة، وكـأن السـماء كـانت تمطـر أيـاماً، ولـم يكـن للشـمس منفـذ بـين تلـك الغـيوم الكثيفـة والمسـودة. اكتشـفت (هيـاء) أن هيئتـها كـانت شـاباً فـي نفـس عمـر بقيـة

الرجال الذين كانت تقف معهم عندما تعثرت قدمها خلال السير، ورأت محياها بعد سقوطها في بركة مائية صغيرة. بقيت تحدق بوجهها وتتمعن في ملامحها

الذكورية، ولم ينقطع تركيزها إلا بصرخة قوية أتت من خلفها:

ماذا تفعل أيها المجند؟!

نهضت (هياء) بتوتر وبدأت تمسح الطين من على زيها العسكري وهي تقول: لا شيء يا سيدي!

(قائد السرية) وهو ينظر بتجهُّم لـ(هياء) خلال تنظيفها لزيها براحة يديها: ماذا تفعل؟

(هياء) وهي تعتدل في وقفتها: أنظف ملابسي أيها القائد!

(قائد السرية) بنظرة احتقار وسخط: ملابسك؟

لم ترد (هياء) عليه وبقيت تحدق أمامها بتوتر..

في ذلك الوقت وصل بقية الرجال الذين كانت (هياء) تسير معهم للمبنى الذي وجهوا إليه، ولم يبقَّ في تلك الساحة المكشوفة سواها مع القائد.

(القائد) بنبرة صارمة لـ(هياء): اِخلعْ زيك!

(هياء) بتعجب: ماذا؟

(القائد) وهو يصرخ: لن أكرر كلامي أيها المجند!

في لحظة رعب من صراخ القائد خلعت (هياء) الجزء العلوي من ملابسها، ورمته على الأرض الطينية، لكن القائد نهرها مرة أخرى قائلاً: الزي بالكامل!

أزالت (هياء) ما تبقى من زيها العسكري وأبقت على ملابسها الداخلية، فحمل القائد الزي من الأرض وهو يقول: ستبقى هنا حتى تصبح أهلاً لهذا الزي..

سار القائد مبتعداً عن (هياء) التي احتضنت أكتافها من نسمات البرد اللاذعة، وقال قبل ابتعاده عنها: لا تفكر بالحركة، وإلا أرداك القناص حيث تقف!

نظرت (هياء) خلفها لترى برجاً يقف عليه جندي يوجه بندقيته نحوها..

حل الليل ومعه اشتدت قساوة البرد، وتحولت نسماته لرياح لاسعة، وازداد الطين بللاً بهطول الأمطار القوية، ولم تتحرك (هياء) من مكانها بالرغم من الألم

الذي كانت تحس به في جسدها من قرصات البرد، ولم تكن تتحرك إلا لتلقي نظرة على القناص الذي كان على البرج يراقبها، ويوجه طرف بندقيته نحوها وهو

يدخن لفافة من التبغ. عند منتصف الليل انهارت (هياء) من الإرهاق وجَثَت على الأرض بركبتيها، لكنها لم تفقد الوعي وبقيت تحتضن نفسها، وتمسح ساعديها

بحثـاً عـن الـدفء. كـان المكـان مـن حولـها مظلمـاً والسـماء معتمـة بسـبب الغـيوم السـوداء الكثيفـة، ولـم تكـن تـرى مـن النـور شـيئاً سـوى جمـرة سـيجارة ذلـك القنـاص

عندما كان يدخن من وقت لآخر. رفعت (هياء) كفها أمام وجهها عندما أنار كشاف قوي من فوق مبنى بعيد عنها، وسُلّط ضوؤُه عليها برهةً من الزمن، لينطفئ

مرة أخرى وتغوص في الظلام مجدداً. بعد نصف ساعة تقريباً سمعت (هياء) صوت القناص وهو يتحدث مع شخصٍ صعد للبرج معه، واكتشفت أنه قناص آخر

أتى لتسلّم نوبة المراقبة بعده. نزل القناص من البرج بعدما سلم المهمة للقناص الآخر، وسار تجاه (هياء) وعندما مرَّ بجانبها همس لها بجملة دون أن يتوقف أو

يلتفت نحوها وقال:

"لا تجعل القائد يكسر عزيمتك..".

بالرغم من أن تلك الكلمات كانت بسيطة ومقتضبة، فإنها أعطت (هياء) دافعاً للاستمرار والتحمل. توقف المطر، ومع توقفه اشتعل ضوء الكشاف بنوره الأبيض

القوي مرة أخرى، وبقي مسلطاً على (هياء) الجاثية على ركبتيها، ولم يكسره سوى ظل رجل بدأ بالسير نحوها ببطء. عندما وصل صاحب الظل رمى عليها زيها

العسكري وهو يقول:

"يمكنك العودة لعنبرك الآن!".

أخذت الزي بصمت وسار الرجل عائداً من حيث أتى، وخلال سيره نهضت (هياء) وبدأت بلبس الزي. توجهت بعدها بخطوات مترنحة نحو المبنى الذي دخل إليه

الرجال الذين كانت تقف معهم سابقاً. فتحت باب المبنى لترى عنبراً كبيراً مملوءاً بالأسِرّة، وكانت كلها غير شاغرة وبها رجال نائمون ما عدا واحداً في أقصى المكان

رأته بعدما أخذت بضع خطوات داخل العنبر المظلم. رمت (هياء) بنفسها على ذلك السرير الصغير وهي منهكة، وغطت في ثوانٍ بنومٍ عميق لم يعكره سوى صوت

شخص يهز كتفها ويحاول إيقاظها قائلاً: هل أنت بخير؟

(هياء) وهي تفتح إحدى عينيها وترفع رأسها ببطء: ماذا؟

(الرجل) مبتسماً: لا بأس، اِرْتحْ الآن وسنتحدث في الصباح..

عادت (هياء) للنوم دون أن تجيب..

قبل الفجر وقبل أن يشق نور السماء الأفق المظلم دخل أحد الضباط العنبر، وبدأ بالصراخ بقوة لإيقاظ الجنود النائمين. نهض الجميع بفزع بمن فيهم (هياء)،

واصطفوا في خط مستقيم فاصطفت معهم، وبدأ الضابط يسير بجانبهم ويقول بنبرة قوية وحادة:

"اليوم هو يومكم الأول من الشهور الثلاثة التي ستقضونها معنا.. سوف تتعلمون كل شيء يختص بالسلاح والدفاع عن النفس وتلقي الأوامر، والأهم من ذلك

سوف تتعلمون كيف تصبحون رجالاً!".

منذ ذلك اليوم أمضت (هياء) أسابيع في التدريبات الشاقة من أول الصباح إلى آخر المساء، وكانت تعود مرهقة ولا تتناول في اليوم سوى وجبتين تتجاذب فيهما

أطراف أحاديث سريعة مع زملائها الجنود، الذين فهمت منها مع مرور الأيام أنهم فرقة يتم تدريبها لمواجهة أعداء يُهدّدون أمن الدولة الراعية لهم. لم تستطع

تحديد جنسية الجنود أو مكانها الجغرافي؛ فكل شيء كان مبهماً لها والأحداث تسير بعجالة ووتيرة سريعة. اشتد بأسها قبل نهاية الثلاثة أشهر، وأصبحت (هياء)

ملمة بالكثير من الأمور العسكرية، وأصبحت رامية ممتازة وتصيب أهدافها بدقة عالية بالأسلحة الخفيفة. في اليوم الأخير وقف الضابط المسؤول عن تدريب تلك

الكتيبة في حفل تخريجهم على منصة اجتمعوا أمامها وخطب فيهم قائلاً:

"اليوم تتسلّمون نجوم تخرجكم لتعتلي أكتافكم.. يحق لكم الفخر بهذا الإنجاز ووطنكم ينتظركم كي تردوا له صنيعه في تحويلكم إلى رجالٍ منتجين ومساهمين في

رفعته وأمنه وأمانه!".

صرخ الجنود مبتهجين، وصعدوا واحداً تلو الآخر على المنصة لتسلّم نياشينهم،

وعندما حان دور (هياء) وقفت أمام الضابط بوجه قاسٍ ومتجهِّم فقال لها باسماَ:
لقد خيبتَ توقعاتي فيك أيها الجندي، وأثبت أن الماء يمكن أن يتحجر..".

رفعت (هياء) كفها بجانب جبينها وقدمت التحية العسكرية للقائد بينما كان يعلق نيشان التخرج على كتفها. تفرق الجنود وبدؤوا يحتفلون في عنبرهم بآخر يومٍ

لهم في المعسكر، وبينما كانوا في خضمّ ذلك الاحتفال دنا أحد الجنود من (هياء) وقال: وأخيراً سنرى براعتك في الرماية على الأحياء بدل القطع الخشبية التي كنت

ترميها.

(هياء) وهي تنظف بندقيتها بتجهُّم ووجه خالٍ من المشاعر: لا فرق.. سأصيب هدفي مهما كان.

(الجندي) ساخراً: الأحياء يجرون ويتحركون.

(هياء) وهي تنفخ كمامة بندقيتها: لن يزيد ذلك إلا متعتي في اقتناصهم.

(جندي آخر): أظن أن القائد لن يسمح لك بالمشاركة في الغارة، وسيضمك للقناصين لاقتناص الهاربين من مداهمتنا.

(هياء) وهي ترفع البندقية وتنظر من خلال نطاقها: سألبي أوامر القائد مهما كانت.

بعد أيام خرجت الكتيبة ليلاً بأمر من قائدها في عمليتهم الأولى، وكانت العملية عملية "تقصٍّ وإبادة" كما سماها الضابط المسؤول عن تلك المهمة، والذي وجه

أفرادها بالإغارة على مجموعة من البيوت في قرية صغيرة، وأمر مجموعة القناصة الذين كانت (هياء) من ضمنهم بأخذ مراكزهم، وقنص كل من يحاول الهروب

مستعينين بنطاق الرؤية الليلية. وبالفعل ما إن هجم الجنود ودخلوا البيوت حتى بدأت أصوات القذائف وصرخات قاطنيها تملأ المكان، وأمسك القناصة ببنادقهم

مُتشبثين بمقابضها ينتظرون أي أحد يخرج فاراً من تلك المذبحة.

بعد دقائق بدأ يظهر في مرمى القناصة الأشخاص الهاربون من المنازل، والذين فروا من تلك الإبادة فلم يترددوا وقنصوهم واحداً تلو الآخر، وكانت (هياء) تتفنن في

إصابتهم في الرأس مباشرة وهي تلوك قطعة من العلك في فمها.

(القائد) مبتسماً وموجهاً كلامه لـ(هياء): اُترك القليل منهم لزملائك..

(هياء) وهي تُعمّر الذخيرة في بندقيتها وعيناها تحدقان من خلال نطاقها المكبر: لا تقلق يا سيدي؛ هناك الكثير منهم.

استمر الجنود في القتل داخل البيوت، واستمر القناصة بالتقاط وقنص الفارين، ولم ينتهِ الأمر إلا مع أول الصباح حيث تسلّم القائد مكالمة عبر جهازه الخلوي بأن

جميع الأهداف قد تمت إبادتها، فأمر القناصة بحزم أمتعتهم واللحاق به نحو القرية. سار القناصة خلف القائد المنتشي بالانتصار، ومع اقترابهم من مدخل القرية

بدؤوا يشاهدون من كانوا يقنصوهم وصعقت (هياء) من المنظر.

لم ترَ بينهم أحداً يمكن أن يكون مصدر خطر أو تهديد، فكلهم كانوا من النساء والأطفال وكبار السن، ولم تشاهد رجلاً واحداً، بل إنها لم تَرَ أياً منهم يحمل

سلاحاً أو شيئاً يشكل خطراً أو تهديداً. توقفت (هياء) خلال مسيرها عندما لمحت طفلة صغيرة منكبة على وجهها، وعلمت أنها ماتت من إحدى طلقاتها لأن رأسها

كان ينزف من طلقة اخترقته. لاحظ القائد وقوف (هياء) عند جثة الطفلة، فتوقف والتفت إليها قائلاً: ما بكِ؟.. لِمَ توقفت؟

(هياء) وهي تنزل على ركبتيها عند جثمان الطفلة: لِمَ قتلنا هؤلاء الأبرياء؟

(القائد) بسخرية: هؤلاء الأبرياء كما تسميهم هم من أخطر منابع الإرهاب.

قلّبت (هياء) الفتاة وهي تدمع، فشاهدتها قابضة بيديها على زهرة بنفسجية..

(القائد) بتجهُّم: هل سنبقى طويلاً عند هذه الجثة؟!

(هياء) وهي تغمض عينيها: لا.. أنا راحلة.

خرج وميض قوي من الزهرة البنفسجية وغطى ذلك الوهج الجميع..
ألم الأمل

عادت (هياء) لغرفة المعيشة بعدما انقشع النور، ورفعت رأسها وهي تبتسم بحزن، ووجهت نظرها لـ(أمين) الذي أغلق كتابه للتو، وبقيت صامتة حتى تبسّم لها

وقال: أرى في عينيك حديثاً..

(هياء): الزهرة البنفسجية هي بوابة الخروج..

(أمين) بابتسامة رضا: نعم.

(هياء): عوالم هذه الكتب لا يمكن الخروج منها إلا من خلال تلك الزهرة.

(أمين): إذا لم تجدي الزهرة فلن تتمكني من الخروج أبداً.

(هياء): عندما رأيتها في قبضة تلك الفتاة انتابني إحساس غريب، وكأنَّ شيئاً ينادي عليّ، وبمجرد أن رغبت بالرحيل رحلت.

(أمين): لقد فهمتِ الآن سرَّ وهج البنفسج.

(هياء): كيف حصلت على واحدة من تلك الزهور؟

(أمين): تقصدين الزهرة التي أعطيتك إياها أول مرة التقينا فيها.

(هياء) وهي تضع كتابها جانباً: نعم تلك الزهرة.. كيف حصلت عليها؟

(أمين): من أحد تلك الكتب التي نقرؤها.

(هياء): نعم، لكن كيف؟.. هل يمكنني قطف أي زهرة أجدها.

(أمين) بنبرة صارمة: لا!.. اِحذري أن تفعلي ذلك!.. سوف تحبسين للأبد في الكتاب.

(هياء): كيف تمكنت أنت إذاً من ذلك؟

(أمين): أحياناً تصادفين أكثر من زهرة.. أنا وجدت بستاناً كاملاً منها في أحد الكتب، فقطفت واحدة وعدت بها، لكن لا تحاولي ذلك إذا لم يكن في الجوار سوى زهرة واحدة.

(هياء): هل يمكنني أخذ أشياء أخرى من الكتب وأعود بها معي؟

(أمين): لم أحاول ذلك من قبل ولا أنصحك بالمحاولة؛ فنحن لا نعلم ما قد يحدث.

صمتت (هياء) وسرحت في الأرض بصمت..

(أمين): بقي كتابان.. هل ترغبين في إكمالهما الآن أو لاحقاً؟

لم تردّ (هياء) على (أمين) وبقيت سارحة في الأرض أمامها..

(أمين): ما بك؟

(هياء) وهي لا تزال سارحة: الكتاب الأخير استنزفني..

(أمين): عودي للمنزل إذاً ويمكننا الإكمال لاحقاً.

نهضت (هياء) من أمام (أمين) وسارت نحو الباب، وقبل خروجها قالت وهي سارحة في الأفق: سعيدة لعودتك..

(أمين) مبتسماً: سعيد لأنكِ كنتِ بانتظاري..

عادت (هياء) للقصر وأمضت بقية يومها هناك..

مضت الأيام والأسابيع، وكما اعتادت (هياء) كانت تتردّد إلى (أمين) بعد عودتها من المدرسة، وتعود أول المساء. وبالرغم من أنها كانت تزوره يومياً، فإنها لم تقرأ كتاباً آخر بعد كتاب "المسوخ"، وكانت تريد قضاء معظم وقتها مع (أمين) والحديث معه، وهو لم يمانع بل كان سعيداً بذلك. دخلت (هياء) منزل (أمين) في أحد الأيام بعد يومها الدراسي، وصرخت بصوت مرتفع قائلة: (أمين)!.. لقد تخرجت!

(أمين) وهو يخرج من إحدى الغرف مبتسماً: مُبارك يا (هياء)!

جرت (هياء) نحوه وعانقته وقالت: أنت أول شخص أُخبِره!

(أمين): هل اخترت جامعتك بعد؟.. أعلم أنك تفوقتِ ويمكنك الدراسة بأي جامعة تختارينها.

(هياء) وهي تفك عناق (أمين): لا ليس بعد، لكن لا يهم هذا الآن.

(أمين) بتعجب: ما المهمُّ إذاً؟

(هياء) وهي تبتسم ببهجة: أريد أن أقرأ كتاباً.

(أمين) بسخرية: ألم تملي من كتب المدرسة.

(هياء) وهي تدفع كتف (أمين) ضاحكة: أنت تعرف ماذا أقصد!

(أمين) وهو يسير نحو غرفة المعيشة مبتسماً: الكتب التي اخترتها سابقاً لا تزال موجودة ولم أرجعها للمكتبة.

(هياء) وهي تجري نحو المنضدة وتلتقط أحدها وتقرأ عنوانه: "أربعة جدران".. هذا يبدو شائقاً.

(أمين) وهو يتوجه لركن إعداد القهوة: ماذا تنتظرين إذاً؟

(هياء) وهي تلتفت إلى (أمين) والكتاب بين يديها: ماذا عنك أنت؟ ألن تقرأ؟

(أمين): سأقرأ معك الكتاب الأخير.. اِبْدئي بهذا الكتاب، وأنا سأُعِد بعض القهوة لنا.

فتحت (هياء) الكتاب ليخرج وهج قوي غطّاها بالكامل..

استيقظت (هياء) في غرفة بيضاء على صوت طنين منتظم وهي ممددة على فراش أبيض، ولحاف يغطيها ومخدة ناعمة تسند رأسها. وجدت صعوبة في التحرك،

وأحست عند محاولتها الحركة ببعض الألم الحاد المنتشر في جسدها. لاحظت أيضاً أن أغلب جسدها كان مغطى بالضماد حتى رأسها. نظرت يميناً ورأت لوحةً

مكتوباً عليها "قسم الحروق". الغرفة كانت مما رأت (هياء) مُعقمة جداً ومخصصة للعزل الصحي، وعندما جاهدت والتفتت يساراً رأت مريضين مُمدّدين مثلها

والضمادات تغطي جسديهما بالكامل. كان سريراهما معزولين بستار بلاستيكي شفاف، ولا يستطيعان الحراك إلا بمساعدة ممرضة كانت في ذلك الوقت موجودة

في الغرفة تحقن أحدهما بمصل بواسطة "سرنجة" صغيرة. بعد دقائق من الصمت تحدث أحد المريضين لـ(هياء) وقال:

(المريض 1): كيف حالك اليوم؟

(هياء): أشعر بالألم..

(المريض 2): نعرف، فلقد سمعنا أنينك البارحة.

(المريض 1): أنتَ كنت تئن أيضاً.

(المريض 2) وهو يضحك ويسعل: كلنا كنا نئن!

(المريض 1) يضحك بقوة: اُسكت؛ فالضحك يؤلمني!

(المريض 2) وهو يضحك: حسناً حسناً..

خلال ضحكهما كانت (هياء) لا تزال تتفحص المكان من حولها بتمعن شديد، وتحاول استيعاب الموقف حتى وقعت عينها على باب الغرفة الذي فُتح ودخل منه

طبيب مع إحدى الممرضات وقال للجميع: كيف حالكم اليوم؟

(المريض 1): الحمد لله، بخير يا دكتور.

(المريض 2): مازلت أحس ببعض الألم في صدري.

(هياء): أنا أحس بالألم في جسدي كله.

(الطبيب) وهو يبتسم: لا بأس.. سوف نحقنكم اليوم بمهدئ قوي سيساعدكم على النوم براحة.. هذا الدواء جديد، لكنه سيُفيدكم بإذن الله لتسكين الألم.

(المريض 1): حقاً يا دكتور؟!.. أتمنى ذلك؛ فالألم يزداد عندما ننام بالذات.

(الطبيب) موجهاً كلامه للممرضة: اِحقنيهم بـ20 ملغ من المصل الجديد هذا المساء.

(الممرضة): حاضر.

(المريض 2): شكراً يا دكتور.

الطبيب يرحل مبتسماً..

في المساء دخلت الممرضة التي كانت حاضرة مع الطبيب صباحاً ومعها بعض الحقن والأمصال، وقامت بحقن (هياء) والمريضين الآخرين بها، وقبل خلودهم للنوم
تحدثوا قليلاً:

(المريض 1) وهو يغمض عينيه مبتسماً: هذا المصل جميل، لم أعد أحس بأطرافي من الخدر.

(المريض 2): نعم بالفعل، أحس بأنني لا أعاني أيَّ حروق.

(هياء) وهي تتثاءب: يبدو أني سأقضي وقتي هنا في النوم فقط.

سمع الثلاثة أنيناً في الغرفة.. أنين شخص يتألم..

(المريض 1) وهو على وشك فقدان الوعي من أثر المصل: مَنْ منكم يصدر هذا الصوت.. ألم يعمل المصل مع أحدكم؟

(المريض 2) وهو يغرق تدريجياً في النوم: أنا.. لم.. أتكلم.

غط الثلاثة في نوم عميق و(هياء) كانت تشخر بقوة..

في الصباح استيقظ الثلاثة على صوت الطبيب الذي كان يقوم بجولته الصباحية مع

ممرضته المرافقة له دائماً، ولما رآهم قد استيقظوا سألهم: كيف وجدتم المصل الجديد؟

(المريض 1) وهو يمسح النوم من عينيه: إنه مصل من الجنة يا دكتور.. لم أنم هكذا منذ وقت طويل.

(المريض 2): كان رائعاً، لم أحس بشيء طَوَال الليل.

(هياء) وهي تبتسم بوجه متخدّر وناعس: من روعته مازلت أحس بالخدر إلى الآن.

(الطبيب) مبتسماً: جيد.. سنصرفه لكم بشكل يومي حتى تتحسّن حالتكم وتبرأ حروقكم.

خرج الطبيب ولحقت به الممرضة..

(المريض 1): من منكم كذب على الطبيب؟

(هياء) باستغراب: ماذا تقصد؟.. أنا لم أكذب في شيء.

(المريض 2): ولا أنا.

(المريض 1): لقد سمعت شخصاً يئنُّ البارحة بعدما أخذنا المصل، وهذا يعني أن أحدكما لم يتأثر بالدواء، وكذبه هذا غباء وقد يعرض حياته للخطر.

(المريض 2): أنا لم أكذب؛ فقد استفدت فعلاً من المصل.

(هياء): وأنا كذلك.

(المريض 1) بتعجب: من كان يئن ليلة البارحة إذاً؟

(المريض 2): ربما كنت تتوهم.

(المريض 1) باستغراب: ربما..

حل المساء وحضرت الممرضة لإعطاء المرضى جرعاتهم من الأمصال، وتكرر ما حدث في الليلة الماضية، فقبل أن يغفوا سمعوا جميعاً صوت أنين من شخص رابع،

ولكونهم مضمدين بالكامل ولا يقوون على الحراك أو الرؤية بوضوح بسبب ستائر العزل التي تحيط بهم، لم يستطيعوا تحديد مصدر الصوت. وفي اليوم التالي

وخلال زيارة الطبيب الروتينية أخبره الثلاثة بما سمعوه، وسألوه عمّا إذا كان هناك مريض رابع، قد تم إحضاره ليلاً بينهم دون إخبارهم، فأجابهم الطبيب بالنفي

ورحل عنهم وتركهم في حيرة يتناقشون:

(المريض 1): ماذا تظنون مصدر الصوت الذي سمعناه البارحة؟

(هياء): لو لم أسمعه بنفسي لقلت إنكم واهمون.

(المريض 2): لا يمكننا القيام بشيء؛ فنحن عاجزون تماماً عن الحركة.

(المريض 1): لدي فكرة.

(المريض 2): ما هي؟

(المريض 1): أحدنا يجب أن يرفض أخذ المصل اليوم ويتحقق من الأمر، ويحاول الحديث مع صاحب الصوت.

لم ترد (هياء) على الاقتراح وصمتت في انتظار كلام المريض الآخر..

(المريض 2): ولِمَ يرفض شخص واحد فقط؟ لِمَ لا نرفض نحن الثلاثة أخذ المصل؟

(المريض 1): عدم أخذ المصل سيترك صاحبه في ألم حتى الصباح، ولا يوجد سببٍ كي نعاني جميعاً.

(المريض 2): معك حق، الأمر لا يتطلب استيقاظنا جميعاً وحرماننا الدواءَ.. واحد منا يجب أن يُضحي ليلةً واحدة.

(هياء): ومن سيضحي بمصله؟

(المريض 1): أنا صاحب الفكرة وأنا من سيتحقق من الأمر.

في المساء تناول الاثنان جُرعتيهما من المصل ما عدا (المريض 1)، الذي تحجج للممرضة بأن العقار يصيبه بالغثيان عندما يستيقظ، وأنه يريد التأكد من الطبيب قبل

تعاطيه جرعات أخرى. وحيث إن الطبيب غير موجود في الفترة المسائية للاستشارة، وافقت الممرضة على طلبه من باب الاحتياط وأخبرته بأنها ستترك باب الغرفة

مفتوحاً كي ينادي عليها إذا احتاج لشيء، لكن (المريض 1) رد على اقتراحها باستغراب شديد وقال: ما فائدة جهاز المناداة القريب مني إذاً؟

(الممرضة) وهي تبتسم: هذه الأجهزة لا يمكن الوثوق بها؛ فقد تتعطل وأنت في حاجة ماسة للمساعدة، ولو أغلقت الباب فلن أتمكن من سماع ندائك.

(المريض 1) وهو يوافق والتعجب والشك لا يزالان يُساورانه: حسناً.

بعد خروج الممرضة من العنبر بدقائق، بدأت أصوات الأنين تصدر، وبدأ (المريض 1) يسمعها بوضوح. حاول المريض التواصل مع مصدر الصوت بمناداته، لكنه لم

يرد، واستمرَّ بالتوجع والأنين والمريضان الآخران غارقان في نومٍ عميق. قرر (المريض 1) استدعاء الممرضة من خلال جهاز النداء، فحضرت بسرعة وفتحت الستارة

المحيطة بسريره وقالت: ما الأمر؟!.. ما بك؟!

شرح المريض لها ما سمعه، فتفحصت المكان ولم تجد شيئاً فقالت بغضب: إذا كان عدم تعاطيك المصل سيُسبّب لك الهلوسات فإني أقترح عليك أخذه والخلود

للنوم!

أغلقــت الممرضــة الســتارة بعنــف، وبعــد قليــل ســمع بــاب العنبــر وهــو يغلــق بقــوة، وبمجــرد إغلاقــه عــاودت أصــوات الأنــين والتــوجع فــي الغرفـة، مـا دفـع (المـريض 1)

للصراخ فيه قائلاً: من أنت؟!.. وماذا تريد؟!

في الصباح دخل الطبيب مع الممرضة التي كانت مناوبة ليلة البارحة، فهي تعمل نوبات الليل وأول الصباح وترحل في الظهيرة، وسأل المرضى عن أحوالهم قائلاً:

كيف حالكم هذا الصباح؟

(المريض 2) من الستار المحيط بسريره: الحمد لله، أحس بتحسن اليوم.

(هياء) وهي تبتسم بخدر من خلف الستار المحيط بسريرها: مع هذا المصل يا دكتور لا تحتاج لسؤالي.

(الطبيب) وهو يهم بالرحيل: جيد.. سأزوركم غداً بإذن الله.

(المريض 2): لحظة يا دكتور! لِمَ لم تسأل صاحبنا عن حالته.. هل مازال نائماً؟

(الطبيب): (أبو هيثم) تُوفي في الفجر.. ألم تخبركم الممرضة بذلك؟

(هياء): ماذا؟!.. كيف حدث ذلك؟!

(المريض 2): كيف؟!.. لقد كان في تحسن مستمر وصحته أفضل مناً جميعاً.

(الطبيب): الأعمار بيد الله، ولا اعتراض على مشيئته.. أراكم غداً بإذن الله..

خرج الطبيب ولحقت به الممرضة..

(المريض 2): لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمك الله يا أبا هيثم..

(هياء): سبحان الله لقد كان أكثرنا حيوية.

(المريض 2): هل تعتقد أن الأمر له علاقة بما فعله البارحة؟

(هياء): ماذا تقصد؟.. ماذا فعل؟

(المريض 2): هل نسيت؟.. قراره الاستغناء عن المصل للتحقق من أمر صوت الأنين الذي سمعناه.

(هياء): لا أعتقد.. أظن أنها كانت ساعته والأمر مجرد مصادفة.

صمت (المريض 2) ولم يرد..

(هياء): ما بك؟.. لِمَ سكت؟

(المريض 2): أفكر..

(هياء): تفكر بماذا؟

(المريض 2): أفكر في الاستغناء عن المصل الليلة..

(هياء): لماذا؟ ولأي غرض؟

(المرض 2): موت صاحبنا يثير الريبة.

(هياء): كيف تفكر؟.. لو فرضنا جدلاً أن موته متعلق بتركه المصل، وهذا أمر وارد جداً، فهل ترمي بنفسك في الطريق نفسه الذي هلك بسببه صاحبنا؟.. ربما كان للمصل تأثيرات جانبية نجهلها بتركه!

(المريض 2): إذا كان هناك خطر في الغرفة فهو ما زال موجوداً، وكوننا نائمين فذلك لن يغير من حقيقة تعرضنا للخطر.

(هياء): ماذا ستفعل وأنت بهذا الوضع العاجز؟

(المريض 2): بصراحة لا أستطيع أخذ مخدرٍ وأنا أحس بالخطر يحيط بي في هذه الغرفة.

(هياء): كما تشاء، أنا سوف آخذ دوائي كالمعتاد.

حل المساء وبعد أن أخذت (هياء) مصلها وخلدت للنوم، توجهت الممرضة إلى (المريض 2) وهي تحمل الحقنة، لكنه أوقفها قائلاً: لا أريد المصل اليوم..

(الممرضة) بتعجب يخالطه بعض التجهُّم: لماذا؟!

(المريض 2) بغضب: لا أشعر برغبة في ذلك! وأنا لستُ مجبراً!

(الممرضة): ما حكايتكم مع رفض تعاطي المصل؟!

(المريض 2) وهو يصرخ في وجه الممرضة: لا أريد المصل.. ألا تفهمين؟!

(الممرضة) وهي تضع الحقنة جانباً بهدوء: كما تشاء..

خرجت الممرضة ولم تغلق باب العنبر خلفها. بعد خروجها بدقائق بدأ صوت الأنين يُسمع من أحد أركان الغرفة، فتسلل التوتر المختلط بالخوف لصدر المريض

وأخذ يحاول النظر من خلال الستارة البلاستيكية تجاه مصدر الصوت، لكنه لم يستطع رؤية شيء. لم تتوقف أصوات الأنين، بل أخذت تزداد ويصاحبها توجُّع بتمتمات غير مفهومة.

(المريض 2) بقلق شديد: من هناك؟!

الأنين يستمر دون أن يرد أحد..

(المريض 2) وهو يتصنع الشجاعة: لا تظن أني خائف منك!.. من أنت؟! وهل كان لك يد في موت صاحبي؟!

الصوت يستمر بالأنين دون أن يردَّ على المريض..

في الصباح دخل الطبيب على عجالة للعنبر، وتوجه مباشرة لسرير (هياء) وفتح الستارة وهو يقول بتوتر شديد: هل أنت بخير؟!

(هياء) وهي تستيقظ من النوم: أهلاً يا دكتور، ما بك؟ لِمَ تبدو قلقاً هكذا؟

(الطبيب) بقلق شديد: أجبني أولاً!.. هل أنت بخير؟!.. هل تحس بأي آلام أو صداع؟!

(هياء) بتعجب: لا أبداً، أنا بخير ولله الحمد.

(الطبيب) وهو يزفر نَفَساً ثقيلاً بارتياح: الحمد لله!

(هياء) وهي تعتدل في جلستها على السرير: ما الأمر؟.. ماذا حدث؟

(الطبيب) وهو يسحب كرسياً ويجلس بجانب سرير (هياء): المصل الذي كنتم تتعاطونه في الأيام السابقة كان يسبب هلوسات في ما يبدو، وهذه الهلوسات تقود

تدريجياً للموت، وقد نبهتني إلى ذلك الممرضة اليوم من خلال ملاحظاتها لكم في الأيام الفائتة.

(هياء): فعلاً، لقد كنا نسمع أصواتاً كثيرة لم نجد لها أي تفسير.

(الطبـيب): كلامـك يتطـابق مـع كـلام الممرضـة.. تـرك صـاحبيك لتعـاطي المصـل يبـدو أنـه عجـل مـن اسـتحلابه فـي الكبـد وضـاعف مـن أعراضـه الجانبيـة وهلوسـاتهما،

وتسبب في موتهما، وأعتقد أن استمرارك بتعاطي المصل جنَّبك مواجهة المصير نفسه، لكن لن نتأكد من ذلك إلا بإجراء تحاليل أكثر على المصل، لذا قررنا إرجاعه

للشركة المصنعة وفتح تحقيق بالموضوع.

(هياء) وهي مصدومة: هل مات المرض الآخر أيضاً؟

(الطبيب): للأسف نعم.. لكن الحمد لله أنك مازلت بخير كي نحقنك بالترياق المضاد الذي سيعكس مفعول المصل في جسمك.

(هياء) وهي تنزل رأسها بحزن: لقد حذرته من الامتناع عن أخذ المصل..

(الطبيب) وهو ينهض من الكرسي ويهم بالرحيل: سوف أوجه الممرضة بأن تحقنك بالترياق في أسرع وقت.

(هياء) والحزن لا يزال يعتلي ملامحها: هل لي بطلب يا دكتور.

(الطبيب): نعم تفضل.

(هياء): هل يمكنكم فتح الستائر البلاستيكية المحيطة بي بالكامل.. أشعر بالاختناق!

(الطبيب) وهو يفتح الستائر مبتسماً: لا بأس، لم تعُدْ بحاجتها بما أنك وحدك بالغرفة الآن.

(هياء) بابتسامة حزينة: شكراً.

خرج الطبيب وترك (هياء) تجول بنظرها في أركان الغرفة التي خلت من المرضى، ولم يكن بها سوى سريرين خاويين، وخلال تحديقها بهما دخل رجل يحمل باقة من زهور البنفسج وهو يقول: أليست هذه الغرفة التي بها (أبو هيثم)؟

(هياء) بحزن: بلى، لكنه تُوفي قبل الأمس.

وقف الرجل صامتاً وعلى وجهه صدمة وحزن ولم ينطق بكلمة، وبعد ثوانٍ من الصمت والتحديق بـ(هياء) تقدم نحوها بضع خطوات ومد لها باقة الزهور ورحل.

أمسكت (هياء) بالباقة ونظرت لزهور البنفسج وقالت في نفسها: يبدو أن موعد رحيلي قد اقترب.

دخلت الممرضة عليها وبدأت بإعداد الحقنة وهي تقول: باقة جميلة.

(هياء) وعيناها على الزهور: نعم بالفعل.

(الممرضة) وهي تسحب المصل من الزجاجة بالإبرة: ليت زوجي يحضر لي هدية كهذه من وقت لآخر، لكن كيف له ذلك وأنا محبوسة هنا في هذا العمل الذي لا ينتهي.

(هياء): هل هذا هو العقار المضاد للمصل الذي سبّب لنا الهلوسات؟

(الممرضة): نعم.

(هياء): هناك أمر غريب..

(الممرضة) وهي تضرب الحقنة بأصبعها: ماذا تقصد؟

(هياء): إذا كان العقار يسبب الهلوسة لِمَ لم نسمعها إلا ليلاً؟ لماذا لم نتعرض لها في النهار؟

(الممرضة) وهي تمسح بقطنة معقمة مكان الوخز: لا أعرف.

(هياء): ألا تجدين أن هذا الأمر غريب؟

(الممرضة) وهي تقترب بالإبرة من ذراع (هياء): لا.

(هياء) وهي تبتسم: أنتِ ملاك رحمة بالفعل.

(الممرضة) وهي تحقن (هياء): أحياناً قد يأتيك الموت على شكل ملاك..

(هياء) وهي تحتضن باقة زهور البنفسج وقد بدأت بالدوخان وفقدان الوعي: ماذا تقصدين؟

(الممرضة) وهي تهمس في أذنها: لأن المصل سليم ولا يسبب أي مضاعفات.. أنا من كنتُ أصدر أصوات الأنين كي تشكّوا بالمصل وتنقلوا تلك الشكوك للطبيب.. كنت

أريد أن أحميكم من العيش كمسوخ مشوهة بتلك الحروق في مجتمعٍ لن يرحمكم ولن يتقبلكم بهذه الصور إلا بداعي الشفقة وليس الحب.. لم أجد طريقة سوى

قتلكم واحداً تلو الآخر، وإلقاء اللوم على المصل الجديد، ولقد ساعدتني بتأكيد تعرضكم للهلوسات عندما أقررت بها أمام الطبيب.. تصبح على خير.

أغمضت (هياء) عينيها ورأت وهج نور قوي..

الورق المحبور

عادت (هياء) إلى غرفة المعيشة، وما إن انقشع الوهج الذي أعادها حتى قالت بحنق وغضب شديدين: تلك اللعينة!

(أمين) وهو على أريكته: عمَّن تتحدثين؟

(هياء) بغضب: تلك الممرضة!.. هي وراء كل ما كان يحدث! أريد العودة وتلقينها درساً قاسياً.

(أمين): أخبرتك بأن قراءة الكتاب نفسه مرتين مخاطرة.

(هياء): أنا لم أَرَ أشياء كثيرة هذه المرة فمعظم الوقت كنت نائمة.

(أمين): أحداث الكتاب تستمر سواء كنتِ مستيقظة أم نائمة؛ فعالمه لا يتوقف لأجلك، لكنه يسير بوجودك.

(هياء): هذه المرة رأيت أكثر من زهرة بنفسجية.

(أمين): وهذه المرة تأخرت قليلاً على غير العادة.

(هياء): فعلاً لاحظت ذلك.. بالعادة عندما أعود أكون قد رحلت لثوانٍ فقط، لكن هذه المرة يبدو أنني رحلت فترة أطول.. لِمَ حدث ذلك؟

(أمين) وهو يأخذ رشفة من قهوته: روحك بدأت تنسلخ عن واقعك وترتبط أكثر بعالم تلك الكتب.

(هياء): وهل هذا الأمر سيئ؟

(أمين) وهو يلتقط الكتاب الخامس: يعتمد ذلك على رغبتك.

(هياء): لا تتحدث بالألغاز مجدداً يا (أمين).. أخبرني بكل وضوح عن سبب تأخري هذه المرة.

(أمين): بعض الأمور يجب أن تكتشفيها بنفسك.. هل قررت بأي جامعة ستلتحقين؟

(هياء) وهي تجلس على الأريكة بجانب (أمين): سوف أتقدم لجامعة المدينة.

(أمين) وهو يضع الكتاب في حجره: مدينتنا؟

(هياء) مبتسمة: نعم، كي أكون بجانبك دوماً.

(أمين) بتجهُّم: لا تضيعي مستقبلك لسبب كهذا!.. أنتِ تملكين عقلاً متوهجاً بالمعرفة ويجب أن تبحثي عن جامعة مرموقة!

(هياء): لا يهم ذلك يا (أمين). المهم أن أكون معك وبقربك.

(أمين) بصوت عالٍ وحاد: بل يهم!

(هياء) وهي مصدومة: ما بك يا (أمين)؟ هذه أول مرة تصرخ فيها علي!

(أمين) وهو ينهض ويضع كوب قهوته على المنضدة بغضب: لن تقرئي كتاباً آخر من المكتبة إذا كنتِ تنوين هدر مستقبلك لأجلها.

سار أمين والكتاب الخامس بيده نحو السرداب وحاجباه معقودان غضباً، فلحقت به (هياء) وأمسكت بلباسه وهي تقول: ما بك؟!.. لِمَ تقول ذلك؟!

(أمين) وهو يفك قبضة (هياء) من لباسه: اُخرجي من منزلي!

(هياء) وهي تدمع وهول كلمات (أمين) يطرق رأسها: ماذا؟!.. أخرج؟!

(أمين) وهو يفتح باب السرداب ويغلقه خلفه بقوة: نعم!.. ولا تعودي أبداً!

وقفت (هياء) في حالة من الذهول، والحزن الشديد، لما سمعته. وبعد وقوفها فترة وجيزة أمام باب السرداب بدأت تسير ببطء نحو باب الخروج من منزل (أمين)،

متوجهة لمنزلها. بعد دخولها القصر وجدت في ردهته بعض الأمتعة والحقائب، وكانت (حليمة) مع بعض الخدم يرتبونها.

(هياء) باستغراب وهي تمسح دمعة من خدها بظهر يدها: ما كل هذا؟.. هل سيسافر أبي لمكان؟

(حليمة) دون أن تلتفت إليها لأنها منهمكة بترتيب الحقائب: كلنا سنسافر يا سيدتي.

(هياء) وهي مصدومة: ماذا؟!.. إلى أين؟!

(حليمة) وهي تدير نظرها نحو (هياء) وتستمر في شد الأمتعة وترتيبها: ما بكِ يا سيدة (هياء)؟ هل كنتِ تبكين؟!

(هياء) بقلق وعلى عجالة: لا عليك مني.. ما حكاية سفرنا هذه؟!

صوت (الأب) قادماً من غرفة المعيشة: سوف نرحل.

(هياء) وهي تلتفت إلى أبيها: إلى أين؟!.. أنا لن أرحل!

(الأب) وهو يأخذ بضع خطوات ويقف أمام (هياء): لم يعُدْ لدينا سبب للبقاء، لقد أتينا إلى هنا كي تجربي حياة مختلفة. وبما أنكِ تخرجتِ في الثانوية فحياتك

الجديدة تنتظرك.. لا تقولي إنك ستلتحقين بإحدى الجامعات هنا.

(هياء) وهي تتذكر سخط (أمين) عليها وتنزل رأسها: لا يا أبي..

(الأب) وهو يضع كفه على رأس ابنته مبتسماً: كنت أعرف أنكِ عاقلة ولن تفكري بمثل هذا القرار غير الحكيم.

بدأت (هياء) بالبكاء..

جرت (حليمة) نحوها وهي تقول بقلق: ما بكِ يا سيدتي؟!

(الأب) وهو يرفع كفه عن رأسها ويخرج غليونه من جيب سترته: تبكي لأنها ستفارق ذلك الكهل.. لا تقلقي، موعد سفرنا سيكون بعد ثلاثة أيام يمكنك خلالها توديعه.

لم ترد (هياء) على أبيها، وتوجهت للسلالم المؤدية لغرفتها وصعدت للطابق العلوي وهي تبكي و(حليمة) خلفها..

(الأب) وهو يشعل عود ثقاب ويقربه من رأس غليونه ويحدث نفسه: توقعت مقاومة أكثر منها.. يبدو أنها مستعدة للرحيل من هذا المكان.

مضى اليومان الأول والثاني، وفي صباح اليوم الثالث، وعلى مائدة الإفطار، تحدث الأب مع ابنته الصامتة منذ تلقيها خبر الرحيل وقال: ألن تودعي العجوز قبل رحيلنا؟.. سوف نتوجه للمطار عند الظهر.

(هياء) وهي تتناول إفطارها ببرود: لا.

(الأب): هل تعرفين أين سنرحل؟.. هل أخبرتك (حليمة)؟

(هياء): لا، ولا يهمني ذلك.
(الأب): إنها بلاد بعيدة جداً، وقد نمضي هناك سنوات.

(هياء): كما تشاء يا أبي..

(الأب): ما بكِ؟ لِمَ كل هذا الذبول؟

(هياء) وهي تقضم قطعة من الخبز وتحدق بالصحن أمامها: أليس هذا ما تريد؟

(الأب): أنا؟.. من قال إني أريد أن تتحول ابنتي إلى جسد بلا روح؟

(هياء) وهي تبتسم بحزن: لن ترضى عني مهما فعلت..

تجهَّم (الأب)، لكنه كظم غيظه وقال: هل لي بطلب؟

(هياء): تفضلْ يا أبي، كلي آذانٌ مُصغية.

(الأب) وهو يأخذ نَفَساً ويزفره ويخرج صندوقاً من تحت الطاولة: خذي هذه.

(هياء) وهي تنظر للصندوق دون أن تتحرك: ما هذا؟

(الأب): هاتف متنقل.

(هياء): هاتفي يعمل بشكل جيد.

(الأب): الهاتف ليس لكِ.

(هياء) باستغراب: لمن إذاً؟

(الأب): لصديقك (أمين).. ألم تخبريني من قبل بأنه لا يملك هاتفاً.

(هياء) بتعجُّب: ولِمَ تريد إعطاءَه هاتفاً؟

(الأب): كي تبقَيْ على تواصل دائم معه حتى وأنتِ مسافرة، ولا تقلقي من تكاليف المكالمات.

(هياء) بحزن: لا حاجة لذلك.

(الأب): لماذا؟

(هياء):.. (أمين).. (أمين) لم يعد يريد رؤيتي.

(الأب) مبتسماً: لا تضيعي الوقت واذهبي إليه.

(هياء) بتجهُّم: لقد كان كلامه لي واضحاً آخر مرة، وهو أنه لا يريد رؤيتي مرة أخرى!

(الأب) وهو يضع يده على الصندوق ويسحبه باتجاهه مبتسماً: حسناً كما تشائين..

نهضت (هياء) بسرعةٍ مُفاجئة من مقعدها، وخطفت الصندوق وجرت كالريح نحو باب القصر وأبوها يبتسم ويقول: لا تتأخري على موعد رحيلنا!

استمرت في العَدْو نحو منزل (أمين) وهي حافية القدمين حتى إنها أثارت استغراب الحراس عند بوابة القصر عندما مرت بجانبهم بسرعة خاطفة.

(البواب) موجهاً كلامه للحارس وعيناه تراقبان (هياء) وهي تجري تجاه منزل (أمين): ما بها السيدة؟

(الحارس) وهو يتابع المنظر نفسه: لا أعرف.

وصــلت (هيــاء) لمــنزل (أمـين) وطـرقت البـاب وهـي تتنفـس بسـرعة

وتمسـح قطـرات العـرق المنـهمر علـى وجـهها، فتـح (أمـين) البـاب وقبـل أن يتكلـم باغتتـه (هيـاء) وهـي

تتحدث بسرعة وعجالة وتوتر بالقول:

"أنا آسفة!.. أنا فعلاً آسفة!.. أنت أجمل شيء حدث لي في حياتي، وآخر شيء أريده هو أن يخيب ظنك بي.. سوف أرحل.. وسوف أصبح كما تتمنى.. سوف أدرس

حتى أحصل على أعلى شهادة يمكنني الحصول عليها.. لأجلك أنت.. أنت فقط..!".

ابتسم (أمين) وتقدم بضع خطوات نحو (هياء) التي كانت شبه منهارة، وعانقها بقوة وهو يقول: متى سترحلون؟

(هياء) وهي تعانق (أمين) بحزن: بعد بضع ساعات.

(أمين) وهو يضحك: ولِمَ كل هذا الحزن؟

(هياء) بصوت مختنق: لأني لن أراك فترةً طويلة!

(أمين) مبتسماً ومطبطباً على رأس (هياء): يمكننا التواصل.

(هياء) وهي تفك عناق (أمين) وترفع الصندوق أمامه وتستنشق بعض دموعها: نعم صحيح، وهذه هي الطريقة.

(أمين) وهو يتناول الصندوق من يدها وينظر له باستغراب: ما هذا؟

(هياء) وهي تبتسم وتمسح ما تبقى من دموعها: هاتف!

(أمين) مقلباً الصندوق بيده: كنت أتمنى أن يكون بعض البن.

(هياء) بحماس: يمكننا من خلاله التواصل في أي وقت ولأي مدة نشاء، ولا تقلق بشأن التكاليف!

(أمين) وهو يعيد الصندوق لـ(هياء): لا، لن نتواصل بهذا الجهاز الغريب؛ فأنا لا أحسن ولا أحب استخدام الأجهزة الحديثة، ولا نية لي لتعلم ذلك.

(هياء) وهي تأخذ الصندوق بخيبة أمل: أتفهَّمُ عدم رغبتك بالتواصل معي.

(أمين) مبتسماً: حقاً؟.. ولماذا؟

(هياء) بحزن شديد: لا أعرف.

(أمين) وهو يضحك ويهم بالدخول: اِتبعيني.

دخل الاثنان المنزل وتوجه (أمين) لغرفة المعيشة وفتح أحد الأدراج، وأخرج منه بعض الأوراق والمظاريف وقلماً جميلاً ومدّها لـ(هياء) وهو يقول: سنتواصل بهذه!

(هياء) وهي تأخذ القلم والأوراق والمظاريف باستغراب: ما هذه؟

(أمين): وهو يجلس على الأريكة: ألم ترَيْ ورقاً وقلماً من قبل؟

(هياء): بلى، لكن..

(أمين): سنتواصل بالمراسلة.
(هياء) باستنكار: المراسلة؟

(أمين): نعم.. هل أشرح لكِ ما المراسلة؟

(هياء): لا، لا.. أعرفها، لكن من يستخدم الرسائل الورقية في هذا الزمن؟

(أمين) وهو يُغمض عينيه ويشبك أصابعه ويأخذ نَفَساً عميقاً: مَنْ لا يزالون يؤمنون بالجمال فقط؟!

(هياء) وهي تحتضن الأوراق والمظاريف مبتسمة: حسناً كما تشاء يا (أمين).

(أمين) وهو لا يزال مغمض العينين: هل لديك وقت لقراءة كتاب أخير قبل رحيلك؟

(هياء) وهي تبتسم: كنت أريد أن أطلب منك ذلك، لكن..

(أمين) وهو يفتح عينيه: لكن تريدين العودة للاستعداد للسفر.

(هياء) وهي تبتسم ودمعة تنزل من محجرها: لا، لكن كنت أخشى أن ترفض..

(أمين) وهو يشير بحاجبيه للدرج الذي أخرج منه الأوراق والمظاريف: كتابك ينتظرك.

وضعت (هياء) ما كانت تحمله على الأرض، وتوجهت بسرعة وأخرجت الكتاب من الدرج ورفعته أمام ناظريها وهي تتمعن في عنوانه وتقول: "وهج البنفسج"؟

(أمين) وهو ينظر تجاه (هياء) مبتسماً: نعم.. كتابي الأول..

(هياء) وهي تحتضن الكتاب وتلتفت إلى (أمين): كتابك الأول؟

(أمين) وهو يحدق بالكتاب وكأنه يسترجع أياماً جميلة ولَّتْ: نعم.. لم أقرأه إلا مرة واحدة عندما قدمه لي أبي ولم أفتحه مرة أخرى..

(هياء): لماذا؟

(أمين) وهو يحيد بنظره للأمام ويسرح في النافذة بوجه حزين: مرة واحدة كانت أكثر من كافية..

(هياء) وهي تنظر للكتاب بين يديها بتوجُّس: ما الذي يحويه هذا الكتاب يا (أمين)؟

(أمين) وهو لا يزال سارحاً في أشعة الشمس المخترقة لنافذته: لا تتأخري في العودة.

فتحت (هياء) الكتاب ليخرج وهج نور قوي غطاها بالكامل..

وهج البنفسج

انقشع النور عن عيني (هياء) لتجد نفسها في بستانٍ كبيرٍ من زهور البنفسج يمتد بامتداد نظرها. كانت السماء منيرة، لكنها لم تَرَ شمساً في الأفق أو في عنانها.

نَسَمــات الــريح تـداعب خصـلات شـعرها ورداءَهـا الأبـيض الفضـفاض. كـل مـا أحـاط بـها كـان خـاطفاً للأنفـاس، وعبـق الزهـور قـد تشـبعت بـها تلـك النسـمات الـدافئة.

أخــذت نَفَســاً عميقــاً ورفعــت نظرهــا للســماء وحــدقت مبتســمة بـالغيوم القطنيـة. لـم يكـن فـي الجـوار شـيء سـوى شـجرة غريبـة، أوراقـها لـم تكـن خضـراء، بـل كـانت

بنفسجية اللون كبتلات الأزهار المنتشرة حولها. تقدمت (هياء) نحو الشجرة، لكنها لاحظت أنها لا تستطيع الوصول إليها مهما حاولت السير. بدأت تجري نحوها،

لكن ذلك لم يزد تلك الشجرة إلا ابتعاداً عنها! أحست لوهلةٍ بأنها حبيسة مكانها وبدأ القلق ينتابها، وخلال ذلك انحنت وقطفت إحدى الزهور البنفسجية على

أمــل أن تعــود مــن حــيث أتــت، لكــن مــا حــدث هــو أن تلــك الزهــرة أخــرجت وهجــاً قويــاً غطـاها وغطـى المكـان بـالكامل. انقشـع النـور عـن عـيني (هيـاء) لتجـد نفسـها فـي

البستان نفسه، لكن الزهور لم تكن بنفسجية، بل كانت ملونة والشجرة كذلك كانت خضراء بهية تجلس تحتها امرأة. تقدمت (هياء) نحوها ورأت أنها تستطيع

الاقتراب منها، وأن المسافة تتقلص بشكل طبيعي حتى وقفت أمامها وانتبهت أن تلك السيدة تمسك بين ذراعيها طفلاً صغيراً كانت تلاعبه.

(هياء) وهي تبتسم: هل هذا ابنك؟

رفعت المرأة رأسها مبتسمة وقالت: بل ابنتي.

(هياء): ما اسمها؟

(المرأة) وهي تداعب أنف طفلتها وتضحك: (هياء)..

(هياء) مبتسمة: اسمها على اسمي.

(المرأة) وهي تنظر لـ(هياء): بل هي أنتِ..

(هياء) وهي مصدومة: ما..؟

وقبل أن تكمل سؤالها خرج وهج نور قوي أعادها للبستان البنفسجي حيث كانت تقف مرة أخرى..

وقفت (هياء) مندهشة مما حدث، لكنها لم تطل في التفكير، وقطفت زهرة أخرى لتنتقل بالطريقة نفسها لمكانٍ آخر..

وجدت (هياء) نفسها هذه المرة جالسة على كرسي في غرفة ضيقة بسقف وباب مرتفع يقبع أمامها، وكان مصدر النور الوحيد آتياً من بعض الفراشات المضيئة التي

كـانت تحـوم علـى الأرض فـوق شـيء مـا. نهضـت مـن الكرسـي وتوجـهت نحوهـا، فتفـرق جمـع الفراشـات لتكشـف عـن مفتـاح بـدا أنـه للبـاب الوحيـد بالغرفـة الضـيقة.

أخـذت المفتـاح وأدخلتـه فـي ثقـب البـاب وأدارتـه. فُتـح البـاب مـن نفسـه بمجـرد أن أدارت (هيـاء) القفـل، وكشـف خلفـه عـن قاعـة كبـيرة مـذهبة بـالكامل تُعزف فيـها

موسيقى جميلة، لكنها خالية من الناس. تقدمت (هياء) فيها بضع خطوات فظهر أمامها شاب انحنى ومدَّ يده يدعوها للرقص، لم تتعرف إليه في بادئ الأمر؛ لأن

وجـهه كـان لـلأرض خـلال انحنائـه، لكـن مـا إن أمسـكت يـده حتـى اعتـدل فـي وقوفـه، ووضـع يـده علـى خاصـرتها وبـدأ بـالرقص معـها، ورأت أنـه أبوهـا لكـن وهـو فـي

العشرين من عمره تقريباً. ابتسمت (هياء) وهي ترقص معه وقالت: أبي؟.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

لم يرد الأب عليها بل اكتفى بالابتسام وإكمال الرقصة حتى توقف العزف، لينحني أمام (هياء) التي صفقت له وهي سعيدة جداً، ليخرج وهجٌ من الأرض المذهبة

أعادها للبستان البنفسجي من جديد. وقفت (هياء) في البستان البنفسجي الكبير وانتبهت إلى أنها باتت أقرب من السابق لتلك الشجرة، فتبسمت وقطفت زهرة

بنفسجية أخرى نقلتها بوهجها لمكانٍ آخر.

وجدت نفسها هذه المرة في باحة مدرسة وكانت مملوءة بالأطفال الذين يلعبون ويمرحون في ما بدا أنها وقت فسحتهم. راقبت (هياء) المنظر لثوانٍ حتى رأت بعضاً

مـن الصـبية مجتمعـين علـى طفـلٍ صـغيرٍ ويضـربونه بقسـوة. توجـهت (هيـاء) نحـوهم وأبعـدتهم عنـه ونَهَرتـهم بقـوة حتـى تفـرقوا وبقـي الطفـل علـى الأرض ممسـكاً

برأسه، لكنه لم يكن يبكي. نزلت (هياء) على ركبتيها ومدت يدها لطمأنة الطفل الصغير وهي تقول: يمكنك النهوض الآن يا عزيزي، لقد رحلوا.

أبعد الطفل يديه عن رأسه، وتأكد بنظره من أن بقية الأولاد قد رحلوا بالفعل، وجلس على الأرض بحزن ولم ينهض.

(هياء): لِمَ كانوا يضربونك؟

صمت الطفل واكتفى بالنظر أمامه..

(هياء) مبتسمة: يمكنك أن تخبرني؛ فربما أستطيع مساعدتك.

(الطفل) دون أن ينظر لـ(هياء): الأولاد يسخرون مني لأني لا أجيد القراءة.

ابتسمت (هياء) وقالت: لا تقلق سوف تجيدها بالممارسة.. في أي صفٍّ أنت؟

(الطفل): لا؛ فالمعلم يقول إني أعاني من مشكلة.

(هياء) باستغراب: مشكلة؟.. مشكلة من أي نوع؟

(الطفل): لا أعرف، لكنه أخبر أبي بأني أحتاج مدرسة خاصة.

(هياء): لا تقلق سوف تجيد القراءة، أعدك بذلك.

(الطفل) وهو يرفع نظره وينظر لعيني (هياء): لا تعِديني بشيء لن يتحقق..

استغربت (هياء) من كلام الطفل، وقبل أن ترد عليه خرج وميض قوي من عينيه غطاها وأعادها للبستان البنفسجي مرة أخرى، وهذه المرة لم يتبقَّ بينها وبين
الشجرة إلا خطوات بسيطة، فقطفت زهرة أخرى وانتقلت لمكان آخر.

فتحــت عينيــها بعــد زوال الـوهج ورأت أنـها فـي مـنزل (أمـين) مـرة أخـرى، وظنـت لوهلـةٍ أنـها خـرجت مـن الكتـاب وعـادت، لكنـها ارتـابت مـن هـدوء المكـان وعـدم وجـود
(أمين) أمامها، إضافة للغبار الذي غطى كل شيء، وهي حالةٍ لم تَرَ فيها المنزل من قبل. بدأت تتحرك وتتفحص بنظرها المنزل الذي بدا مهجوراً بالكامل، وتوجهت
للسرداب، لكنها وجدت بعد نزولها الأرفف فارغة، وبعضها تغطى بخيوط العنكبوت. استنكرت (هياء) المنظر بشدة وأصابها الضيق منه، وهمَّت بالصعود للطابق
العلــوي، لكنــها لمحــت صــندوق (أمــين) الخشــبي فـي مكانـه يغطيـه الغبـار. سـارت نحـوه وفتحتـه ووجـدته فـارغاً كمـا عـهدته. زادت وحشـة المكـان حولـها بعـدما فتحـت
الصندوق، فصعدت للطابق العلوي. وبعد دخولها غرفة المعيشة رأت كوباً من القهوة على المنضدة التي اعتاد أمين الجلوس بجانبها، فجلست على الأريكة،

لكنها

لم تمس الكوب وبقيت تفكر بصمت. لم يدُمْ تفكيرها مطولاً حتى خرج وهج نورٍ قوي من النافذة أمامها أعادها للبستان البنفسجي وأمام الشجرة تماماً.

احتارت (هياء) لوهلةٍ حيث إن الشجرة لم يكن حولها أيُّ زهور لتقطفها، ولم تكن الأوراق كذلك في مدى تصل إليه يداها، فالشيء الوحيد الذي كان بإمكانها لمسه

هو جذع الشجرة فقط، فلمسته ولم يحدث شيء. حاولت المسير مبتعدة عن المكان، لكنها ـ وكما حدث معها في السابق ـ لم تقدر على الابتعاد؛ فالأفق أمامها كان

أشبه بالأرض التي تتحرك بتحركها لتُبقيها مكانها. جلست وأسندت ظهرها لجذع الشجرة، وبدأت تستمتع بالمنظر بالرغم من قلقها المتزايد. طال جلوسها وزاد

معــه قلقــها وأحســت بأنــها حبيســة لمكــان لا يتغــير، وبــدأت تشــعر بــالملل الــذي اســتمر واســتمر ولــم ينتــهِ إلا عنــدما شــعرت بــالنعاس، لتسـتلقي علـى أثـره تحـت ظـل

الشجرة وتغمض عينيها وتغفو. لم تدُمْ تلك الغفوة ثوانِيَ حتى فتحت (هياء) عينيها لترى نفسها عند مجموعة من القبور والسماء مغطاة بسحب رمادية وكأنها

توشك أن تمطر. نهضت مفزوعة ولم تكن متيقنة مما إذا كانت تحلم أو أنها لا تزال في الكتاب. بدأت تتجول بين تلك القبور التي نبتت على كل واحدٍ منها زهرة

بنفسجية، وغُرس فوق كل قبر شاهد صخري كُتب عليه اسم صاحبه. أمعنت (هياء) النظر في بعض الشواهد الصخرية، ولم تتعرف إلى أيٍّ من تلك الأسماء حتى

رأت قبراً بلا شاهد، فمدت يدها وقطفت الزهرة البنفسجية التي نمت عليه، وما إن التقطت الزهرة حتى بدأت السماء تمطر. كان لون الماء أسودَ كالحبر الداكن

غطى خلال ثوانٍ كل القبور، فشعرت (هياء) برعبٍ شديد خاصة عندما ذابت الأزهار جميعها بما فيها الزهرة التي كانت بيدها. توقف المطر.. وانقشعت الغيوم

وخرجت الشمس من خلفها بوهج قوي غطى كل شيء، لتجد (هياء) نفسها أمام (أمين) وقد خرجت من الكتاب.

(هياء) وهي في حالة لا توصف: ما هذا الكتاب يا (أمين)؟

(أمين) وهو جالس على الأريكة: هذا الكتاب بالذات لا يمكنني أن أناقشك فيه.

(هياء): لكن..

(أمين) بهدوء: عودي للمنزل، لقد حان وقت رحيلكم..

(هياء) وهي توجه نظرها للساعة في هاتفها: لكن الوقت لا يزال..

فوجئت (هياء) بأنها أمضت ساعات في الكتاب وأن الظهر قد حل، فارتبكت وقالت لـ(أمين): لقد تأخرت!

(أمين) مبتسماً بحزن: لا تقلقي، لا يزال هناك وقت كافٍ.

التقطت (هياء) المظاريف والقلم والأوراق من على الأرض، وجرت نحو (أمين) وقبَّلته على وجنته وهي تقول: سوف أكتب لك دائماً.. أعدُك!

همت (هياء) بالتوجه نحو الباب، لكن (أمين) أمسك ساعدها، فالتفتت إليه ورأت في عينيه كلمات كثيرة ضجّ بها محجراه، لكنه لم يتفوَّهْ بأي منها وأفلت يدها

قائلاً: لا تجري بسرعة كي لا تقعي..

ابتسمت (هياء) وعادت مسرعة للقصر..

أجمل ما قرأت في حياتي

سافرت (هياء) مع أبيها و(حليمة)، وانتقلت للعيش في بلاد غربية بعيدة، والتحقت بأرقى جامعة في تلك البلدة. كانت تلك البلاد باردة معظم أيام العام، لم

تنسَ خلالها (أمين)، وكانت تكتب له رسائل بشكل منتظم تخبره فيها عن كل ما كانت تقوم به وعن حياتها الجديدة وأيامها الأولى في الجامعة، وعن نوعية الكتب

التي كانت تقرؤُها، وكيف بدأت تتعلم وتتقن لغة جديدة. كانت الرسائل مَلأى بأدق التفاصيل عن حياتها اليومية، لكن وبعد عدة رسائل شعرت (هياء) بالقلق؛

لأن (أمين) لم يكن يرد عليها برسالة واحدة، فطلبت من أبيها أن يُرسل أحداً من موظفيه كي يطمئن عليه. وبالفعل تلقى أبوها اتصالاً في اليوم نفسه أخبره فيه

الموظف بأنه مر بمنزل (أمين)، وكان بصحة جيدة وأبلغه بأنه تسلم جميع رسائل (هياء). استغربت (هياء) من هذا الكلام عندما أخبرها أبوها به، وتساءلت عن

سبب عدم كتابة (أمين) أي رد لها، فأجابها أبوها بالقول: "لعله مشغول.. ثم لِمَ اخترت هذه الطريقة البائدة في التواصل"؟

(هياء) وهي تقضم أظفارها بتوتر: هو من اقترح تلك الطريقة وليس أنا؟.. هناك أمر ما يمنعه من مراسلتي، أنا متأكدة من ذلك.

(الأب): على أي حال، الموظف الذي أرسلته أكد لي أنه بخير، وأنه تسلم جميع رسائلك.

(هياء) بريبة: هل ستستاء مني لو قلت لك يا أبي إني لا أصدقك!

(الأب) وهو يجلس أمام المدفأة في بيتهم الجديد ويشعل غليونه: لا تصدقينني إذاً..

كانت (هياء) في واقع الأمر تصدق أباها، ولم تشكّ بكلمة واحدة من كلامه، لكن حيرتها من عدم رد (أمين) على رسائلها دفعتها لقول ما قالته. وخلال تفكيرها

قال أبوها وهو يدخن غليونه ويشاهد ألسنة اللهب في المدفأة: لا تقلقي، سيكتب لكِ قريباً..

(هياء) وهي تبتسم: هل تصدق يا أبي أني لم أرَ أسلوبه وخطه في الكتابة قط؟

(الأب): عجيب.. كل هذه السنين ولم تريه يكتب من قبل؟

(هياء) وهي تبتسم بحزن: كانت القراءة تأخذ كل وقتنا.

مضت الأيام والأسابيع وتحولت لأشهر وسنين، أكملت فيها (هياء) دراستها الجامعية، وتُوفي خلالها والدها لترث كل أملاكه، لكنها لم تعُدْ لموطنها؛ لأنها كانت لا

تريد العودة دون الحصول على شهادة عليا تتباهى بها أمام (أمين). أوكلت (هياء)

مهام إدارة أملاكها التي ورثتها لأحد الموظفين الكبار الذين كان أبوها يثق بهم،

وكانت تتواصل معه من وقت لآخر كي تطمئن على (أمين) أولاً، وعلى بقية الأمور الأخرى لاحقاً. وكانت في كل مرة تطلب من الموظف أن يوصلها بـ(أمين) هاتفياً،

لكنه يخبرها بأنه كان يرفض ذلك بشدة، وحتى عندما طلبت منه أن يسأله عن سبب عدم مراسلته لها أخبرها الموظف بأنه لا يرد، ويكتفي بالابتسام له فقط قبل

أن يغلق الباب. في آخر حديث لـ(هياء) مع ذلك الموظف وبعد إغلاقها للخط، سألتها (حليمة): ألا تزالين تحاولين التحدث مع (أمين)؟

(هياء) وهي تجلس أمام المدفأة سارحة: لا أفهم يا (حليمة) سرّ تجنبه لي.

(حليمة) وهي تتوشح بوشاح قطني وتجلس بجانب (هياء): أنا التي لا أفهم سر إصرارك على الحديث معه.

(هياء) وهي تلتفت إلى (حليمة) بتجهُّم: ماذا تعنين بهذا الكلام؟!

(حليمة): لا شيء.. لا شيء يا سيدة (هياء).

هاتف (هياء) الخلوي يرنّ.. ترفع شاشته أمامها.. ترى اسم الموظف المسؤول عن أملاكها.. تفتح الخط.. تقرب السماعة من أذنها.. تنصت لحديثه بصمت.. تنهي

المكالمة بكلمة واحدة:.. "سأكون على أول طيارة للبلاد"..

بعد رحلة طويلة في الجو وصلت (هياء) مع (حليمة) إلى الديار لحضور مراسم دفن (أمين)، والتي أوصت (هياء) بأن تكون على أعلى مستوى، وأن يُدفن في فناء

قصرهم السابق، وألا يدفن في المقابر العامة. وكان تحقيق ذلك يسيراً عليها بسبب علاقاتها الواسعة وسلطتها الممتدة، ولأن (أمين) لم يكن لديه أي أقارب يسألون

عنه. دُفن (أمين) كما وجهت (هياء) في فناء القصر، وأمرت بأن تُزرع حول قبره كمية كبيرة من زهور البنفسج، وأمرت كذلك بأن يُصنع له شاهد قبرٍ يكتب عليه

"أمين المكتبة".

انتهت مراسم الدفن التي لم يحضرها أحد سوى (هياء) و(حليمة) وحراس وخدم القصر، وكانت (هياء) تلبس فستاناً أسودَ لم يكسر لونه سوى زهرة بنفسجية

وضـعتها عنـد ياقتـها. أمـرت (هيـاء) الجمـيع بـالرحيل وتركـها عنـد القبـر وحـدها، ووجّهـت كـذلك المـوظف المشـرف علـى أملاكـها بـأن يشـتري مـنزل (أمـين)، الـذي نُقلـت

ملكيته للبلدية لعدم وجود ورثة، وأن يغلقه ويعين حراسة عليه. أمضت (هياء) مدة ليست بالقصيرة أمام قبر (أمين) في صمت، توجّهت بعدها سيراً على قدميها

فجأة نحو منزله، فلحق بها مجموعة من الحراس الموكلين بحمايتها، لكنها أشارت لهم بالبقاء وتركها وحدها. وصلت لعتبة المنزل وفتحت الباب ودخلت بخطوات

بطيئة. توجهت بعدها لباب السرداب وفتحته، ونزلت لتجد أن المكتبة كما هي، ولم يتغير فيها شيء. إلى تلك اللحظة ـ ومنذ أن تسلمت (هياء) خبر وفاة (أمين) ـ لم

تذرف دمعة واحدة، لكن ذلك لم يدُمْ طويلاً لأنها رأت الصندوق الخشبي، وقررت أخذه معها. وقبل أن تصعد للطابق العلوي فتحته وهي تسير نحو السلم،

فتوقفت وبدأت تذرف دموعاً ساخنة أحرقت قلبها قبل وجنتيها. رأت (هياء) أن الصندوق لم يكن فارغاً، بل امتلأ برسائلها التي كانت ترسلها لـ(أمين). وضعت

(هياء) يدها على فمها وبقيت تبكي دقائقَ. احتضنت (هياء) الصندوق واستجمعت قواها وصعدت للطابق العلوي في نية للخروج من المنزل، لكن استوقفها رؤية

سيدة عجوز تجلس على أريكة (أمين) في غرفة المعيشة تحدق بالنافذة التي اعتاد أن يُحدق بها، فاقتربت (هياء) منها وهي تمسح دموعها وقالت بصوت متحشرج

من البكاء: من أنتِ؟

(السـيدة العجـوز) وهـي تقـف مبتسـمة: عـذراً.. لقـد رأيـت بـاب مـنزل السـيد (أمـين) مفتوحـاً فـدخلت.. أعـرف أنـه تُوفـي، وقـد حـاولت حضـور مراسـم دفنـه فـي القصـر

المقابل، لكن الحراس منعوني من الدخول.

(هياء): لم تخبريني من أنتِ؟

(السيدة العجوز) مبتسمة: أنا (فاطمة) جارة السيد (أمين).. أنتِ (هياء) أليس كذلك؟

(هياء): نعم.. كيف عرفتِ؟

(فاطمة): السيد (أمين) كان يتحدث عنكِ دائماً.

(هياء) وهي تجلس محتضنة الصندوق الخشبي: يتحدث عني؟.. أنا لم أَرَك هنا من قبل.

(فاطمة) وهي تجلس على أريكة السيد (أمين): كلامك صحيح؛ فقد انتقلت أنا وابني للمنزل المجاور للسيد (أمين) بعد أشهر من رحيلك للخارج.

(هياء): يبدو أن (أمين) أخبرك بالكثير.

(فاطمة) وهي تضحك: لا أعتقد؛ فالسيد (أمين) قليل الحديث.

(هياء): لكن يبدو أنكما تحدثتما كثيراً عني.

(فاطمة): ليس تماماً.

(هياء) بنظرة استغراب: كلامك غير مفهوم.

(فاطمة) وهي تبتسم: سأوضح لك.

(هياء): أنا مُنصتة.

(فاطمة): بعد وفاة زوجي ووالد ابني الوحيد، كانت جدران منزلي الذي قضيت فيه أجمل أيام حياتي تضيق بي بالرغم من أن بعض أقاربي حاولوا إقناعي بالبقاء

حول ذكريات شريك حياتي، لكني لم أستطع؛ فألم ذكراه كان أقوى مني، وتطاردني في كل ركن من أركان المنزل؛ لذلك بعنا منزلنا واشترينا منزلاً في هذا

الحي،

وحيث إن ابني يخرج للعمل كل صباح ويتركني وحيدة، أحببت التعرف إلى سكان الحي وبدأت بمنزل السيد (أمين).

(هياء) وهي تدمع وتضحك: وهل استقبلك بشكل جيد؟

(فاطمة) ضاحكة: بل استقبلني استقبالاً أغناني عن التعرف إلى بقية سكان الحي.

(هياء) وهي تمسح دموعها ضاحكة: هذا هو (أمين) الذي أعرفه.

(فاطمة) وهي تسرح باسمة في إبريق القهوة: كان رجلاً طيباً جداً ومفعماً بالحياة، لكني لمست في أحد الأيام بعض الحزن الذي حاول إخفاءَه، فسألته عن سبب

ذلك الحزن. حاول في البداية إنكار الأمر، لكن حدسي لم يكن ليخطئ تلك اللحظات الكئيبة التي كان يمر بها من وقتٍ لآخر، وكان لابد أن أعرف السبب.

(هياء): وهل عرفتِ سبب حزنه؟

(فاطمة): نعم.

(هياء): ماذا كان؟

(فاطمة) وهي تنظر للصندوق في حجر (هياء): محتوى ذلك الصندوق.

(هياء) بحزن: هل كانت رسائلي سبب حزنه؟

(فاطمة): على العكس تماماً، تلك الرسائل هي التي أخرجته من حزنه وأعادت له الحياة كما كان يقول.

(هياء) باستغراب: هل أنا مشوشة أم أني لم أفهم كلامك؟

(فاطمة): ماذا تقصدين؟

(هياء): إذا كان قد قرأها فلِمَ كان حزيناً؟

(فاطمة) عندما قابلته لم يكن قد قرأ أياً منها، وكان ذلك سبب حزنه.

(هياء): ولِمَ لم يقرأها؟.. لقد كنت أكتب له على الدوام وهو من كان يتجاهلني ولا يرد عليها.

(فاطمة) باستغراب: كيف يرد عليك؟.. السيد (أمين) لا يجيد القراءة أو الكتابة.

(هياء) وهي مصدومة: ماذا؟!

(فاطمة): نعم.. وقد كان حزيناً لأنه يتسلم رسائلك ولا يستطيع قراءتها وأنا من قرأتها له بعد ذلك.

(هياء) وهي في حالة من الذهول: يبدو أنكِ تتحدثين عن شخص آخر.. السيد (أمين) يقرأ طَوَال حياته، لقد شاهدته من قبل يقرأ منذ أول يومٍ قابلته فيه.

(فاطمة) وهي تبتسم: أنا أيضاً كنت أراه يفعل ذلك، وسألته عن السبب فقال لي إنها عادة يمارسها أمام الناس، وتعوّد عليها كي يتجنب سخرية الناس منه لعدم

قدرته على القراءة، والتي تلاحقه منذ الصغر.

(هياء): لا أصدق..

(فاطمة): خلال سنوات معرفتك به، هل رأيتِه يوماً يقرأ شيئاً بصوتٍ مسموع أو يكتب حرفاً؟

ابتسمت (هياء) بدموع صامتة وهي تحدق بـ(فاطمة) لأنها أدركت أنها بالفعل لم تَرَ (أمين) يقرأ كتاباً قط بصوت مسموع، وأنه كان يتظاهر بالقراءة للكتب غير الكتب التي كانت تنقله لعوالم أخرى، ولم ترَهُ أيضاً يخط حرفاً أو يكتب شيئاً من قبل.

(فاطمة) وهي تراقب (هياء) بقلق: ما بكِ؟.. هل انزعجت من كلامي؟

(هياء) وهي تبتسم وتدمع: لا، أبداً يا خالة..

(فاطمة) وهي تقف وتسير تجاه (هياء) وتجلس بجانبها: لِمَ تبكين إذاً؟

(هياء) ودموعها تتحوّل لبكاء: أنا أفتقده فقط!

عانقتها (فاطمة) وهي تبتسم وتقول: وهو كان يفتقدك أيضاً..

بعد دقائق من العناق الصامت قالت (فاطمة): لقد أعطاني (أمين) شيئاً كهدية.. أظن أنَّه من الأفضل لو أخذتِها أنتِ.

(هياء) وهي تمسح دموعها: هدية؟

(فاطمة): نعم.. سوف أرسلها لكِ مع ابني.

(هياء): هل هي ثقيلة لهذا الحد يا خالة؟

(فاطمة) وهي تبتسم وتنهض وتهم بالرحيل: نوعاً ما.

(هياء): يمكنني إرسال بعض الرجال ليأخذوها.

(فاطمة): لا.. سوف يوصلها ابني إلا إذا كنتِ تمانعين.

(هياء): لا، أبداً يا خالة، سأكون بانتظاره.

(فاطمة): حسناً يا ابنتي.

خرجت (فاطمة) وأغلقت الباب خلفها، نهضت بعدها (هياء) مباشرة وتوجهت للسرداب، وبدأت تبحث بين الكتب حتى وجدت كتاب "حقول القمح" وأخذته

معـها. عـادت للقصـر وأخبـرت الحـراس أن شـخصاً سـيأتي بعـد قليـل وأمرتـهم بـأن يسـمحوا لـه بالـدخول، ووضـع مـا يحملـه فـي فنـاء المـنزل. سـارت بعـدها نحـو قبـر

(أمين)، وجلست أمامه ممسكة بالكتاب وهي تقول:

"أعـرف أنـك حـذرتني مـن قـراءة أي كتـاب مـرتين كـي لا أحبـس فيـه، لكـن عـالمي لـم يـعُدْ جمـيلاً مـن دونـك؛ لـذا قـررت أن أعـود لأول وآخـر مكـان شـعرت فيـه بالراحـة

والاطمئنان.. سأعود لحقول القمح وأعيش حياتي مع (عرندس) مرة أخرى، ولا أريد أن أعود".

أمسكت (هياء) دفتي الكتاب وهمّت بفتحه، لكنها قوطعت بصوت يأتي من خلفها يقول: سيدة (هياء)؟

التفتت (هياء) نحو مصدر الصوت ورأت (عرندس) يقف خلفها ممسكاً زهرة بنفسجية، وبالرغم من صدمتها فإنها وقفت وقالت: (عرندس)؟!.. هل أنا أحلم؟

تبسم الشاب ومد لها الزهرة البنفسجية وقال: أمي أوصتني بأن أحضر لكِ هذه.

(هياء) باستغراب: أمك؟

(الشاب): نعم أمي (فاطمة).

(هياء) تأخذ الزهرة وتستنشق عبيرها وتبتسم بصمت..
(الشاب) يرتبك ويمد يده للسلام على (هياء)..

(هياء) تمد يدها وتصافحه وهي تبتسم..

(الشاب) وهو يهم بالرحيل: إلى اللقاء سيدة (هياء).

(هياء): انتظر!

(الشاب) وهو يتوقف ويلتفت: نعم سيدة (هياء)؟.. هل تأمرين بشيء؟

(هياء) وهي تبتسم:.. هل تحب القراءة؟

وهج البنفسج